طاعون الشرق

هيثم نافل والي

الكتاب : طاعون الشرق (رواية)

المؤلف : هيثم نافل والي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع : ١٤٦٨٤ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 255 - 8

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس: ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



هيثم نافل والي

طاعون الشرق

رواية

إهـداء

إلى التي تحملت أعبائي مغتبطة بما تعمل، بروح ضحوكة متفتحة،

لم تعرف يومًا الكلل، ولم يداخلها اليأس أو الملل..

التي علمتني في الحياة كيف أعشق.

زوجتي "نهاية إسماعيل بادي"

هيثم نافل والي

٢٣ آذار ٢٠١٦

ميونخ، ألمانيا

المشروع الروائي للمؤلف

بقلم: أبطال الرواية، الروايات

صدر للمؤلف الرواية الأولى بعنوان"أنْهُر بنت الرافدين "كجزء منفصل ومكمِّل لرواية "طاعون الشرق "التي بين أيدينا، وسيكون هناك جزء ثالث يحمل عنوان "الوهم " وهي المرحلة التجسيدية الملحمية التي تفنَّن فيها الروائي العربي "هيثم نافل والي "وأبدع مصوِّرًا أهم وأخطر حقبة تاريخية مرّت على العراق خاصة والقارات العربية عامة؛ على مدار نصف قرن تقريباً... بذلك، يكون قد وضع لنفسه ومن سيلحقه أولى منصات التاريخ المنصف المحايد الذي ستتعلمه الأجيال اللاحقة بما فيها من وصفٍ، وسرد، وتأمل، ومحاكاة لمستقبل يعتبره حاضرَا واقعًا وموجودًا، وما سيأول عنه الوضع الذي تشرق منه الشمس بعد عشرات السنين.

(١)

انضباطي خلقه مركبة في أعماقي منذ الصغر ، حواري مع رغباتي الجامحة دائمًا ينتصر ، لم يؤثر فيّ تجارب شاهدتها عن كثب ، حافظت على تصوري الوقور لمعنى الحرية ، لم أتزعزع للتهم الساخرة المألوفة بالانغلاق والرجعية ، ولم أبرأ من الحزن .

نجيب محفوظ

- **تنويه مجهول الهوية كعمر الشيطان:**

القلق كل عالمنا ، لولاه لما قدرنا أن نكتب . أرجو من القارئ الذي يشبهني أن لا يهزأ من أبطال روايتي . . . لأنه لو تخيل حاله بصدق ، لوجد نفسه لا يختلف عنهم كثيرًا ولا قليلا ، كما أتمنى أن لا يستغرب عندما يجد كل ممثل داخل كون هذه الرواية في حياتها ويظهر على مسرحها هو بطل على شكل من الأشكال تمامًا كالقارئ والمؤلف ! .

المؤلف

يقال، إن الله عرف مكر وكيد الأفعى فوضع أرجلها في بطنها. بالتجربة عرفنا بأن الندم وجه معذب بالخيبة لا يفيد كحرف اللوعة لو. عندما تتحول الظروف أو تكون أقوى من اللامبالاة تستحيل الحياة إلى موت سريري. والخطايا جميعها يمكن أن تغتفر إلا إيذاء الناس.

على الرغم من أنانية نداء المفرطة وحبها الزائد عن العادة لنفسها وعدم رغبتها لرؤية الجمال على الأرض أو الخير بين الناس لم تنحرف بسلوكها ذاك نحو هاوية الحقد أو البغضاء... نداء، الابنة المحرومة من الجمال، الطمّاعة المحبة للمال. حظها عاثر بسبب تصرفاتها الرعناء غير المحسوبة، المندفعة نحو إرضاء الرجل الذي تفكر الارتباط به بكل وسيلة... هذا ما سمم أيامها، لذلك، اشتهرت بالخيبة؛ تصغر أختها سارة بعامين، طويلة عريضة الكتفين كسبَّاحة، شعرها أسود من الجير، ركبت لها أسنان ثلاث أمامية اصطناعية ظهرت أكبر من حجم الأسنان الطبيعية بعد أن تعرضت في صغرها إلى حادث سير أتى على ما تبقى من حُسن وجهها الذي لا يذكر أصلاً بالطيبة، خدين منتفخين طافحين بالحبيبات التي انتشرت دون أن تعرف علة وجودهن، بشرتها غامقة كفجر لا تشرق عليه شمس، من يراها لا يصدق بأنها تنتمي إلى عائلة ذات صفات رائعة من الجمال والوسامة وبعيون زرقاء وخضراء إلا هي وعينيها لم تكونا إلا سوداوين كفحمة الموقد فزاد كل ذلك من تشاؤمها وكآبتها حاولت مرة الانتحار ولم توفق... مهزوزة الشخصية، تميل للضعف أكثر منها للقوة، لها قدرة على تغيير رأيها في اللحظة عشر مرات، سريعة القرار كسيل الدموع المتفجرة، سريعة الفرار من المواقف الصعبة التي تواجهها، تصرخ أحيانًا دون وعي وهي في عزة نشوتها أو فرحتها، أورثت فيما بعد ابنتيها طبعها الكريه هذا من غير أن تدرك. تنسى كثيرًا وبسرعة عجيبة، فتوحي للمرء الذي يخالطها بأنها لابد ومصابة بانفصام في الشخصية، نسيانها لا يمكن تجاهله، ومع ذلك تجدها ترفض بشدة تصديق ذلك. تشتغل في معمل للخياطة بمنطقة العطيفية المستظلة ببساتينها الجميلة ونخيلها الشامخ. خطبت مرتين وفصلت خطوبتها لأسباب لم يصرِّح بها كِلا الخطيبين. دينها غير تبشيري، لا يمكن الدخول أو الخروج منه، طائفتها صغيرة جدًا لا تتجاوز بضعة آلاف شخص... هي تعرف

ذلك جيدًا، وخبر انفصالها الذي تكرر ينتشر بسرعة بين أفراد رعيتها مثل حريق هائل يشبّ في معمل قطن، فأثر عليها ذلك سلبيًا، باتت متوترة، مسحوقة، تبكي كثيرًا دون سبب، عصبية المزاج، تكثر من تناولها للأدوية المهدئة والمشاجرة مع أختها التي تصغرها التي تدعى أنْهُر، لا تطيق الحديث معها، تتمنى أن لا تراها أمامها تشاركها غرفتها، ناهيك عن اتهامات الأم النازلة الصاعدة لها وتوبيخها على أنها أصبحت عانس وهي التي لم تتجاوز بعد عامها الرابع والعشرين وتسمعها من مُرِّ الكلام أقساه.

لكن، ما أن سمعت الصوت المدوي القادم من غرفتهم في الطابق الأول حتى ارتجفت أوصالها، اختنق قلبها بالرعب ولم تعد تستطيع التحكم أو السيطرة على أعصابها، تركت ما كانت ملتهية به حينها في حياكة بلوزة لها، ركضت بسرعة جنونية صاعدة السلمات دون وعي، فتحت باب الغرفة كوحش مثخن بالجراح وداخلها يفور بذكريات غير بعيدة عندما واجهت المصير نفسه وقتما حاولت الانتحار ولم تنجح بمسعاها الجريء المحمل بالعذاب والألم، فندت عنها صرخة رعب مجروحة وهي ترى أختها أنْهُر مسجاة على الأرض وعلبة دوائها الذي تستعمله ضد مرض الكآبة الذي لازمها منذ مدة غير قصيرة بجانبها فارغة تتدحرج ببطء جنائزي...

تبعها كمال الذي بقي هادئًا لا يبالي بما يرى أمامه من منظر يجلجل القلوب من مكانها كأن المسجى أمامه لا يمت له بأي صلة رحم، بل جسد لا يعود إلى فصيلة البشر، تنحى جانبًا ببرود مكتفيًا بقوله:
- إلى الجحيم.

ذلك الابن المدلل الذي دعيت أمه باسمه على الرغم من أن الابن البكر هو كريم وليس كمال؟ لكن غربة كريم المبكرة وغيابه المستمر اعتبر من الأموات، فعرفت الأم مع الوقت بأم كمال... والأخير كان صغير العقل، جميل الطلعة، لم يمنحنه الرب غير موهبة الوسامة، المغتر بنفسه كالطاووس، أشقر الشعر، بشاربين رفعين مثل هلالين مقلوبين يحرسان شفتيه، غالبًا ما يضع نظارته الشمسية أمام عينيه الجميلتين الزرقاوين وهو يشعر بانتعاش عجيب كعادته المزمنة التي يصعب على

الشيطان تغيرها، ثم دخلت الأم عليهم وهي تلهث صارخة بصوت يقهر كالعويل الذي يمزق الصمت ويهتكه بخبل:

- ابنتي... ماذا جرى لها؟

ثم وجهت كلامها إلى كمال حبيب قلبها البارد بوقفته ورد فعله:

- تحرك، جهز السيارة وأخرجها من الجراج، أختك ستموت لو لم نلحقها...

عرف عن الأم بدرية بأنها إنسانة مدبرة، قوية وقوتها تكمن في جبروتها وتسلطها، رائعة الجمال، لا يكترث لها أولادها كما تحاول هي إسعادهم بطريقتها الخاطئة من حيث الدلال الأعمى المدمر، وميزانها غير معتدل ينقصه العدل والثبات في توزيع حبها لأفراد أسرتها بشكل متوازي ومتوازن للجميع، هذا كان أحد أسباب تعاستها في الحياة من دون أن تدري. ورثت عنها ابنتها الصغرى أنْهُر جمالها وحسن طلعتها وقليل من عنّدها. نافست الأم زوجها العمل والجدل، والأخير يأتي نتيجة الفهم وعدم أخذ الأمور على علاتها دون فهمها وتحليلها ومن ثم إعطائها الحلول المناسبة، حيث تجد نفسها مخيرة لا مسيرة، هذا ما كان يغضب زوجها منها، فهي لا تغض الطرف على تصرفاته متى ما رأته قد تجاوز حدود المعقول... عندها ترده إلى جادة الصواب بالقوة التي تملكها، الحكمة الفطرية التي تتمتع بها بعض من نسل حواء، وهذا كله لا يرغب به زوجها، يسميه تجاوزًا على رجولته الشنيعة التي لا تعترف بحق المرأة كإنسان كامل مثله... أخذت ابنتها أنْهُر بالإضافة إلى جمالها بعض من قوة شخصيتها لكنها أهملت الأخيرة تناقضات أمها التي تمقتها وكم كانت تكره ميزانها غير العادل في تقسيم حبها لأسرتها.

كما عرفت الأم بميزة لا تخطئها العين السليمة وهي أنها امرأة مدبرة، تعودت أن تشتري وتبيع، عرفت كيف تأتي بالمال، لهذا السبب ربما كان داوود زوجها لا يحب أن ينفق على البيت من ماله الذي يسميه الخاص!. يشتد الصراع ويبلغ ذروته عندما يطالب زوجته بمضاجعته... حيث تناقلت الألسن بالسر والعلن "بأن زوجته أودعته السجن بتهمة لفقتها له بانتمائه إلى أحد الأحزاب المعارضة، كما يقال والله أعلم، بأنها لم تكتفِ بذلك، بل أدخلته مستشفى الأمراض العقلية بسبب لوثة عصبية أصابته للتخلص من لعناته ونزواته وتعسفه وما يمارسه من ظلم وطغيان داخل بيته". فشاء القدر أن يبخل عليها أسباب الترف والراحة؛ مع الوقت تحولت دون أن

تعي رجل البيت دون منافس. هي من تقرر للعائلة وتصرف عليها، استقلت ماليتها عن زوجها، سعادتها أن تعير أحدهم نقودًا، أصبحت فجأة تحب أن يستلف منها الآخرون، تعطيهم دون حرج أو سؤال، تقول لهم: خذوا، أرجعوا النقود متى ما تيسر لكم، هي لم تكن تبذر نقودها كما يتوهم للبعض، بل حريصة جدًا على نقودها حرصها على سمعتها، لكنها تريد أن تشعر بأنها السيد الذي يمتلك زمام الأمور... وكلما ازداد زوجها إهمالاً لأسرته وعدم مبالاته لها، كلما توسعت في صلاحياتها وسيطرتها وسطوتها، حتى باتت مع الأيام رجل البيت دون منازع، ناهيك عن هجران زوجها دون أن تسمح له بطلاقها؛ دينها لا يسمح لممارسة حرية الطلاق بسهولة، أجبرت نفسها على الحياة والاستمرار معه تحت سقف هذه الظروف غير الطبيعية لأسرة عراقية، زهدت به جنسيًا وعودت نفسها بأن تحيا من أجل بناتها وابنيها فقط كراهيةٍ لا تسعى إلى الحصول على مُتعها الطبيعية كزوجة، ولم تطالبه يومًا بحقها ذاك منذ سنوات طوال... فأصبحت زوجة بلا رجل!... زوجة في الأوراق فقط، أمام الناس والمجتمع... في واقع الحال عاشت زاهدة فيه، لا تتمتع بأي حقوق زوجية، وافقت على حياتها تحت وزر القهر والحرمان ذاك من أجل بناتها وابنها، من أجل حياتهم ومستقبلهم لا غير. في الليل يتغير لون وجهها الأبيض الملائكي فيبدو أسودَ ممتقعًا، ثم تسمع ابنتها الصغيرة أنْهُر صوتها اللجوج، اليائس، الخائف يرتفع في أرجاء البيت وهي تناديها وتطلبها... ليس لأن تقبّلها قبل أن تنام، أو تحكي لها حكاية من حكايات الأطفال، بل لتدعوها أن تتمدد بجانبها، أن تبقى في حضنها، معها في السرير، لتتوسط بين الزوجين، لتحمي الأم من إزعاجات وإلحاح الزوج المهجور. البنت الصغيرة كانت تسمع توسلات الزوج وهمساته، أنينه، وشتائمه البذيئة، ثم ترى الأم وهي تصده، تتمسك بابنتها وترصها إلى جانبها بقوة، فتكاد أضلعها الفتية الرقيقة تنخلع من مكانها أو تتحطم. الطفلة تعي، تبكي، تتلوى تحت الغطاء وبين أضلع أمها الدافئة... مدفونة، محبوسة بالآهة والقلق والرهبة، تنظر بعينين بريئتين مكبلتين بالخوف إلى أمها وهي ترى أباها يشد شعر أمها من فوق رأسها بيدٍ ترتعش تتراءى لها في الظلام كيد شبح بلباس أسود... ساعتها لا تبدي حراكًا سوى الكتمان والشعور بالكره والبغضاء لأبيها الذي تحبه لقسوته

المفرطة بحضورها القسري ونظراتها المتعلقة بالخيال، الماحقة بغير لسان، الصارخة بلا صوت.

ردَّت عليها نداء وهي تذوي بهبل:

- أدويتي وأعرفها، ستنتشر البثور الحمراء في كل جسمها ثم تموت اختناقًا إذا لم نسرع بنقلها إلى المستشفى لغسل معدتها قبل انتشار الدواء وسريانه في دمها... وهي تحاول رفعها من على الأرض وأمها تساعدها، شاركتهم الدلوعة المغرورة سارة الجميلة؛ جمالها مضافًا له تكبرها كانا سبب هزائمها ونكساتها في حياتها، لم تعترف يومًا بمرضها المفضوح العاري الواضح للعيان دون جهد، ومتى اعترف الإنسان المتجبر المتكبر والمغرور بسلطان آفاته عليه وبالتالي على كل من يتصل به؟!.

لم تتجاوز سارة السادسة والعشرين، لا جدال على جمالها وغرورها بجمالها!... لها صوت متميز تسمع فيه رنة الدف المثقوب، لا يعجب صوتها، بل لا يطاق، يستفز، منفر ومقلق للأعصاب... لا يتناسب وجمالها الرائع؛ شعرها أشقر، عيناها زرقاوان كعيني كمال لكنهما أكثر زرقة، أقصر قليلاً من أختها أنْهُر، ذلك لم يشكل لقوامها عيبًا، اشتهرت بغرورها المفرط مما جعلها تتبجح بالخفاء وسط المقربين لها بإيمانها واتخاذها لبعض الأفكار اليسارية من غير إثبات يدل على صحة ما تدعي!... تعتبر نفسها مثقفة، قارئة جيدة، تلتهم الكتب كما الأكل، والحقيقة مشكوك بأمرها، تناقضها وغرورها اللعينان حطمَّا جمال شكلها وروحها، سبحان الله، أمها رغم تقدمها بالعمر كانت لها ميول تشبه ميول ابنتها هذه، من حيث التكبر والغرور الطائش، يسمى الغرور الأعمى، الذي يرفض أن يرى الأشياء على طبيعتها وبحجمها الحقيقي كما خلقها الله، يبصران بلا بصيرة. تعمل سارة الجميلة في دار الإذاعة موظفة في استعلاماتها براتب يتلاءم مع ما تملكه من مؤهلات!، تخرجت من الإعدادية وتنقلت في العديد من الوظائف، وآخرها كانت في وزارة النفط، تشاجرت مع رئيس قسمها، تركت العمل بسببه بعد أن ادعت مضايقته لها، أزعجها تصرفه ذاك، فتركت عملها دون رجعة، ثم جلست في البيت نصف سنة، لاقت من أمها الويل، أمها التي ما أن تعشق أحدًا منهم حتى تكره الآخر إلا كمال حبيب قلبها، إذ بقي في منئى من ممارسة هوايتها هذه معه، فظلت تحبه بصدق دموع الفرح دون

شروط!، هربت تبحث عن عمل جديد يخلصها من ويلات أمها فوجدت ضالتها في دار الإذاعة الكائن في منطقة الصالحية وسط بغداد.

دخلت عليهم الغرفة كما تدخل السينما بفرح غير طبيعي لا يتناسب مع منظر تلك المنتحرة الملقاة على الأرض التي لا تحرك ساكن كالميت... وهي تنطق بصوتها المثقوب بتذمر مقطبة وبنبرة تعوزها البراءة:

- لا تقلقوا عليها، ستعيش، من يحب لا يموت بسهولة وأبنتكم كما تعرفون، عاشقة، أنْهُر قوية ستعمر أكثر منا جميعًا، ستعيش وتحقق ما تريده، أختي وأعرفها!!. خزرتها نداء بنظرة متوعدة بعد أن استبدَّ بها الغضب، صرخت بها منذرة بلهجة نارية كأنها قبس من وهج غضبها:

- كفي عن هذيانك... وهي تسند أختها وتتحدث إليها بكلمات مرتعشة متوجهين بها إلى الطوارئ التابعة لمستشفى اليرموك بمنطقة القادسية القريبة من حي سكناهم. هناك تلقت العلاج الفوري الذي رفضته أنْهُر وقاومته بأقصى ما تملك من طاقة وعناد حبًا بالموت.

• • • •

أنْهُر... تلك الفتاة الجميلة، الوادعة ذات الشخصية القوية، نواة أسرتها وسبب تماسكها، قليلة الحظ، غالبًا ما تكون محطَّ أنظار وحسد الآخرين... أقدمت على الانتحار لأسباب سندركها كلما تقدم بنا الزمن، وعند القعر سنرى الحزن راكدًا متورمًا في الانتظار، ليأخذ الجميع بالأحضان كونه والعراقيين من أسرة واحدة منحدرين من جدٍ واحد كما ينحدر الطين من التراب!.

كانت وسط أسرتها تمضي أيامها وهي مشحونة بالتوتر، غائمة، ماطرة، لا تتحمل الكلمة أو النكته أو حتى الابتسامة، في هذه الظروف الصعبة ولدت أنْهُر كآخر العنقود. اختلف الأمر بتعامل أبيها معها، إذ كان يفتقدها باستمرار على غير عادته، يسأل عنها لو لم يرها أمامه عند المساء حين يرجع قافلاً إلى بيته، وما أن يحتضنها ويشمها ويقبِّلها ثم يضع في جيب فستانها القصير المطرز بالورود نصف دينار وفي أحيان يكون قد أخذ الطرب منه مأخذًا، أو أن يكون قد قضى حاجته خارج

البيت على أفضل شكل... فينقدها بدينار كامل قبل أن يبدأ جولته مع السُكر لوحده في غرفة الجلوس. هذه العاطفة الأبوية التي تعتبر نادرة في أسرتها أثارت غيرة وحسد وحفيظة أخيها كمال الذي يكبرها بثلاثة أعوام بالتحديد لأنه الذكر الوحيد في عائلة شرقية!... وأختيها كذلك على هذا التمييز في التعامل. الغريب أن أمهم لم تختلف عنهم!... إذ سايرتهم في غيهم وظلت تكيل لها الشتائم في كل داخلة وخارجة ، تعيرها بما لا يعيب، جعلت لها من أخيها كمال خير رقيب، ناهيك عن ضربها وحبسها في البيت لأيام طويلة دون أن تأتي بخطيئة أو تجني ذنبًا... السبب كله يعود إلى شخصية أنْهُر القوية الجذابة التي ينفر منها الأنانيون المتناقضون.

تعشق الأطفال حدَّ الجنون، يصعب شرح ذلك بالكلمات، وما تتجمل به من طباع كانت توحي للمرء بعد التقرب منها، بأنها مازالت طفلة في الرابعة من العمر، وحين تتكلم يصدق من يسمعها مباشرةً للدفء والحميمية الموجودين في صوتها لتبدو كأنها تعتذر...

هذه هي أنْهُر بالمختصر:

جميلة الطلعة يخجل الجمال من فتنتها مثل أميرة بابلية، رقيقة كالنسمة، وجهها الدائري الأبيض الطافح بالحيوية الناطق بالحياة، في حنكها شامة لم ترتح لها، تخلصت منها بأشعة الليزر فيما بعد، صوتها الدافئ الحنون، شعرها الحني الطبيعي غير المعامل بالأصباغ المفروق من الوسط يتموج على كتفيها كما يترجرج صدرها بوقاحة لا يحسن تجسيد وصفه خلف قميصها الأبيض الحريري ذات الأزرار الناعمة السوداء الذي قابلت به فتى أحلامها آدم ليلة وصولها منتجع الحبانية السياحي في الثالث والعشرين من آذار. ممتلئة الجسد باتزان، عيناها الخضراوان كفصين من زمرد يشعان بريقًا نادرًا، سبحان الله، يخجل ويبهر، يعطيانك شعورًا بالأمان ويجعلانك تركع صاغرًا على أن تصدقها في كل ما تقوله، لا يطرف لها رمش وهي تحدِّق بمحدثها فتكبر عيناها وتتوسع بشكل مخيف وجميل في ذات الوقت خاصة في لحظات انفعالها وهذا الأمر يسبب رعب غير قليل من يواجهها في تلك اللحظات الحاسمة.

كما تعودت أن تسير بغنج كالزرافة، بل كانت تعطي انطباعا عندما تمشي بأنها ستقع، فتمشي معها ويدك على قلبك خوفا عليها من السقوط!... ضحكتها ساحرة تسمع فيها رنة الذهب، في نبرة صوتها حنّية دافئة تغرق سامعيها بالشوق والوجد كأنك أمام قديسة تبتهل في حضرة نبيها. في وجنتيها غمازتان رقيقتان أكسباها طابعًا متميزًا خاصة عندما تبتسم فتغرق الواقف أمامها بسحر طاغٍ لا مجال إلا الغوص فيه دون مقاومة تذكر. مولعة بالقراءة وتعشق رقص الباليه، كانت تتمنى من أعماقها أن تكون يومًا راقصة في أحد المسارح أو المدارس للباليه... كل هذا يجعلك تلقاها لتسلم سلاحك لها من أول وهلة فتشلك بجمالها وتصرفاتها الطفولية البريئة المدهشة التي لا تنم على فتاة في سنتها الأخيرة في الإعدادية، قاربت التاسعة عشر، تصرعك مأخوذًا كأن شيئًا قد نهب منك دون أن تشعر، يا له من إحساس لذيذ يزيد الدهشة روعة... فيخال لك ساعتها بأن قلبها يدق في عينيها، واضحة تعرف سبيلها كما تعرف ربها.

ولدت في أسرة عراقية تعتبر نفسها محافظة وهي ليست كذلك، لأنها مع التعصب للدين وضد التعصب في الدين، والحقيقة هي مع الدين والحياة. تعودت أن تسير وأرجلها خالية من القيود، في محلة تضج بالمسيحيين في جانب الكرخ تُسمى الآثوريين. قضت وطرًا من حياتها كل مساء ترتجف ابتهالاً وخشوعًا وهي تستمع لآذان العصر.. فلا تجد تفسيرًا لما كان يحصل لها، يكفيها الهدوء والسكون والراحة النفسية التي تنعم بها أثناء سماعها كلمات الله عبر مكبر الصوت للجامع القريب منهم... عندما تقدم العمر بها لم تنسَ ذلك مطلقًا، تتذكره بقوة كأنه حاضرًا معها أينما حلت، لم تستطع تعليل ما كان يحصل لها. من نسل القوس الذي لا يعرف خيبة الريح التي لا تهز غصنًا، دائمة القول "من الفحم يخرج النور، أن تعطي ولا تفكر بأن تأخذ، السعادة بسمة على شفاه الآخرين، متى ما رأيت ذلك، أعلم بأنك إنسان تسكن في قلب الله". تعشق الطبيعة كعشق النورس للبحر، تعيش لحظاتها بعفوية خارقة كالطفل عندما ينسى نفسه في اللعب على شاطئ، تضحك من صدرها، تبكي من قلبها، تئن وتتنهد من عظامها، تساعد بكل ما تملك ومن أعماق كيانها وحد نخاع عظامها.

في حين بقي الأب بمنأى عن كل ما يحصل، لا يؤرقه شاغل عن ممارسة وإدمان الفساد... داوود رب الأسرة، الذي اتصف ببرودة الطبع كالثلج، يحب الحياة كما الموت ولا يهتم لأمرهما ولا يزلزل كيانه إلا إذا ابعدته قسرًا عما يشتهيه ويحبه، وقتها ينقلب شخصًا آخر لا تعرفه، ساعتها يمكن له أن يقترف جريمة دون أن يطرف له رمش، لأنه يكون تحت تأثير اللاوعي، هل هناك درجات أقسى وأعظم من درجة الإدمان هذه عند الإنسان؟... الحالة التي يرى ساعتها كل شيء دون أن يميز ما يراه!!.

دلّل داوود ابنته أنْهُر على غير عادته... وسلوك أبيها هذا في الحب والدلال سبَّب لها مصاعب جمّة في حياتها من قبل المقربين منها. يدير متجرًا للصياغة في أحد أفضل شوارع بغداد على حافة نهر دجلة والمسمى بشارع النهر. أبيض البشرة، حليق الوجه قليل شعر الرأس، بدينًا قصيرًا، وله خاصية فريدة تمتع بها منذ صباه، حيث يقدر أن يتفوه بمائه كلمة في الدقيقة، يضحك بملء قلبه، لا يهمه من الحياة غير مسراتها، ينفق على نفسه بإسراف غير محدود كما لغيره، خاصة النساء اللواتي يتعرف عليهن من خلال تجارته في الحُلي، في حين لا يعطي لأسرته إلا النزر القليل على مضض، خاصة عندما يكون ممتعضًا، فيصيح بزوجته الطويلة، الجميلة المقتدرة على مواجهته كلما استدعت الحالة: من أين أتي لكم بالمال؟ هل تريدون مني أن أسرق؟!.

(٢)

غالبًا ما يبدأ الطوفان بقطرة مطر . النوايا غير الأفعال ، وفي سجون العالم يتمرغ آلاف الأبرياء تحت سمع وبصر ورعاية القانون قهرًا وعذابًا ؛ وكأن الإنسان لم يعد غاية ! .

زيارات أمها لها لم تنقطع. بقاء ابنتها على قيد الحياة جعلتها تعود لممارسة عاداتها ومناوراتها وطبيعتها التي يعرفها الجميع وتطبعت عليها، بدأت تنغص عليها وجودها وهي راقدة في المستشفى تتلقى العلاج بكلماتها القاصفة الرنانة التي لا تقال لعذراء مثل أنْهُر في كل مرة تزورها لتعيد عليها ما قالته للمرة الألف:

- ماذا... هل جاء آدم لزيارتك؟ ستهربين معه دون زواج؟ كيف سيتزوجك وهو مازال طالبًا؟ أم إنك أعطيته نفسك هكذا؟ ثم تهز منكبيها استهانة وتضيف دون رادع: أخوكِ كمال إذن على حق فيما ذهب إليه؟!

تستمع لها ابنتها دون أن تقوى على ردها، تختنق بالعبرات صامتة، يأكلها الغيظ، ينهش قلبها، ينفجر صبرها بداخلها دون أن تنبس، تدير ظهرها لأمها ثم تشهق بالبكاء الأخرس...

قضت أسبوعها الأول وهي تشعر بتحسن، بدأت تحتسي ما يقدمونه لها من سوائل دافئة سلقت فيها الخضار التي يسهل هضمها، هي تحب هذا النوع من الأكل، استعادة نشاطها بالتدريج، طفح جلدها ببثور حمراء غابت قشورها وبقيت آثارها واضحة، انزعجت في بادئ الأمر لذلك، ثم لم تعر لهن أدني اهتمام. حاول الدكتور النفساني المعالج الذي يدعى جلال الصادق التقرب منها لفهم الأسباب التي دعتها للانتحار، كسب ثقتها، لاطفها وطمئنها بأنه سيقف بجانبها لو فتحت له قلبها. حدثته بصراحة متناهية. كان الدكتور شابًا وسيمًا صافي البشرة يميل إلى البياض بشاربين رفعين حديثيّ الولادة، عينان زرقاوان، شعر ذهبي قصير، معتدل الجسم ومتحدث جيد. صدقته أنْهُر، تفاءلت به وما سيقدمه لها من معونة ربما تفيدها في الأيام التي تلي خروجها من المستشفى، فآمنت به. حدثته عن مكنونات نفسها دون حواجز بعد

أن استدعاها إلى مكتبه في قسم الأمراض النفسية وهو يستمع لها بكل حواسه، قطع على نفسه أمامها وعدًا بأنه لن يخبر والدتها بما ستقوله:

- تعرفت على شاب من ديني، طالب جامعي، التقيته في مكان عام، الصدفة كان لها دور كبير في تعارفنا كما رؤية أخي لنا ونحن في طريق عودتنا بعد لقاءنا الثاني، أخبر أسرتي بما رآه، أنت عراقي وتعرف ما يحدث داخل أسرة يقول ابنها بأنه رأى أخته بصحبة شاب في مكان عام!، على الرغم من معرفة أهلي به وقرابة أسرتهم منا، جعلوني ألقى شر العذاب، بين الضرب والإهانات وحبسي في البيت وعدم السماح لي بالاتصال بأي زميلة من زميلاتي، ناهيك عن بذيء الكلمات المؤلمة المخدشة للحياء التي تسمعني إياها أمي ليل نهار وآخرها قبل أن تستدعيني بلحظات... صرّح آدم، الشاب الذي نتحدث عنه في عدم قدرته على إقناع أهله للتقدم لخطبتي، ساء موقفي وهزّ كياني وهو يردد على مسامعي كلمات تردده القاسية التي لا تقال بحضرة فتاة تحبه "أحتاج إلى مزيدٍ من الوقت"... كرهت الدنيا وما فيها، شعرت بأن وجودي على الأرض مثل عدمه فأقدمت على الانتحار بنفس راضية، ولا أطلب منك اليوم إلا طلبًا واحدًا لا غير، لو حققته لي سأكون ممتنة لك طوال حياتي.
- ما هو؟
- أن تقنع أمي بأن أذهب إلى بيت أختي الكبيرة المتزوجة للراحة، هناك سأشعر بتحسن سريع وملحوظ دون منغصات من جانب، وكيلا تصلني سموم أمي بكلامها الجارح العنيف الذي لا يرحم من جانب آخر.

استمع الدكتور لها جيدًا كضمير نزف خجلاً بعد أن جرحته الخطيئة، أصغى إلى كل همسه نطقت بها، راقب حركات يدها بدقة عندما كانت تتحدث، أعجبته أصابعها الجميلة. أنْهُر استراحت له ولإصغائه، شكرته من قلبها، وعدها خيرًا، أكد بأنه سيعمل ما في وسعه لتحقيق رغبتها. شعرت براحة، الله يراها لتسعد من حولها بحياتها ووجودها، ضحكت ضحكتها العذبة لأول مرة، لم تضحكها منذ أكثر من شهر كما كانت تفعل.

يا الله، هكذا حدثت نفسها "هل يمكن أن أتخلص من الإهانات التي أتلقاها بسهولة؟". وما أن حضرت أمها لزيارتها ولعلعة صوتها تسبقها وهي تتنحنح... أصرَّ الدكتور

جلال بتناقضه الشنيع العجيب أن يفتح الموضوع بحضورها بكل صلافة لا تتناسب ووسامته وشكله الخارجي الساحر يردد كلماته التي جاءت بخيبة أمل عنيفة على نفسية أنْهُر وهي تكاد لا تصدق ما يحدث أمامها والدكتور يخاطب والدتها برنة نحاسية غير مرغوب سماعها كفحيح الأفعى وهو يحاول تجنب النظر إليها متظاهرًا بالبراءة والحيرة بعد أن لاح التفكير وطغى في عينيه:

- أرجو منكِ يا أمي أن تأخذي بالكِ من أبنتك!، ثم سألها مباغتًا: أحب أن أتأكد من مسألة، هل تعيش ابنتكِ الكبيرة مع عائلتها؟

- نعم.

- حسنًا، وأردف: أنْهُر تود البقاء عندها بعد خروجها من المستشفى، هي ترغب بذلك، تشعر بأنها ستكون هناك بخير، خذوا بالكم منها، هذا ما أستطيع أن أخبركِ به والقرار لكم... ثم غادرهما منسحبًا كممثل على مسرح بعد أن أنهى دوره بكل مهارة واحتراف تاركًا أنْهُر وهي تشعر بخيبة أمل مريرة، غارقة في بحر من الذهول وهي تودعه بنظرات ثاقبة من عينيها الخضراوين دون أن تطرف كعادتها، كانت نظرات متوهجة بحرارة الجمر المتقد.

انهارت وهي تسمع رنين صوته الذي يشبه فرقعة السياط... انسكب على أذنيها حاميًا كالرصاص المنصهر محملاً بالخبث والتخلف صادحًا في أرجاء الغرفة دون رهبة من الله. وعدها بأن لا يخبر أمها ولا يفصح عن رغبتها، حنث بوعده... هذا ما لم تتوقعه منه. تغيرت ملامحها فجأة، صورتها كانت تنطق معبرة عن الرثاء والفناء... فتعرضت إلى نكسة جعلتها تفقد طاقتها وحيويتها التي عاودتها في الأيام الأخيرة، ارتفعت درجة حرارتها، خيبتها الكبيرة سحقتها، لم تعد تطيق أن تسمع شيئًا جديدًا عما يدور حولها، سئمت الحياة من جديد وعافت بها، لم تعد تريد منها شيئًا غير الخلاص... دخلت دوامة من كآبة عنيفة خالية من كل شيء إلا الذهول العميق كسراب الصحراء، تضاعف زمن إقامتها في المستشفى وطالت بها الأيام التي لا تحسد عليها، فقدت الشهية تمامًا، تعرضت إلى نزيف حاد في أنفها فجأة لا يريد أن ينقطع جهل الأطباء مسبباته واستمرت أعراضه لفترة لاحقة طويلة من حياتها تعاني منه، لازمها كنبضها.

(٣)

ما أقسى عذاب الصمت على الهوان. الوجع مؤلم، أي وجع لابد أن يصاحبه ألم، فما بالك بأن تسكت عن الألم لأن هناك من يبكي وجعك؟ !.

آدم لم يكن يعلم من أمر أنْهُر شيئًا وما آلت إليها ظروفها الصحية بعد محاولتها الفاشلة في الانتحار. قضى وطرًا وهو في حالة قلقة لا تلمه الأرض التي يقف عليها، غالبًا ما كان ساهدًا، ساهيًا ومعذَّبًا، لا يعرف كيف يقنع أهله ويجعلهم يرحبون بعلاقته الطبيعية الطيبة بأنْهُر من جهة، ولا يعرف كيف يوصل مشاعره وصدقها إلى فتاته وأهلها بأنه شاب ملتزم، جاد لا يسعى للعب بقدر التخطيط القويم في بناء حياة جديدة مشتركة مع من يهوى، يحب تكوين أسرة بعد أن وجد حياة العزوبة والوحدة لا تتلاءم مع طبعه وشخصه. لم يتجاوز صاحبنا الذي يعتبره الآخرون منحدرًا من نسل هابيل الثانية والعشرين، خجول ويقول عن خجله لا علاج له كمرض الربو الذي يعاني منه ولازمه دون انقطاع كظله، تمتع بعادات كثيرة لكنه لم يدمن على إحداها، له وجه يوحي بالغنى والتواضع، عينان مبتسمتان برمشين قصيرين يعلوهما حاجبان رسما بدقة، يداه ناعمتان لا تحزر منهما مهنته، طاهر مثل صفحة بيضاء، صافٍ كماء الزلال، قليل الأكل، ممسك الكلام، طيب السريرة رحيم القلب لكنه مترع بالألم الصامت، غير موذٍ مثل ضحية ولا ينزعج عندما يصف نفسه أو يصفه الآخرون بالسكير والكافر والقاتل، إذ غالبًا ما يرى نفسه النقيض من هذا كله... صبور وصبره لا يقارع مثل صبر الآلهة، ذاكرته ضعيفة لم تنتعش يومًا كصحته، يقول عنها مثل صفحة ماء لا يمكن الكتابة عليها... يسافر إلى أقصى نقطة في العالم وهو مازال في مكانه متسمرًا، حيث يسافر بخياله وروحه هائمة لا تعرف الاستقرار مثل خياله، مؤمن بعقيدة فردية قوامها الله وليس دين الأمة التي ينتمي إليها، تمتع برشاقة يحسد عليها، رفيع، طويل، بشعر أسود سرح مفروق من الوسط، بؤبؤي عينيه يلمعان مثل عيني نمر أفريقي اختلط فيهما

لون العسل مع الليل؛ يحب البساطة، متواضع، يأخذون حقه ولا يتنفس بكلمة، قلبه أصفى من الحليب، متساهل إلى حدود الأفق مثل راهب... لا يعرف الحقد ويعاني في ذات الوقت بأنه لا يستطيع الحب، ذلك الحب الجارف الذي يلهب عقله وقلبه، هو لم يصل إلى تلك الحالة بعد، لم يذقها أو يجربها، يقول: لا أستطيع، هناك مانع ما يعوقني من فعل ذلك، لا يحب تزويق الأشياء أو تعظيمها، لذلك نراه يحب الله دون دين الإنسان، الأخير يعتبره صاحب البدع وليس الشيطان المدان... امتازت عاطفته الدينية بالصدق المستلهم والمستنار من قراءاته الكثيرة والمتعددة في كتب التاريخ الدينية التي أخذت من حياته وطرًا لا يستهان به وهو يحاول فهم تلك الأمور على حقيقتها الصحيحة وليست المقلوبة دون تأكيد مطلق كما يدعيها بعض جهلاء العقول كما يقول.

مازال في سنته الثانية في كلية الطب البيطري، يخاف الحيوانات، أجبر على تخصصه هذا، لهذه قصة ربما يحكيها بنفسه، يعبد الفن بكل أنواعه، يحرك أوتار الجيتار بشكل رائع، يرسم كما أثبت ذلك لأنْهُر عندما رآها في أول ليلة من وصوله منتجع الحبانية، يكتب القصة القصيرة، له إصدارات متواضعة ومتنوعة والأهم كانت عبادته للقراءة، مولعًا بها حد الهوس، كل ما يحصل عليه من نقود يبذرها لاقتناء تلك الكتب اللعينة، له مكتبة منزلية كبيرة تقدر عدد كتبها بالمئات... مع الوقت وبمساعدة الروتين والظروف الراهنة أُجبر على أن يتعلم كيف يتحدث مع الحيوانات التي يخاف منها أصلاً، بات يكلمها كأنه يسامر بشر مثله، رعايته للحيوانات التي لا يطيقها تلك التي يجلس معها ساعات النهار في كليته يداريها، ينظفها ويقنعها بأن تأكل أو تأخذ الدواء جاءت بنتائج عكسية على شخصيته، جعلت منه إنسانًا مقتدرًا في فن الإقناع، غالبًا ما كان يردِّد "عظم الأفعى لا يبلع، إذا استطعت إقناع جاهل بأمر ما، تكون وكأنك أتيت بمعجزة، فما بالك لو أقنعت حيوانًا؟!".

• • • •

لا يمكن لآدم أن ينسى اليوم الذي تشاجر مع أخيه مجيد عندما كان طفلاً في السادسة بسبب بلوزة أبيهما المتوفى، حيث لفقرهم الطبيعي في ذلك الوقت في بداية

السبعينيات من القرن المنصرم، قامت أمه بتنقيع بلوزة زوجها في الماء المخلوط بصبغة أحضرتها خصيصًا لهذا الغرض بغية إعطاءها لون جديد يمكن استعمالها وكأنها جديدة لترضي بها أولادها، فتخاصم مجيد معه، كل واحد منهما كان يريدها لنفسه، البلوزة كانت كبيرة المقاس لا تتناسب وجسم آدم الصغير، غلتها بالماء الساخن لصبغها من جهة وجعلها أصغر حجمًا من جهة أخرى، نجحت في هذا أيما نجاح، لكنها بقيت كبيرة الحجم بالمقارنة لما يلبسه آدم، فاضطرت لإعطائها إلى مجيد الذي طار بها فرحًا، ظل يتغنى منشرحًا، مبتهجًا يتباهى مغرورًا وهو يرتديها، فحرم آدم من تلك الفرحة على وعد أن تجد أو تصنع له أمه في الأيام القادمة شيئًا مقاربًا يسعده ولم تفِ بوعدها إلا بعد سنوات!.

تعوّد في صغره أن يبيع حصته من الفطور لأخيه الكبير نصير، كان الأخير يشتريها ببضعة فلسان لا تستحق التقدير، يلتهم حصص أخوته الصغار وأحيانًا يقشمرهم(•) بوعود لا يفي بها، كأن يوعدهم بأنه سيجلب لهم في المساء قطعة من الحلوى، أو سيخرج معهم إلى المراجيح(•) عندما تنصب في العيد أو أشياء من هذا القبيل وغالبًا ما يحنث بوعده، ثم ينسون الأطفال ما حدث بسرعة، يعطوه حصتهم من الفطور مجددًا ويكتفون بتغميس الكعك الحاف الجاف بالشاي وأكله، وإذا لم يغمسوه يظل الكعك يقروط، يصدر أصوات تهرش الإذن وتتناثر أجزائها في كل الأرجاء، ولتلافي تلك الخسارة التي لا تعوض يغمسونه بالشاي، ثم يلتهمونه...

صعوده مجانًا في مساء أحد الأيام في العربة التي يجرها الحصان يبيع صاحبها الجت(•) كان يعتبره آدم في بادئ الأمر عملاً بطوليًا سرعان ما تغيرت ملامح العالم في نظرة بلحظة... صعد بالصدفة أثناء عودته عندما كان يعمل أجيرًا في دكان يبتعد عن سكنهم سير ساعة، يملكه أحد أقربائهم لصنع وبيع الحلي الشَبَهيه(•)... كان

(•) يقشمرهم: يضحك عليهم

(•) المراجيح: حبال تُشدّ على أوتار خشبية تُنصب في الأعياد في ساحة الحي الترابية

(•) الجت: من المحاصيل البقولية العلفية الخضراء.

(•) الحلي الشَبَهيه: يقال عنها الشّبه ، تلك التي تصنع من مادة النحاس ويضاف لها مسحوق البورق والبوتاسيوم ، ثم تطلى بماء الذهب وتباع وكأنها من الذهب

في السابعة، عطلته المدرسية بدأت فأشارت له أمه بأن يعمل بعد أن تحدثت مع قريبها جاسم ليخدم عنده ويلبي طلباته في دكانه، وافق الأخير على مضض لأنه لا يملك هو نفسه الكثير مما يعمله، لكن إلحاح أم نصير جعل قريبها يقبل بشرط أن لا يدفع بالشهر أكثر من دينار واحد له وتمت الصفقة. آدم شعر بسرور وغبطة عندما أخبرته والدته بالخبر، أحسّ بأنه سيكون مثل الكبار، يعمل، يروح ويجيء ويجهد ويجدّ ويتعب من أجل لقمة الخبز نادرة الحضور في بيتهم.

في ذلك المساء وأثناء عودته رأى تلك العربة تطقطق في سيرها محدثة جلبة والحوذي يعتلي منصتها ماسكًا سوطًا طويلاً يلسع ظهر الحصان الهرم المسكين بين آدونة وأخرى وهو يطلق صوت من حلقه غريب لا يمكن وصفه بالكلمات بعد أن يضغط على شفتيه بشكل متقطع، يضمها ويفتحها، صوت حاد مخلوط خلطة عجيبة بلا معنى كالعفطات المتوالية، بل أثخن منها وأنكر مترنمًا بما يقوم به كمن يتفوه بعبارات نابية عن قصد وهو يشد الأحزمة الجلدية نحو صدره تلك التي يقود فيها حصانه المتهالك من بعد جولة عذاب في الطرقات انهكته واستغرقت يومه كله... وما أن رآى آدم العربة تقترب منه حتى أشار للحوذي أن يتوقف. سحب بائع الجت السيرين الجلدين بقوة نحو صدره وهو يطلق رشقه من الصفير المحشور هش ش ش ش ش ففهم الحصان إشارة سيده فتوقف، ذهل آدم من هذا التوافق بين الحيوان العجوز وبين الحوذي وكيف تم بهذه السرعة التي لم يتوقعها، أشار له سيد الحصان بأن يصعد، حط قدمه اليسرى على إطار العربة الجانبي، كان كإطار سيارة الحمل متوسط الحجم، وضع يده اليمنى على حافة العربة الخشبية وصعد بصعوبة بالغة بعد محاولتين فاشلتين وهو يصرّ على شفتيه لحزم قوته، أعطى الحوذي إشارته لحصانه بسيوره الجلدية على أن يتحرك، فتحرك المغضوب عليه وهو يهز رقبته بتراخي يبكي الحجر مره إلى الأعلى ومرة إلى الأسفل ويشق طريقه على الشارع الإسفلتي المترب والغبار يتطاير من ورائهم بكثافة ترمد العيون والناموس يزفهم...

في البداية أرتاح آدم للمنظر الفريد الذي يجربه للمرة الأولى في حياته، دخلت خياشيمه رائحة عبقة، طيبة كانت تنبعث من الجت الذي كان مبلولاً بالماء للمحافظة على قوامه كي لا تتيبس سيقانه وتفقد طراوتها، تاقت روحه للرائحة، عبّ منها قدر

ما قدر، ثم فجأة تغيرت ملامحه، انحبست أنفاسه حد الطق، لم يظن بأنه سيواجه هذا الرعب، حركة الحصان والفرقعة التي يحدثها سوط الحوذي والصوت الهادر من احتكاك حوافر الحصان الحديدية بالإسفلت أجفلته وجعلته يندم على ركوبه العربة، صعد الدم إلى وجهه، أحمر وأزرق مع كل حركة يأتي بها الحصان، هو لم يرَ حصانًا عن قرب من قبل، لم يكن يعرف ماذا يعني عربة يجرها حصان عجوز يمكن له أن ينفق في أي لحظة بسبب التعب والإنهاك، خاف أن يسقط الحصان في الشارع ولن يستطيع النهوض ثانية، تركزت نظراته على حوافر الحصان وهي تجدح كلما تقدم الأخير خطوة، صمت كعازف عن الكلام، لم يجرؤ أن يسأل الحوذي أو يفصح عن سبب تخوفه وتجهمه، ظل مرعوبًا حتى انفجر بنبرة إتهام صائحًا بكذب: لقد وصلت انزلني!.

نزل ثم ندم. طارد العربة والحصان والحوذي بنظره، كان يتوقع شيئًا ما سيحدث لهم، غابوا عن مدى بصره ولم يحدث ما كان يخاف منه، سار إلى بيتهم مترجلاً يجر أذيال الخيبة مطأطأ الرأس.

• • • •

آدم يقول:

"سكتنا على الكايزر دخل مع غنمه وحميره، وعندما حلَّ الطاعون في البلاد عاث به خرابا، رفضنا راحتنا في الموت والمهانة وحتى لو رضينا بالمهانة لم تكن في زمن الطاعون تنفع، كان علينا أما أن نرحل أو ننتظر عزرائيل مهدودين، هامدين ثم نخرس إلى الأبد وعلى وجهنا ابتسامة موت رائعة كما قالها أحد المعتوهين في زمن الكايزر من الذين كانوا يطبلون له ويزمرون، أو أن ننفد بجلدنا وهذا ما يرغبه آدم في الوصول إليه وهو يردد دون هوادة، على عكس ما يفعله اللامبالي الذي هو المستسلم، نحن لا نريد أن نستسلم، نرفض الواقع ونثور عليه بطريقتنا التي نقدر عليها أو التي نراها مناسبة لقدراتنا، ثم يتابع بقلب موجع بالهم، ألم يفعل هذا زوربا اليوناني الذي كان يرقص ويدق الأرض علها تسمعه أو له تستجيب ؟، زمننا أغبر، بات فيه اللسان خير جليس للإنسان".

• • • •

عاش آدم طفولته في ضياع أشبه بحياة الغربة. عندما كبر وتزوج وهرب من العراق وتغرب قال واصفا حياته بالشيء ذاته، أعيش ضياع الغربة التي تشبه حياة طفولتي. ترى هل هذي هي حياة العراقي دون مساحيق؟! يعود فيسأل نفسه كعبد أمام حاجة يرغبها: لا أعرف أين ولدت؟ كما إني لا أعرف في حياتي سوى بيتين قبل غربتي الأولى في وطني!.

الأول في مدينة الثورة والثاني في منطقة البنوك، وعلى سبيل المثال يقول:
أتذكر من طفولتي الأولى المبكرة عندما كانت أمي تصطحبني معها فجرًا لشراء لحم الخراف المذبوح على الطريقة الدينية التي نؤمن بها، نستقل الحافلة المتهالكة القديمة المصنوعة من الحديد والخشب، ننزل منها في مكان ترابي لا يحده غير الأفق، هكذا كان يتراءى لي وأتذكره، ثم بعد أن نسير طويلاً وأمي تحمل القِدر الفافوني الكبير على رأسها الذي نضع فيه اللحم بعد شرائه... أسير وراءها، تفصلني عنها خطوة ناعسًا كخروف ضال، لا شيء يتبعنا غير الريح والغبار، والفجر مازال نائمًا لم يستيقظ، ثم ندخل بيت أبو رمزي، ذلك الرجل الملتحي البشوش وابتسامته لا تفارق وجهه المحبوب. زوجته السمينة الطافح وجهها بحبات الجدري التي تشبه حبات العدس ترحب بنا وتلح علينا أن نفطر معهم ونشرب الشاي المخلوط بالهيل ثم يمتلئ بيتهم بالزبائن لنفس الغرض الذي جئنا من أجله، ينزل أبو رمزي إلى السرداب البارد الرطب خافت الإنارة، ينشر الأعشاب والقش على الأرض، ثم تبدأ حفلة الذبح التي يسبقها ثغاة لا ينقطع إلا بانقطاع أوردة وشرايين رقاب الخراف بعد أن تسلم أرواحها وتخمد حركاتها بعد أن قرر الإنسان قتلها، فكان بذلك كأنه إلاهها.

ما قبل ذلك التاريخ يقول لا أذكر شيئًا، وحياتي قبل هذا كانت مثل (نيجاتيف) فيلم لكاميرا تصوير محروق لا يمكن قراءة معالم رسمه... يتذكر وفاة جيرانهم أبو سلام صديق أبوه جيدًا، ذلك الرجل المتدين حد القاع والنخاع كأبيه، لحيته البيضاء الطويلة التي تشبه لحية حكيم صيني، ما يتذكره هنا بالتحديد هو أن أمه منعته من حضور ليلة وفاته، لحظة تسليمه الروح، ذهبت هي مع أبي وتركاني أبكي أتوق لمشاهدة رجل يحتضر، لم أكن أعرف ماذا يعني رجل يحتضر وقتها ولا أفهم معنى الموت، لكنني غافلت من كان في البيت وتسللت خفيه، ذهبت وراءهما، دخلت بيتهم

غير البعيد عن بيتنا، سرقت نظرة من أبي سلام وهو ممدد على فراش أبيض نظيف ولون وجهه كان أزرق شاحبًا، جافًا كوجه حرقه الصقيع، ارتعبت لحظتها، لم أدع أحد يراني، كانت أمي تبكي على رأس الميت كزوجته العجوز، والأخيرة ترطن وتهبهب بكلمات لم أتبين معناها، أبي يروح ويجيء في الغرفة من ركنٍ إلى ركن رغم ضجة الحاضرين زائغ النظرات حزين، مقفر الوجه وكأن الحياة غادرته هو الآخر، لكنني لم ألحظه يبكي مثل أمي...

هربتُ راجعًا إلى البيت، هاربًا من منظر جارنا الميت "أبو سلام" خائفًا والرعب يلحقني دخلت، دفعت الباب بقوة، أزّت كعادتها بصوتها الكريه الذي اعتدنا عليه، صرت وسط الحوش ألهث، ارتقيت التخت الخشبي الكبير المتكون من جزئين وبصفهما جنب بعضهما يكون سريرًا مخصصًا وقتها لي ولأخوي اللذين يكبراني مجيد ومروان، حاولت النوم ولم أقدر، كان الفصل صيفًا أو هكذا كنت أعتقد، برودة الليل لم تكن تلسع، ومع ذلك تلحفت باللحاف محاولاً النوم، غطيت رأسي لعلي لا أرى وجه جارنا الذي مات لتوه مرة أخرى ماثلاً أمامي، لكنني رأيت صورته بوضوح، تعلقت في مخيلتي، أبت أن تغادرني، كان ينظر وهو ممدد إلى اللا شيء، أو أكاد أجزم بأنه كان ينظر إلى السقف قبل أن يودِّع الحياة، وربما أراد بها أن ينظر إلى السماء لتدينه الكبير وحبه لدينه... الموت كان حالة نادرة الحدوث في وطني، في حين أصبحت الحياة اليوم هي الحالة النادرة وليس الموت، كان أهل المحتضر وأصدقاؤه والمقربون منه يجلسون معه أيامًا بلياليها كي لا يدعوه يحتاج إلى شيء ما يبقى في نفسه لم يتحقق، الغرفة التي احتوت فراش وجثة جارنا كانت طافحة بالمتواجدين لحظتها، وقف جمع غفير حوله، لذلك صعب عليهم رؤيتي عندما تسللت بينهم لأسرق نظرة على العجوز الممدد الذي ودَّع الحياة بين صحبة وربعة وهو الذي ظل يعالج ويصارع الموت أيامًا طوال... كان أمي وأبي بجانبه حتى لحظاته الأخيرة.

انتظرتُ في البيت ارتجف من الخوف محمومًا، لا يمكن لي أن أنسى تلك الليلة حتى رجعت أمي ونمت في حضنها نومًا متقطعًا تخلله صورة جارنا وعيناه مصوبتان نحو السقف لم تنزلا عنه، مات وهو ينظر إلى السماء... هذا أتذكره جيدًا،

ثم أذكر وفاة أبي المؤمن كدرويش من أهل الزمان الأول بعد ذلك بفترة قصيرة بسبب الأزمة التي حلت بنا عند خروج أختي عن ديننا وقتما هربتْ مع من أحبته.

• • • •

ولد آدم في منطقة الوشاش صوب الكرخ، انتقلت أسرته إلى مدينة الثورة بعد أن حصلت على بيت كمكرمة من الحكومة عندما وزعت بيوت تلك المدينة مجانًا، كان هذا في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم رحمة الله، فانتقلت أسرته وهو مازال في الثالثة من عمره.

بيوت ذلك الحي التي بنيت في منتصف القرن الماضي كانت على نسق واحد، متلاصقة بعضها ببعض كأصابع البيانو ومنخفضة، حيث يستطيع المرء أن يرى جاره ويتحدث معه وهو في بيته، بيت أم نصير كان مغروسًا وسط حفنة من تلك البيوت، الدربونة(•) كانت ترابية عريضة لم تبلط بعد، صدر البيت بني من طابوق عاري لم يلطخه الإسمنت ولا الطلاء، أصفر يميل إلى الاحمرار ويظهر من فتحاته الجص بشكل واضح، كان آدم يتذوقه ويتراهن على ذلك، يفعل ذلك بلا رغبة إلا من رغبة المكابرة وبأنه ليس أقل من صحبه شأنًا. توسط صدر البيت الخارجي باب أزرق متهالك من المعدن الرخيص، متآكل ومريض بالصدأ، يحدث أزيزًا مرعبًا كلما فتحه أحدهم أو أغلقه، إلى جانبه نحو اليسار حفرت حفرة عميقه يتجمع فيها الماء المستعمل الخارج من البيت عن طريق ساقية كأخدود شق حوش البيت الترابي نصفين، كان هذا كل ما يقع تحت مسمى الصرف الصحي!، الحجرتين في آخر البيت المظلمتين أبدًا يتذكرهم آدم جيدًا، واحدة كانت بشباك يتيم يطل على غرفة المعيشة الباردة، والأخرى تشبه الصندوق بلا فتحة غير فتحة الباب الذي لم يسدها باب، تلك التي تزوج بها نصير قبل أن ينتقلوا إلى حي البنوك... أيام لا يمكن أن ينساها، ذاكرته بعد تلك الأيام قوية، لكن قبل هذه الأحداث ضعيفة، المطبخ كان إلى يسار الحوش مزدوج الاستعمال، يستعمل كحمّام عند الحاجة، ثم المرافق غير

(•) الدربونة: الشارع الفرعي

الصحية الذي يشبه القبو يقع تحت الدرج المؤدي إلى السطح، ولا يفصله عن الحوش إلا رقعة كبيرة من قماش ثخين كالذي يستعمل في الخيام يعتبر الباب الذي يحجب الرؤيا ويحمي مستخدميه من النظر إليهم وهم يقضون حاجتهم. غالبًا ما كانت تقع عملية تفريغ الحفرة أمام البيت عليه عندما يفيض الحوش أثناء تساقط الأمطار بغزارة، يأخذ سطلاً رغم صغر سني ويملئه ويقذف به إلى الدرب الغارق بالوحل ويكرر العملية حتى ينقصم وسطه، يفرح بانتصاره، يشعر بأنه رجل كبير يمكن الاعتماد عليه في المسائل المهمة، أمه كانت توبخه وتقول: دع عنك هذا وتجبر مروان ومجيد لفعل ذلك، لكنهما كانا يرفضان، ثم يأتي سعيد ويأخذ منه السطل، يقوم بالمهمة على أكمل وجه وبسرعة... ظلت حركات أخيه سعيد تلك محل إعجابه لسنوات طوال... كان آدم لا يستطيع أن يرفض له طلبا، ربما لأنه كان يحبه جدًا أو لأنه يخافه كثيرًا، حقيقةً، لم يكن متأكد وحتى هذا الوقت... إلى يمين الباب من الطرف الآخر صخرة مستوية لا يعلم من في البيت من الذي وضعها هناك تلاصق قدم جدار البيت العاري من الإسمنت والطلاء، كانت تجلس عليها النسوة أثناء العصاري وهن يتسامرن وظهورهن مستندة على الجدار كما كانت المكان المفضل لبكاء الأطفال بعد تلقيهم العقاب.

في أوقات كثيرة تعود آدم أن يجمع أطفال الحي ويجلس معهم على تلك الصخرة المستوية المصقولة بشكل جيد الملساء كسطح الزجاج ويعيد عليهم ما سمعه من حكايات بعد أن يغيّر على كيفه بعض من تفاصيلها، تلك التي كان يقصها عليهم خاله داخل رحمه الله عندما كان يزورهم، يلتقطها منه، يحفظها ويعديها في بادئ الأمر على نفسه بشيطنة ليتأكد من رسوخ تفاصيلها في ذاكرته كي لا تفوته شاردة أو وارده أثناء سردها لأصحابه فيما بعد.

مات خاله طيب الذكر وهو في الستين عازبًا كمتشرد لم يتفنن في حياته لا بفضيلة ولا برذيلة. ظل يسرح بحقيبته المصنوعة من الخشب، المطلية بلون أسود في وسطها قفل صغير أصفر كالدبوس بالكاد يستطيع المرء تبينه، لها واجهة من الزجاج يستطيع المرء مشاهدة ما ينشره بداخلها من خواتم فضية مرصعة بأحجار رخيصة غير أصلية. يعيش من تجارته البائسة هذه متى ما وعى على الحياة وبعد أن يكمل عمله يقارن أرقام أوراق اليانصيب مع الأرقام الصادرة والمعلن عنها

لذلك الأسبوع التي كان حريص على شراءها وهي على ما كان يعرفه آدم كل عالمه، ثم يفتح قنينة العرق المسيح(•) ويبدأ يكرع منها حتى يزهو ويشرع بسرد قصصه عن الزير سالم وعنتر بن شداد العبسي وبدر البدور التي لا يشبعون منها أبدًا. أدمن داخل في حياته على شيئين لم يعرف التغيير طريقًا لهما:
شربه للعرق، ولعبه للقمار، وذلك من خلال شرائه لبطاقات اليانصيب التي أتلفت كل ما كانت تأتي به تجارته البائسة من ربح لا يستحق الذكر...

ولطالما بكت أمه حال أخاها ودعت الله أن يخلّصه من تلك الشرور التي أدمن عليها ولم يفلح دعاءها. ظل يشرب العرق ويبتاع بطاقات النصيب ويخسر حتى مماته التي يجهلون تفاصيلها... عاش متشردًا لا دار ولا أسرة له ومات كذلك... يتذكر آدم كيف كان يشعر عندما يزورهم خاله، تكون زيارته مثل حلول العيد عليهم... يفرحون بقدومه، يجتمعون حوله... يهم بفرد بضاعته ويعمل على تلميعها بخرقة سودتها الأوساخ والأتربة، ثم يرجع الخواتم التي أصبحت تبرج من لمعتها في مكانها كما كانت داخل صندوقه الخشبي الرهيب الذي يشبه الحقيبة الدبلوماسية الحديثة اليوم.

بعدها يخرج من عُبّه قنينته الزجاجية الذي يترجرج فيها العرق سائحًا متمردًا ينوي الهروب من عنقها، لكنه يستقر في النهاية في جوفه بعد أن يستطير لبه بقراءة الكثير من الأرقام التي ليس لها من نهاية والموجودة على قصاصات من الورق الملون الذي يدعى ورق اليانصيب، وما أن ينهي جولته تلك اليائسة البائسة التي لم تدر عليه بأي ربح أو أمل قريب للربح، يبدأ يعوي نادبًا حظه العاثر، فيلعن الحياة والوجود وصاحب الكون بكلمات راخية. ومع ذلك كان يتمتع بخفة دم نادرة، يهوى النكته ويلقيها بحذاقة ونباهه رائعة، محبوب جدًا فأحبه الموت كذلك وأخذه منهم وهو في الستين، يحب العشرة والصحبة كثيرًا ومع ذلك لم يقتنع يومًا أن تشاركه حياته زوجه. يضحك ويمزح وهو في أشد حالات بؤسه وفقره، يجيد الغناء الريفي الجميل، فيطرب نفسه ومن حوله، وعندما يسمع الجيران صوته الحنون المميز،

(•) العرق المسيح: نوع من العرق تصل نسبة الكحول فيه إلى أكثر من ٨٠%

يهبون راكضين ليشاركون عائلة نصير متعة الطرب الفطري المرسل من حنجرة داخل العجيبة وهم في جلستهم في الحوش المفروش بالحصائر التي صنعت من الخوص(•)... وحتى ساعات متأخرة من الليل.

مازال آدم يتذكر نهار ذلك اليوم جيدًا، لم يغب عن باله مطلقًا وهو بصحبة أخيه مجيد... كان نهارًا لا تنسى حرارته، تلتصق ملابسهما على جلديهما من كثرة العرق الناضح من أجسادهما، كانا يسيران على رصيف شارع الرشيد متوجهان إلى متجرهما حيث نصير كان بانتظارهما...

فجأة وفي تلك اللحظات قاسية الحرارة الخانقة التي يصعب فيها الكلام كما التنفس، فغر فاه آدم مندهشًا كدجاجة مذعورة ترى خيال غراب على الأرض، ارتدَّ إلى الوراء مرتعد الفرائص ذهولاً وهو يرى منظرًا رهيبا يرفض تصديقه، متجسدًا بكل ذل ومهانة وانكسار أمامه... المنظر الذي أبت ذكرياته الأليمة، النازفه دومًا أن تفارق ذهنه... وها هو يتذكره بقوة... ذكريات تقفز من مخيلته لتظهر صورتها واضحة جلية أمامه كأنه يعيشها اليوم...

صاح بمجيد لحظتها مدحورًا كوجيه خسر نفوذه في معركة انتخابية، أو كعاقل مجنون لا يحب إظهار جنونه:

- انظر... إنه خالنا داخل، انظر إليه، مقرفص يشحذ.

ذهل مجيد من الموقف غير المشرف وهو ينظر بأسى إلى خالهما على ناصية شارع الرشيد يستجدي العطف قبل المال، ثم في ومضة سحب يد أخيه وأشار بأن لا يقترب منه وهو يردد:

- لنسرع ولا نوليه أدنى اهتمام أو اعتبار، سر وكأننا لا نراه...

اعترض آدم على تصرفه، ناح مندفعًا مثل انفجار رغبة مكبوتة:

- لنعطه شيئًا من المال، فهو على ما يبدو في أمسِّ الحاجه لذلك... قال ذلك وهو يحاول أن يقاوم رغبة عارمة في البكاء... لكن مجيد وبلا خشية من الله نهره بكلمات حاسمة كأن لسانه سيف بتار:

(•) الخوص: ورق النخيل

- ما هذا الذي تقوله، نعطيه مالاً كي نشجعه على التسول؟! لا... وألف لا؛ لن نعطيه شيئًا، وتابع بدهقنة آمرًا بعنجهية خالية من الرحمة:
- هيا... دعنا نكمل طريقنا ولا تعره أي اهتمام. حرن أخيه غاضبًا، لم يتزحزح من مكانه، ثم فجأة اقترب من خاله وسأله بطفولة وعذوبه:
- ماذا تفعل هنا يا خال؟ ألا تخجل مما تفعله؟ ماذا ستقول أمي لو عرفت؟

رفع رأسه بقسوة، ببطء وبرمزية لعينة كلغة الأحلام، ثم خرج من صمته طافقًا معرعرًا بصوت خفيض مرتجف كحديث النمّام وبنبره متقمصًا، متمثلاً بنزعة تشبه نزعة التبرير التي تحاول قلب الأمور على هواها:
- يا بني، يا ابن أختي الحبيب... لا يتوجب علينا أن نسأل الشحاذ لماذا تتسول؟! فإذا سألناه كأننا بذلك نسأل اليتيم لماذا تيتمت؟! أو أن نسأل الوحيد لماذا وحدك؟! ونسأل المريض لماذا مرضت دون غيرك؟! والغني لماذا عندك؟! لأننا سوف لن نحصل على إجابة مفيدة أو كاملة أو حقيقية مهما اصطنع المجيب الصدق والأمانة والمعرفة، توقف لبرهة، ثم ناح متزلقًا:
- يا بني، لا يسد فم بن آدم إلا التراب كما قيل ويقال، ثم أدار له ظهره ونام.

• • • •

في عمر لا يذكره أدم بالتحديد كم كان وقتها، لكنه يتذكر الموقف جيدًا، فمثل ما حدث له لا يحدث دائمًا، يوم طلبت منه أمه أن يأخذ الطاسة الفافونية متوسطة الحجم ويذهب لجلب بطلاً(•) من الحليب الطازج المحلوب لتوه من الحاجة أم علوان ذات الصدر الممسوح الذي يهرب منه الخيال صاحبة الأبقار مؤكدة عليه بأن يقول لها ستحاسبها فيما بعد في حق الحليب. لم يتوان ولم يتباطأ، مرّ على صديقه المفضل محمد ورجاه أن يصطحبه، فرح الصبي بالدعوة، ذهبا معًا، دخلا بيت الحاجة التي لم تكن تصلي ولا تصوم، ومعروف عنها بأنها مرابية كبيرة تختبئ وراء ملابسها العتيقة المتهالكة السوداء تربي الأغنام والأبقار في زريبة نتنة

(•) بطْل: قنينة

مركونة في إحدى زوايا حوش بيتها ذات السياج الطيني العالي، لكن الرائحة التي كانت تصدر عن زريبتها لا تفيد معها علو سياج بيتها، كان يمكن تتحسس الروائح التي تبعثها وتطلقها حيواناتها عن بعد لا يستهان به، كريهة تُسكر، تجعل المرء الذي يستنشقها يدوخ ويترنح، ناهيك عن أقراص المطال(•) المنتشرة على سقف الزريبة التي تنتظرها الحاجة أن تجف كي تبيعها وقودًا للأفران والذباب الشرس المنتشر حولها وحول أبقارها وغنمها لا يطاق، تنش وتكش وتتعب اليد والذباب مازال يتجمع ويؤدي عمله المعتاد. دخلا عليها ورأياها جالسة محدبة تحت بطن إحدى أبقارها الواهنات المتعبات الجائعات على ما يبدو وأمامها سطل ستيل مبعج كبير ويديها لم تقف عن العض والضغط على حلمات ضرع البقرة والأخيرة تخور بوهن لا تستجيب ولا تدر الحليب إلا بالكاد، والحاجة تحاول استرضاءها بشتى الوسائل التي تعرفها... ألتفتت لهما ناعقة كبوم عجوز:

- من الذي بعثكما؟ قالت ذلك وهي تنظر بطرف خفي إلى الطاسة الفافونية التي يحملها بيده. تقدم منها نصف خطوة بحذر لخوفه من البقرة التي تحلبها الحاجة بانهماك وجده شنيعًا لحظتها، رق قلبه الصغير لها رغم خوفه منها وقال:
- أنا آدم ابن أم نصير، نريد بطل حليب واحد وهي ستحاسبك عليه فيما بعد.
- حسنًا، تنحى جانبًا، أنكما ترعبان أبقاري بوقفتكما هذه... تراجعا خطوتين بسرعة، وانتظرا رزقهما المشكوك به... مضى عليهما وقتا لم يعرف آدم مقداره ولم يحصل شيء، تركت أم علوان بقرتها التي بدأت بحلبها وتوجهت إلى بقرة أخرى أتعس من أختها، وضعت السطل تحت ضرعها وبدأت تتوسل بها وهي تلاعب أصابعها بخفة ومهارة ونجحت في جمع كمية مناسبة أرضت فضولها وطمعها، ثم نهضت واختفت وراء باب الزريبة. أدم سمع صوت ماء يجري من حنفية وتقفل بسرعة، عرف بحدسه بأن هذه الشمطاء كانت تغش أمه، تضع الماء فوق الحليب الصافي، إذ لطالما سمع أمه وهي تتحدث عن براءة وصدق وخوف

(•) أقراص المطال: روث الأبقار ، يجمع باليد وترص على شكل أقراص بأحجام مختلفة ثم يتم تجفيفها على الأسطح بغية استعمالها كوقود للأفران بدلاً من الخشب لرخصها

أم علون من الله وأنها حاجة لا تغش الناس ولا تلعب بالمقادير، اكتشف غشها وهو واقف بجانب صديقه محمد أمام الزريبة، هي لم تجعلهما يشعران بما فعلت، ربما لو كان هناك زبون كبير في العمر لما فعلت ذلك، أو أن تضع الماء في السطل قبل الحلب، وربما كان الماء موجودًا وأرادت أن تزيد من كميته بعد أن شاهدتهما طفلين لا حول لهما ولا قوة، لكن آدم اكتشفها، اكتشفها ولم يش بسرها وفعلتها، لم يتجرأ وهو في عمره الصغير كعصفور أن يتحدث معها، بقي صامتًا لم ينبس بكلمة... يتأمل الزريبة والسماء التي فوقها.

اقتربت أم علوان منه آمره:

- قرّب طاستك.

قرَّبها. أدارت من السطل الحليب في "بُطل "أحمر طويل العنق بلا ورق لاصق، لا يعرف المرء لأي استعمال كان يستعمل، تناولت من قربها قمعًا أبيض من البلاستك مشكوكًا في نظافته، فقط كان مطروحًا على حصير قريب منها، سكبت الحليب حتى امتلأ "البُطل" وأدارته بعد ذلك في طاسته وهي تردد:

- انظر جيدًا... عن الحرام والحلال يا بني، "البُطل "مليء بالحليب حتى عنقه، وهو يهز رأسه موافقًا على كلماتها... وأعاد عليها كلماتها بطفولية ساحقة:

- عن الحرام والحلال، وأضاف: سأقول لأمي هذا!.

خرجا منها بعد عناء وطول انتظار محملين بالحليب المغشوش الذي يترجرج في الطاسة، مشيا في الدرب الترابي والغبار يلحقهما غصبًا عنهما ولا سبيل لتفاديه، كان لعينًا مثل البخار الذي يخرج من بئر كبريتي، خاف آدم على الحليب أن يتلوث من جراء الغبار المتطاير، حاول أن يضع يده الصغيرة على فتحة الطاسة فارتجت وسقطت من يده دون قصد، تطشر الحليب على الأرض، أصبح فجاة التراب الذي يقف فوقه طينًا أبيض... حاله كان لا يحسد عليه، السماء فوقه بعيدة وأمه تنتظر الحليب المغشوش الذي لا تريد أن تصدق بأنه مغشوش، نظر إلى صديق رحلته المعذبة محمد رآه واجمًا، يحرك شفتيه بعبث، يلحسها بلسانه كي يرطبها بعد أن نشّفها الموقف، آدم خائر بوقفته التي طالت دون أن ينبس بكلمة حتى برقت له فكرة مذهلة يصعب على الشيطان الإتيان بمثلها، اليأس يعني التسليم، جدار داوود لا

يمكن تسلقه، أمسك بيد صديقه وأمره أن يرجع معه إلى الحاجة أم علون، تلك العجوز اللئيمة المتحزمة دائمًا بعباءتها السوداء التي يعود سوق الحي لابنها وعليه سُمِّي باسمه "سوق علوان"، كانت دكاكين السوق عبارة عن خيم هرمية من الخشب والجينكو (•) متنقلة، إذ يمكن حملها أو سحبها، وكثيرًا ما تغيرت مواقعها حسب الظروف الجوية التي تعصف وتقصف الحي، فعندما تغرق مساحة من الأرض كانت الدكاكين واقفة عليها يحولها مستأجريها بعد التشاور مع علوان إلى منطقة ترابية أعلى وهكذا. دخلا بيتها ثانيةً كان محمد صديقه يجهل خطته، فغرت فاهها وصاحت متحدية:

- ماذا تريدان بعد؟

تصلب آدم في مكانه، ارتجفت أوصاله للحظة، ثم واجه مصيره، شرع بصلافة الواثق من نفسه بعد أن كان قد مسح بطن الطاسة بكُم قميصه جيدًا وجعلها تلمع كأنها لم يلامسها حليبها المغشوش من قبل:

- أمي تقول إن الحليب لم يكفينا وتريد "بُطل" آخر، وسوف تتحاسب معكِ على "البُطلين" فيما بعد... سمعت ولم تصدق سمعها، فحالتهم المادية تعرفها جيدًا، لا تبشر بالخير وليس بإمكان أم نصير أن تسدد لها حق "بُطلين" من الحليب في وقت واحد، وشراءها للحليب لم يكن مستمرًا أو يوميًا، هذا كله تعرفه الحاجة أم علوان ولا تحتاج لأحد لأن يقول لها هذا، استشعرت بالريبة من طلبه، خاصة وهما لم يتأخرا برجوعهما إليها، كانا وسط الطريق الترابي الذي يفصل بيتهما عن زريبتها، فجأة تلبستها حالة من الحذر، كادت ترفض لولا طمعها، أشارت لآدم مجددًا بروتين لا تحيد عنه:

- قرّب طاستك.

قرّبها وانتظر رحمة الله ورحمتها. انحنت، رفعت سطلها الذي يجهل محتوياته لحظتها، سكبت في ذات القمع البلاستيكي وبنفس "البُطل" الأحمر الحليب الذي لم

(•) الجينكو: معدن رقيق من الحديد يكون على شكل لوحات كبيرة متموج السطح ، غالبًا ما يستعمل لتغليف أسطح البيوت التي تبنى من الطين والدكاكين التي تبنى من الخشب

يكن متأكدًا من سلامة نظافته، دارت الحليب في طاسته بعد هذه العملية المضنية له وهو يتابع حركاتها وتصله رائحتها التي لم يحبها، كانت لا تختلف عن رائحة زريبتها كثيرًا، ثم أشارت له بحفظ كلماتها، هزَّ لها رأسه كبقرتها التي كانت ترعى وتهز ذيلها مشيرًا لها علامات الحفظ وأمانة نقل كلماتها بالحرف ولم يفعل لأنه أثناء عودته نسي ما كانت قد حفّظته إياه، يظن كانت جملة تتعلق بحق الحليب الذي قيد عندها على أنه دينٌ لم يمضِ على ولادته سوى دقائق، بل ما زلوا لم يتذوقوا قطرة واحدة منه ونصفه قد ضاع وتحول طينًا بعد أن قبّل التراب بحكم السقوط!.

بعد فترة طالبت الحاجة أم علوان قصف الله رقبتها الغشاشة تلك بحق "البُطلين". أمه رفضت العرض، لم تعطها غير حق "بُطل" واحد من الحليب، آدم لم يخبرها بالقصة، وعندما سألته أنكر، أكد بأنه لم يجلب منها سوى "بُطل" واحد فقط... أقسم على ذلك بأغلظ الإيمان طلبًا للسلامة!.

(٤)

الخوف قضبان سجن المبدع، متى ما تنكسر تلك القضبان وتتلاشى يتحرر الإبداع.

في مساء أحد الأيام الكئيبة على نفسه وآدم بوقفته منتصبًا كعمود النور أمام منزلهم ينظر إلى الأفق البعيد بطرف شارد، وهو يعيد على خاطره ما جرى له قبل فترة قصيرة بالصدفة، أرهقه الموقف حد العذاب والتقهقر كأنه متآمر عليه مع القدر رغم ما يمر به بخصوص علاقته بأنْهُر وموقف أخيه نصير منهما... فزاده همًّا وغمًّا، حيث:

كان جالسًا يتناول فطوره عندَ الصباح الباكر في منطقة الصالحية قبلَ سفره إلى كلية الطب البيطري التي يدرس فيها والكائنة في منطقة أبو غريب، كانت بالفعل رحلة صباحية شاقة ومتعبة خاصة عندما يتخللها الزحام الخانق والأمواج البشرية التي تتزين باللبس العسكري، بحكم موقع الكلية وسط معسكرات وثكنات الجيش.

كانَ صباحًا ممطرًا، كأنَ السماء تبكي وتنعي أحدًا، انهمك بتناول فطوره المكون من طبق القيمر العراقي ذائع الصيت المحلي الصنع معَ العسل البلدي والخبز الحار... فإذا به يسمع أبا جعفر صاحب المطعم الذي يتمتع برأس كبير كالبطيخة وصدر عريض، قصير القامة ليبدو كالمصارع وهو يصرخ ويدق الأرض بقدمه بقوة كحصان نافر، متذمرًا، مكفهر الوجه:

- ماذا... لا تملك نقودًا؟! ماذا تعني بقولك؟، ها.

- نعم يا سيدي. أنا لا أقول إلا الحق، ثمَ أردف:

- كما ترى، فأنا جندي، أقصد، لا أملك شيئًا، يعني معذرةً عليك أن تصدقني!، وها أنا سألتحق بمعسكري حالاً، يجيبه الزبون ببرود وغفلة كأنه استيقظ من النوم لتوه.

- أي حق يا هذا الذي تتحدث عنه؟، لماذا تأكل قيمرًا عندَ الصباح ومعَ العسل إن كنت لا تملك نقودًا؟... حَنَّ قلب آدم وأشفقَ عليه وهو يصيخ السمع.

- لقد أعجبني منظره، لم أجد نفسي إلا وأنا أجلس وأطلب الفطور دونَ تفكير كثير!، ثمَ شرعَ:

- اعذر لي تصرفي غير المسؤول هذا وعلى تسولي!.

لم يعد صاحبنا يطيق الصبر، هجمَ عليه مقطب الجبين كأنه ينوي أكله وهو يرعد: كلما كثر الذباب هان قتله!... لم يبق لآدم من خيار إلا التدخل للفصل بينهما قبل أن تقع مصيبة، المطعم كان خاليًا من سواهم، قال محدثًا نفسه "يكفينا ما يجري في الخارج من قتل وتهجير وسلب للممتلكات والحريات... علي إذن أن أمنع ما قد لا تحمد عقباه بأي طريقة"... حاولَ تهدئة أبي جعفر متوسلاً:

- أرجوك، عليك أن تعتني بصحتك، الرجل وكما هو واضح من كلامه وأسلوبه يمكن التفاهم معه، وأردف بثقة مصطنعة محاولاً إقناعه:

- انظر له... ودود، هادئ ويمكن التحدث معه... وهو يصوب نظراته المستغربة نحو الزبون الذي يلحس أصابعه بعد أن علق العسل فيها، ثم أدرك يصطنع الحزم بعد أن وضع نفسه قاضيًا بالتبرع يسأل الزبون المنشغل عنهما:

- كم تملك من النقود؟

قاطبًا جبينه كأن السؤال غير موجه له:

- لا أملك غير هذه المسبحة التي تراها في يدي!.

عندها جن جنون صاحب المطعم لدى سماعه كلمة مسبحة، صكَّ على أسنانه كالذئب، زمجر بتهالك:

- مسبحة!. ومن قال لكَ بأن الفطور عندنا يقدم لقاء مسبحة؟ هه... أجبني وإلا اقترفت جريمة الآن؟!

سحبه آدم بحركة خفيفة وسريعة نحو أحدا أركان المطعم، همس في أذنه بخبث مسالم كأنه يحاول استرضاء طفل يبكي:

- خذ المسبحة. أنا أعمل في هذا المجال، بل أتاجر فيها!... خذها فهي من النوع النادر، لا عليك إنها تساوي ثروة وأنا أعرف قيمتها جيدًا، وتابع:

- هذا الأبله لا يفقه عنها شيئًا، كل ما يفكر به إشباع معدته... خذها واطرده، لا تجعله يدخل مطعمك ثانية، سوف لن تخسر شيئًا، بل العكس، ستجني ثروة

خرافية من ورائها، قال له ذلك بعد أن عجز عن إيجاد حل يرضي الطرفين سوى هذه الحيلة البريئة، على الرغم من أنه لا يحب المسابح ولم يلمس واحدة في حياته قط، لا خيوطها ولا خرزها، وتذكر المثل القائل "أي قميص لا يصلح للعريان "؟، صدقه الرجل عن طيب خاطر عجيب وأشار باسمًا:

- أحق ما تقول؟

أومأ آدم برأسه علامة الإيجاب.

- هل تقسم على ذلك؟

- أقسم... وهو لا ينوي سوى فعل الخير. فأقسم وروحه راضية مطمئنة ونفسه مسرورة...

اقتنع صاحبنا بالفوز العظيم بعد أن استحوذ على الكنز الثمين وهو يضغط على المسبحة بقوة كأنه يخاف عليها من أن تطير... خرج آدم منتشيًا لكون المشكلة انتهت بسلام.

انقطعت زياراته للمطعم بسبب مرضه المفاجئ الذي أقعده عدة أيام، بعد أن تعافى وعادت صحته تتحسن تاق إلى القيمر والعسل والخبز الحار... فوجه دعوة إلى صديقة وزميله في الكلية عامر كي يتناولا فطورهما عند ذاك المطعم.

وقفَ آدم عند ذلك الصباح مذهولا، خجولا أمام عامر لا يعرف كيفَ يعتذر منه. فقد وجدا المطعم مغلقًا، يدمدم آدم بكلمات مقتضبة:

- سأسأل عنه، انصرف إلى أحد المحال القريبة... وإذا به يصعق من هول الخبر.

رجع إلى صديقه منهارًا وأطرافه ترتجف من الانفعال وهو يروي قصة الخبر بتهالك مفضوح:

- لقد قُتِلَ صاحب المطعم قبل أيام... ثم باتت كلماته تتدحرج من فمه ثقيلة، متقطعة:

- لقد ساعدت وخططت لارتكاب هذه الجريمة الشنيعة دون قصد أو إدراك أو حتى سوء نية... حين رفض أبو جعفر إرجاع المسبحة... آه يا إلهي... كيف لم يخطر ببالي ذلك، ثم يرد على نفسه كالمجنون بعد اشتدت ألامه وتداعى صوته: ولكن، لم يمكن لي التكهن فيما سيحصل؟ لقد كنت أنوي منع شجار يحدث أمامي وقد يتطور إلى... إلى ماذا... لقد قتل الرجل بسبب المسبحة!! ثمَ ردد وهو يتخبط في

الكلام كالمحموم: الزبون كان يسمعنا عندما كنت أحاول إقناع صاحب المطعم بأنها... ستعني له ثروة... تابع وصوته يرتجف فيه حشرجة اليأس:

- يا لي من غبي، كان يسترق السمع، صدق المسكين كذبتي البريئة الساذجة واستحوذ الطمع على عقله. صاح: هل فهمت حجم المصيبة؟... قالها وهو يصوب إلى صديقه عامر نظرات قاسية ليس لها معنى، جامدة كأنها لميت...

انكسرت دمعة على خده، شعر وكأنها تفجرت من بين أضلعه... بينما بهت عامر صامتًا، ساكنًا كالحجر وعيناه تلح عليه بمائة سؤال وسؤال، علت آيات الدهشة والاستغراب على وجهه وهو ساخط من بؤس صديقه وحجم الكارثة التي لم يكن يعنيها إطلاقًا. حاول تهدئته بلب شارد، استرد جزءا من شجاعته رغم خفقان قلبه بقوة وتدافع أنفاسه برقة مصطنعة:

- إنها مجرد صدفة، بمعنى آخر، قضاء وقدر، لم تكن تعلم بأن الأمور يمكن أن تسير بهذا الاتجاه المأساوي... قاطعه آدم بحدة بعد أن غمرته موجة انفعال مضطرب وهو يقلّب عينيه كأنه شرب السم قبل قليل:

أنا... أنا القاتل الحقيقي، إنها نصيحتي القاتلة، ثم سرت رعشة في جسده زلزلت قلبه من مكانه... اغمض عينيه كأنه لا يريد أن يعرف عن حياته القادمة شيئًا آخر. ظل غارقًا في بحر من الذهول يثير في النفس مكامن الشجن، يجعل الشقاء تحت أقدامه يبكي والأحزان بهيبتها تصمت.

• • • •

في اللحظة التي سرح بها آدم وهو يعيد على نفسه شريط عذابه غير البعيد وما حصل معه مع صاحب المطعم خرج مجيد الذي يكبر آدم بعامين من البيت فجأة، رآه متأملاً بوقفته، ذاهلاً أمام باب الدار ينظر إلى الأفق غير المحدود وكأن حدوده قد هدمت. كان مجيد أسمر البشرة، بشاربين رفيعين، أفطس الأنف، له شفتيه غليظتين كشفتي أفريقي، ممتلئ الجسد، يهوى القراءة، مدمن عليها، لا ينقطع عن معاشرتها، وجد أخيه كالصنم غارقًا في الحزن سارحًا، هائمًا كأنه في عالم آخر، تقدم منه يسأله مقتنعًا بالابتسام، متمتمًا بعد أن قطع عليه خيط تأملاته:

- استعذ بالله يا رجل، ما لي أراك هكذا مهمومًا مثل الذي يحمل هموم الكون كلها على رأسه؟ ثم واصل بهمس يشبه الحياء: الحياة ومن فيها لا تستحق منك كل هذا الحزن ومسحة الكآبة التي تخيم على محياك. قال ذلك وهو يتفرس وجهه لسبر أثر كلامه فيه.

رفع آدم رأسه إليه، حدّق به، أطال التأمل ولم ينبس...

أعاد مجيد المحاولة لجرجرته إلى الكلام والتصريح بما يجول بخاطره لعله يريحه ويزيل عنه همه:

- أراك تنظر لي بعمق وكأنك لا تعرفني؟

خرج عن صمته، حرّك شفتيه ببطء وبصوت مخنوق بالعبرات، قال:

- ماذا ينفع الكلام والفعل مفقود؟

- الفعل يأتي بعد التأمل والتفكير ومحادثة النفس والآخرين.

- فعلت كل هذا وأخيك نصير لا يريد أن يفهم أو يرحم ولا يجعل رحمة الله تنزل علينا!، وأضاف بمعنى مباشر كطريق السهم عندما يطلق: من يعرف الناس يشكر الله على وحدته وعزلته، ثم بجزع كالساعة وهي تحسب الزمن في جلسة أنس: مصيبة نصير الحقيقية هي أنه لا يشك بنقائه بتاتًا حتى لو سهر أو سكر أو عاقر كل منكر... ثم يخرج لنا واعظًا كقديس: هذا حلال وهذا حرام!!.

كدهاة السياسة:

- لا تقل مثل هذا الكلام على أخيك الكبير، أنت تعرف كم يحبك ويريد مصلحتك، ثم تابع بعد أن وجد فرصته المواتية للحديث معه: لو فكرت بتأني وروية ستجده على حق، إذ كيف تتزوج وأنت مازلت طالبًا، بل أنا وأخيك مروان مازلنا لم نتزوج بعد، فكيف تقفز أنت وتتزوج قبلنا، ومن ثم لماذا الزواج من أصله؟ عش حياتك بحرية وكما ترغب وتشتهي ثم أركن للزواج بعدها، الحياة كلها أمامك، ومستقبلك ما شاء الله عليه سيكون مطرزًا وحافلاً بالانتصارات وعلى كل الأصعدة، ما مطلوب منك هو عدم التعجل، كل شيء في أوانه يكون جميلاً وناضجا... استوقفه آدم وهو ينذره بنظرة:

- المسألة ليست كما تتصورها أنت وبهذه السهولة، هناك أبعاد أخرى لم تتطرق لها، وما أراك بالشخص الساذج الذي لا يلقفها وهي طائرة، تمتم مضيقًا: يفسرون الطيبة غباء وهي إباء!.

- ماذا تقصد؟

- أخوك نصير!

- ما به؟

استرسل بالحديث كأنه يؤلمه طافحًا به فأراد أن يزيله:

- تعودنا أن ننظر إلى الجمال بنظرة القبح، نقول عليه قبيحًا وهو جمار [•]. تعودنا أن نقول للضعيف أنت جبار، نوهمه بقوة لا يمتلكها، فنجعله يجن من حيث لا يدري. نحطم ونقف ضد كل فكر سامي إنساني جميل لأنه يتنافى مع ما نحمله، وما نحمله نريد تعميمه حتى لو كان خراء. تعودنا أن نجامل، أن نقاتل، أن نموت وبداخلنا شيءٌ آخر غير الذي ندعيه. تعودنا أن نهتف، أن نجعل حناجرنا تصرخ، تبح أصواتنا من أجل أن نضحك، لا من أجل أن نعيش. تعودنا أن نحيا لأننا لابد أن نحيا، ولكن لم نقف ونسأل أنفسنا، كيف نحيا؟ تعودنا التمثيل، تعودنا التحطيم ولم نتعلم كيف نبني، كيف نفكر أن نبني، غابت عن أذهاننا تلك الكلمة، كيف؟ تلك التي جعلت الإنسان يغير من داخله، ثم يُعلم من حوله، بعد أن يسأل نفسه كيف؟... توقف لبرهة، أخذ نفسًا عميقًا، ثم تابع برنة واهية كطفل راودة النعاس:

هناك يا مجيد من لا يريد أن يصدق، يعتبر نفسه ظل الله على الأرض وصاحب المقادير بعد أن يقبل ترشيحه دون تصويت وهذا لا يجوز... فالله سبحانه لا ظل له، روح موجودة في دواخلنا لا ظل لها كالغرائز، الأخيرة موجودة لكننا لا نراها إلا من خلال أفعالنا وردودها، وأضاف مهددًا كمن اذعن لنزعة أو نزوة اعتداء طارئة: تدخله المتعسف، رأيه الذي يتصوره خالصًا ومنزهًا ومنزلا كأنه يتلقاه من وحي... بلع ريقه الناشف، أضاف بحماس متوترًا بصوت غليظ ينم عن وعيد: ونحن ما علينا إلا الطاعة العمياء والمثول لآرائه على علاتها مهما يكن فيها من إجحاف أو

(•) الجمار: لُب النخلة

غبن أو حتى جهل لا تخطئه العين السليمة، وإلا كيف تفسر رفضه على إنني لو تزوجت بأنْهُر سيصبح عاصم زوج أختها الكبيرة عديلي وهو صديقه المفضل؟ إليس هذا تناقضًا بشعًا لا يمكن الركون له أو ائتمانه؟ ومن ثم هو تزوج بطريقة أنت تعرفها جيدًا، ولا داعٍ من تكرار ذكرياتها، إذن ليس له الحق في قوله وتصرفه.

ببرود يهلك الأعصاب:

- لا تقل مثل هذا الكلام، نصير وتعرفه، أطيب من قلبه لن تجد، انصحك بأن تركز في دراستك وصحتك ودع الأيام هي التي تقول كلمتها... هز رأسه واستطرد بحنكة مشهود لها بالخبرة واللباقة: لا تأخذ كل كلامي جد، فالحياة لا تعني لي غير أن أعيشها كما هي، الموت أرحب به في كل لحظة، لكنه خائف مني، الحب لن تراه إلا في عائلتك وبعض من خاصة الخاصة، أحب الحديث معك على الرغم من أني لا أتفق معك إلا ما ندر، ومع ذلك ترانا نتحدث في كل شيء وهذا بحد ذاته هبه من الله!، اسمع، قلت لك الآن جمل لم تخطر على بالي قط في قولها، ارتجالية يعني... خذ منها الجاد واترك الهازل، لكن لا تفعل إلا ما تراه أنت فقط، ثم غيّر مسار الحديث فسأله مباغتًا:

- ما رأيك لو حدّثك عن عصفورتك؟!

- عصفورتي!

- نعم، وأضاف مباشرةً: أنْهُر ومن غيرها؟

- ماذا تريد أن تقول؟

- قرأت يومًا في كتاب لا أذكره الآن بالتحديد لمن، تتحدث الحكاية وتميل كثيرًا لتجسيد شخصية عصفورتك، هذا ما رأيته أنا من زوايتي طبعًا، وتابع برنة صافية مسالمة:

- اسمعها أولاً، ثم قل كلمتك واحكم عليها، سأقصها عليك بطريقتي السردية الخاصة التي تعجبني:

"قفز أخوها أكرم من مكانه كالملدوغ صارخًا، سأقتلها!. دمدم بعد أن غلى الدم في وجه فصار بلون الجمر، لو أمسكتها بإصبعي الصغير هذا لأزهقت روحها، الشيطان وحده يعلم ما يدور في رأسي الآن. تمسكهُ الأم بقوه من يده كما يمسك الضرير عصاه، تقول منهكة والقلق يبدو عليها متوسلة من خلال دموعها، أرجوك

يا بني لا تتهور، أعطنا فرصة كي نفكر لنتدارك الموقف، ما هذا يا رب، تبدو كالمجنون، تجعلنا لا نستطيع أن نحدد ما علينا فعله، قل لي ما هذا الذي تحمله بيدك المرتجفة؟ أرني إياه.

يشد أكرم شعره، يضرب صدره ويطقطق أسنانه كالكلب المسعور وقد بح صوته يردد ما قاله للمرة الألف، سأقتلها، سأطهر شرفنا من عارها الذي لحقَ بنا، سألقي لحمها بعد أن أقطعه قطعا للكلاب الضالة، سأنظف سمعتنا التي لوثتها بفعلتها المشينة، لا يمكن لي الجلوس هكذا وشرفنا وسمعتنا ملوثة، قولوا لي كيف سنعيش بعد اليوم؟ كيف سنواجه الناس وبأي شكل؟ لقد كتبت لنا أختنا العزيزة الجميلة الدلوعة تاريخًا أسود بلا رحمة أو شرف، سأقتلها لأكون رجلاً يستحق الحياة بكرامة"...

بعد أن وصل مجيد لهذه الجزئية قال لأخيه:

- انتبه، هذا ما كان يفعله أخوها، انظر لما سيحل بالعائلة، وتابع:

"ينظر لهم الأب بوجه شاحب، بصمت قاتل دون حراك كأنه ميت، صرخت به زوجته بأسى قائلة، ماذا عنك يا تحسين، لماذا لا تقول شيئًا؟ فإنك ومنذ أن عرفت بالمصيبة لم تبدِ تعليقًا سوى جلوسك الصامت هكذا كالصنم. طأطأ رأسه، صرَّ على أسنانه بقوة كالذئب عندما يريد أن يهجم على ضحيته، بدا أن الحقد والغيظ يخنقانه، قال باكيًا كما يبكي السكران، اصمتي يا امرأة، أن الذي حصل لابنتنا سعاد كان بسببك، والآن تريدان مني أن أتخذ قرارًا، كيف؟! لقد جعلتِها مدللة، لاهية كالطفلة بل كالدمية لا تفقه من الحياة سوى طرف من ظل، وعندما أخطأت وأصبحت حاملا دون زواج وبهذا السن رأيتكما تنتحبان وتتوعداها بالقتل غسلاً للشرف الملطخ، لماذا؟ إنها أمور لا يستقيم لها العقل، فكلما تدخلت في حياتكما قليلاً تذمرتما صارخين، لا تتدخل، نحن أعلم بما نفعل، لا تجهد نفسك، يكفيك عملك و... والنتيجة هي أن ابنتي تموت، بل أنها ماتت، ماذا تظنان؟! وأنت قل لي وهو ينظر إلى أبنه باشمئزاز، ماذا تحمل في يدك، ها..؟ أتريد قتلها؟ ألم تقتل أختك نفسها في اللحظة التي وثقت بذلك الرجل الذي أغواها ووعدها بالزواج كذبًا؟ لقد ماتت بالفعل، فلا داعي بعد من قتل الميت!... نكس رأسه ودخل إلى حالة الغيبوبة والصمت المرعب الذي كان فيه من جديد ليبدو كالحجر.

تدخل سعاد الغرفة صامتة كالظل، بطنها منتفخة كأنها في الشهر التاسع من حملها، تتعثر بخطواتها مثل الذي يساق إلى ساحة الإعدام، بدأت شاحبة وضعيفة، منهكة، تلهث، نفسها يكاد ينقطع كأنها انتهت من ارتقاء سلم عال للتو، قالت بصوت مرتبك غير مسموع، أنا أعترف بجرمي أمامكم، لكنني لم أكن قد أخطأت بمفردي، ساعدتني أمي بدلالها المفرط اللذيذ، أخي بتهوره وعدم السماح لي بمصاحبته، لم يحاول يومًا أن يفتح لي قلبه أو حتى يكسب ودي، كما أنه لم يعاملني كإنسانة لها مشاعر وأحاسيس، ما كان يؤمن به شيء واحد، هو أنه الرجل، لقد كانت نظراته لي سمًا وكلماته خنجرا لأبقى لا شيء في عرفه، لقد فعلت ما كان يفعله كل يوم، لكنه يحرم عليّ ما يحلله لنفسه، حتى بت أهيم بلا معنى وأعيش دون جدوى، كدمية كما قال أبي بالضبط أحيا بلا حياة... توقفت للحظة، ثم تابعت، أنا لا أدعي بأني غير مخطئه، بل أنا فاسدة، زنديقة، كافرة وحقيرة، لا أستحق منكم حتى أن تلوثوا أيديكم بدمي، لأنني في عرفكم يجب أن لا أكون، إلا كما ترغبون فأحيا بلا قلب، خاوية مقفرة كالقبر، إذن سأقتل نفسي بإرادتي ودون مساعدتكم، سأعدم نفسي لأكون نسيًا منسيا، تتقهقر، تتشنج، تنهار ساقطة على الأرض.

تصرخ الأم باكية، سعاد ابنتي.

لم يعد يطيق أخوها أكرم الصبر أو الانتظار، يهجم عليها كالأسد حاملاً سكينه الحادة التي تلمع كلمعان الفضة النقية، يمسك بقبضته الحديدية رأسها، يلوي عنقها، يتدخل الأب في هذه اللحظة الحاسمة الحرجة، ليقف كما السد الذي يحجز المياه، يقول صارخًا، كفاكم كفرًا وغباءً، دعوها... أنها.

تخرج من غرفة سعاد صرخة عارمة مدوية تهز أركان المنزل كله، تهرع الأم راكضة إلى غرفة ابنتها التي تجاور غرفة نومها، تفتح الباب عليها بقوة وبخفة ساحر، يدخل أخوها مسرعًا كأنه يود إطفاء حريق قد شب، الأب يقف على رأسهم كالصقر... ليجدوا سعاد جالسة على سريرها تبكي بهلع جنوني، تتقدم أمها نحوها، تقول لها وهي تمسح دموعها من على وجنتيها، ماذا جرى لكِ يا بنتي؟ أنه مجرد كابوس، لا تقلقي، خذي، اشربي هذا الكأس من الماء، بللي ريقكِ أولاً، نحن وكما تشاهدين جميعنا من حولك، هدئي من روعك... يتوجه الأب نحوها، يقول مبتسمًا كالطفل، لقد شغلتنا عليك يا بنتي وجعلتنا نركض كالغزلان الفزعة.

نظرت سعاد إليهم بعينين لامعتين فاضت فيهما الدموع، ضاحكة تقول، أعتذر منكم يا أحبائي، لم يكن في بالي قط أن أوقظكم في ساعة متأخرة من الليل، ولكن للنائم عذرٌ فيما يحلم به.

يأخذ أخوها بيدها، يرفعها إلى فمه، يقبلها بحنان، يقول باسمًا كالصبح، سوف ننتظر بفارغ الصبر وعند الإفطار أن تخبرينا بقصة الكابوس اللعين هذا، لكي نضحك معك وعليك يا دلوعة"...

بعد أن أنهى رواية حكايته كركر وجسمه يهتز، قال سائلاً أخيه:

- هل عرفت الآن لماذا قلت بأن الحكاية تجسد شخصية عصفورتك؟ وأجاب على تساؤله:
- لأنه مجرد حلم، قصتكما كذلك، ستسعدان معًا، كابوسًا وسينتهي على خير، خذ الأمور ببساطة تجدها سهلة، طيعة ولا تحتاج إلى هالة الكآبة التي تحيط بها نفسك، ثم لكز كتف أخيه بهوادة وغادره باتجاه الطريق الرئيسي المؤدي إلى خارج الحي.

ودَّعه آدم بنظره تائهة كالمسحور دون أن ينبس... لكن داخله كان يجول بتناقض كالصراع... بين الحزن الضامر والسخرية الصامتة الخرساء.

(٥)

متى يأتي اليوم الذي يرى فيه الذئاب ترعى مع الغنم؟ ! .

ماذا تستطيع أن تفعل ماشطة مع عروس قرعاء؟ ! .

وما أن ترقع فتقًا حتى يظهر لك ألف فتق يحتاج إلى ترقيع في وطن سكنه الطاعون واستبد به.

ما أن شعر مروان بقرب زواجه حتى عصفت به رياح التخبط التي كان يلجأ لها قبل خطوبته من ظفر. ضرب موعدًا مع دريد أخ لمياء زوجة أخيه المرحوم سعيد بغية قضاء أمسية ماتعة على ضفاف نهر دجلة، تلك الضفاف الوادعة، الجميلة التي تنتشر فيها الملاهي والمراقص والمقاهي ومطاعم شواء السمك "المسقوف" على الطريقة العراقية... استغل غياب أهله في ذلك المساء عندما خرجوا لتلبية دعوة زواج ابنة عمهم، امتنع من الذهاب معهم متحججًا بمغص مفاجئ أصابه، وما أن سمع باب بيتهم يصفق ويغلق من وراءهم حتى ضرب موعده مع دريد الذي لا عمل له غير التشرد.

حافظ مروان على نحافته التي يتباهى بها أينما يكون، بشاربين كثيفين يغطيان شفتيه تقريبًا، له أنف حاد وشعر رأسه قصير مجعد، يبلغ من العمر التاسعة والعشرين، خطب له أهله ظفر الملهوجة بعد أن رأوه قد وصل إلى حافة الجنون بسبب وفاة أخيه الشاب سعيد الذي كان متعلقًا به جدًا تعلق الطفل بأمه، عقله أصغر من عقل عصفور، لا يتحمل مجابهة ومواجهة المواقف الصعبة أو الحرجة والحاسمة التي يتعرض لها، يشهر سلاحه ثم يلحقه جنونه، فتراه لحظتها يدور مثل زنبور، لا تسمع سوى طنينه، أغرق نفسه بالسواد، من الأعلى إلى الأسفل، قميصه أسود بأكمام طويلة يرفعها عند نصف ذراعه، هو متعود على ذلك، لم يعرض ما يلبسه للكي يومًا فتبان ملابسه مثل قطعة قماش غسلت وتعرضت للهواء الطلق مباشرةً، بنطاله الذي يرتديه كذلك أسود مثل حزنه على أخيه الذي توفي قبل عام ونصف تقريبًا في حادث سير وهو مازال لم يتجاوز الثلاثين، يعتبر المرحوم عمود

بيتهم وعليه يتكئون، خطفه الموت فجأة، غرقت أسرته في حزن ليس له قرار، وأشدهم حزنًا كان مروان، المسكين لم يتحمل الصدمة، شدّ عقله، كان غالبًا ما يذهب عند الفجر لا يعرفون أهله إلى أين، ثم يرجع عند الظهيرة وهو مغّبر والطين يعلو وجهه!... عُرف فيما بعد بأنه كان يزور قبر أخيه بمفردة، يندب حظه لفقدانه، ينوح، يبكي براحته، على كيفه ثم يعود وعيناه ملتهبتان حمروان مثل عينيّ شيطان، أو أن يقفز في وسط أهله يطالبهم بإرجاع أخيه إلى الحياة مجددًا!!. هكذا كان مروان. الغريب في قصة موت أخيه هو أنه مات في ليلة ولادة زوجته في طفلهما الثاني!، فترك زوجته، ابنه الصغير والمولود الذي لم يره ورحل حيث اللاعودة، حيث الصفاء والنقاء، إلى حياة لا رياء فيها أو نفاق، إلى دنيا لا تعرف المنافسة أو الحقد والكرة أو الاعتداء.

تعرف مروان في بداية الأمر بالصدفة على أنْهُر أثناء احتفالهم بعيد الخليقة في منتجع الحبانية، أول ما رآها ظل يخزرها بنظرات صامته خرساء تنم عن رغبه ذات مغزى، عرفت أنْهُر ذلك بفطرتها، تجاهلت نظراته، لم تتجاوب معها، أهملتها، ارتاحت إلى وسن ابنة أخته التي كانت وقتها بصحبته، شعرت بأنها يمكن أن تكون صديقه لها، ما أحوجني إلى هذه الصداقة... قالت أنْهُر مع نفسها ذلك وهي تمشي مع وسن بروية على شاطئ بحيرة الحبانية ساعة تعارفهما يتسامران ويتهامسان بحديث لم يسمعه الآخرون.

عائلة دريد ذلك الشاب المتسكع الذي لا يعرف له تاريخ شديدة الغرابة في تكوينها وعلاقة أفرادها بعضًا ببعض، فالأب كان سكيرًا من الدرجة الأولى، لا يصحو حتى يسكر مجددًا، فقير الحال والمال، هش الأخلاق ضعيف البدن يدعى سمير، رزق من خيرية زوجته ثلاث بنات وولدين أحدهما دريد الذي خرج مع مروان لإحياء ليلة يكون الكأس فيها نديمهما...

ابنتهم لمياء كانت البنت الوسطى، سمراء معتدلة السمنة، جذابة في حديثها وتلبك كثيرًا، ضحكتها ترن في الأذن ساعات بعد سماعها، عشقها سعيد أخ آدم من أول نظرة أثناء زيارة غير متوقعه لهم بصحبة ابنهم الكبير ضياء فوقعت في قلبه الموقع الحسن، غلبه الوجد بعد أن كان مضربًا عن الزواج، أحبها خفيه دون أن يشعر به

أحد. وما أن قررت والدته في يوم محاصرته وتذكيره بموضوع زواجه، طرب لها قلبه، فضحه شوقه ولهفته إلى لمياء حتى صرَّح برغبته:

- لو أردتِ تزويجي يا أمي وبسرعة، فما عليك إلا أن تخطبي لي لمياء بنت سمير ضامن.

والدته تعرف عائلة خيرية بشكل جيد، فهي من أقربائها، وتعرف كذلك زوجها جيدًا، لم يفلح بتربية أولاده بشكل طبيعي وبالتالي لا تأتمن البنت التي أشار لها ابنها وبين رغبته بالزواج منها، شهقت بصوت مسموع وهي تضرب صدرها براحة يدها مستنكرة:

- لمياء ابنة سمير ضامن؟ ألم تجد يا بني فتاة غيرها تطلبها للزواج؟ وأضافت بعد وقفة قصيرة كأنها تجس وقع كلماتها على ابنها الذي بقي شاردًا، متحيرًا، زائغ النظرات وهو يحاول أن يتفهم شعور أمه الصادق نحوه بصعوبة:

- أنت ربما لا تعرف أباها سمير بشكل جيد، فهو زنديق فاسق، لا يعرف الله؛ حوّل حياة زوجته وأسرته إلى جحيم لا يطاق، بين ضرب وإهانات وجوع... ترى ماذا تتعلم الفتاة في أسرة كهذه؟ هل تستطيع أن تضمن أخلاقها أو تصرفاتها بعد ذلك؟ إن كنت تستطيع فأنا أبارك لك زواجك وأوافق عليه، فالأبناء لا يؤخذون بذنوب آبائهم وأمهاتهم.

سعيد لم يتفاجأ من حديث أمه، يعرفها حكيمة، رصينة ورزينة في تصرفاتها وتعاملها مع أبنائها وممن يحيطون بها، لكن شعوره يختلف عندما يتذكر أخيه نصير، سيقدر رده قبل أن يتفوه به "لن أقبل، أي عائلة تريد تصاهرها هذه؟ إنها ليست عائلة ولا يصح أن نطلق عليها هذه التسمية، بل بالكثير نقول، مجموعة صغيرة من البشر تعيش في بيت واحد لا يربطها رابط". هو يعلم بأن رد أخيه سيكون هذا قبل أن يفاتحه بالموضوع، لذلك، وجد ضالته بموافقة أمه المبدئية، هي التي سوف تهيأ الأمر له وتجعل ابنها نصير في نهاية المطاف يوافق حتى على مضض ودون رغبته.

صح تقديره للأشياء، عرقل نصير الأمر واستهان باختيار أخيه... لكن وقوف الأم بجانب ابنها تم لسعيد ما أراد بوقت قياسي... ففي أول زيارة لعائلة أم نصير لهم للحديث بشأن ابنتهم كانت بصحبة آدم الذي ظل حريصًا على تواجده، هناك حلم

يراوده، بأن يلتقي بابنتهم التي تقاربه العمر ومازالت مثله طالبة في الإعدادية القسم العلمي، سمع فيها ومازال لم يلتق بها، تفاءل بزيارته التي ربما تفتح أو تمهد له الطريق أمام علاقة جديدة بفتاة من دينه، هو يتوق لبناء مثل هذه العلاقات غير المتوفرة دائمًا...

بنات طائفته لا يراهن إلا في المناسبات وهن محاطات بأسوار بشرية من عائلاتهن، لذلك، غالبًا ما يتعذر عليه أن يتعرف بأريحية على ما يرغب أو يشعر بأن هذه الفتاة أو تلك تلائم أهوائه أو ميوله أو طباعه... ومن هنا كان وجوده ممتلئ بالأمل، حبلى بالأمنيات التي قد يجد ضالته التي يبحث عنها.

زارت عائلة أم نصير أهل لمياء في مساء انتشرت في سمائه النجوم الخافتة التي كانت تشع نزرًا متواضعًا من الضوء... رحبت العائلة بهم بحرارة غير معهودة، دخولهم عليهم هكذا غالبًا ما يكون أمرها مفضوحًا، لمعاينة الفتاة ومن ثم الحديث عنها... دارهم كانت مزروعة وسط حفنة من البيوت القديمة ناصية الأسوار في منطقة البتاويين المعروف عن ساكنيها بأن غالبيتهم من المسيحيين، رغم أن عائلة لمياء لم تكن من تلك الطائفة، لكن القدر شاء لهم أن يجدوا بيتًا متواضعًا للإيجار... غرفتين بصالة وفسحة قصيرة فصلت ما بين فناء البيت والسياج الخارجي المحاذي للدرب الفرعي الذي يفضي بنهايته إلى الطريق الرئيسي للمحلة.

ما برح آدم يتفرس الموجودين دون أن يقع نظره على الفتاة التي سمع عنها. خرج لهم سمير رب أسرتهم شبه صائحًا بملابس البيت وشعره عكش لم يغسله ولم يسرحه، كان رفيع العود، كالح البشره كجلد لوحته الشمس ودبغته، منحي الظهر، أحمر العينين، بطيء الكلام كمن يلوك اللقمة ويدعكها جيدًا قبل بلعها، يفرز لعابًا وهو يتحدث كالرذاذ الذي يطلقه شخص يعطس، في حين اهتمت زوجته بضيوفها جيدًا، أم نصير تعتبر بمثابة أمها، وأمها كانت من أعز الناس وأقربهم إلى روح أم نصير، قدمت لهم فيحاء ابنتهم الكبيرة الشاي وهي تبدو في أجمل صورة، بيضاء، قصيرة ودمها مرغوب، محبب، يلعب كما يقال عند العراقيين، تتمتع بسحر خاص في جلب الانتباه بمرحها وشكلها وحركاتها التي تأتي بها، في حين جلست لمياء بجانب سعيد بأدب محتشم صامته كالدمية، وسعيد يحاول مشاكستها دون خجل، لم يضع اعتبار لوجود الآخرين، هذا هو طبعه، لا يتردد في أفعاله كلما شعر برغبة

لتحقيقها... في هذه الأثناء دخلت التي ينتظر رؤيتها آدم، رجاء المتوسطة الجمال، شعرها الأسود القصير، فمها الضيق الذي يبدو كشق في منتصف وجهها، عرف عنها بأنها لعوب، متقلبة الأهواء، وبدخولها قلبت الجلسة إلى ضوضاء... بترحابها وسلامها وتقبيلها ومد الأيادي حتى وصلت إلى آدم توقفت أمامه للحظات وهي ترص على يده بقوة واضحة أثناء السلام، شجعته بحرارة دون مقدمات على أن يخطو الخطوة التالية، فسعد للبداية المحسودة غير المتوقعة...

وبعد تعارف وكم من اللقاءات التي حدثت بين رجاء وآدم من خلال الزيارات العائلية لم يرتح لها، هو لم يصرح برأيه هذا لأحد، اكتفى بالابتعاد الذي يجيد طريقته بشكل رائع، بهدوء ووداعة قلَّ نظريهما دون أن يسبب للطرف الآخر أي جرح أو همّ أو حتى شعور بالسؤال وكأن الأمر يسير غاية في الطبيعية، طوى صفحتها، أغلقها ولم يرجع مطلقاً لفتحها، أو تذكرها.

تمت مفاتحتهم بخصوص ابنتهم لمياء ورغبة ابنهم بالزواج منها، قاد الحديث نصير بنفسه وهو يجالس الأب الذي فتح له زجاجات البيرة الباردة الواحدة تلو الأخرى، شاركه الشرب بنهم مسبوق ومشهود ومعترف به والتاريخ يشيد ويشهد له على ذلك... دخلت لمياء غرفتها خجلاً كما هو العرف والتقليد السائد أثناء هكذا جلسات وحديث يدار، رحبت خيرية بسعيد، قالت قولاً محمودًا، أشارت لهم العروس بالقبول بعد أن دخلت عليها أختها الكبيرة فيحاء، هي تعرف جيدًا بأن أختها تميل لسعيد، وتمت الموافقة سريعًا، علت الزغاريد وصدحت في أركان البيت، بدأ الترحيب، علت الضحكات، وزعت كؤوس العصير على الجميع احتفاءً بالمناسبة.

تزوج سعيد من لمياء في حفل خلا من المحتفلين إلا من أفراد أسرتهما وبعض الأصدقاء والجيران الذين دعتهم أم نصير لحضور حفلة زفاف ابنها، السبب كان القدر، شاء أن يجعل في الأسبوع المحدد لحجز القاعة وتحديد يوم حفل الزفاف بعد أن تم توزيع كروت الدعوة بأن يتلقوا خبر موت أحد أقاربهم في الجبهة في نفس الأسبوع الذي حددوا فيه ليلة العرس، فتخلى المقربين عن الحضور ومشاركتهم فرحتهم. انزعجت الأم من حظ ابنها، لكن من ذا يستطيع أن يغير عشر الثانية من زمن القدر لو شاء الأخير وقرر؟ وهكذا احتفلوا وتم الزواج، ذهبت عائلة العروس مع ابنتهم إلى دار سعيد، بقيت الفتاة بصحبة أمها حتى الصباح، العرف عندهم يقول

هذا، الزوج لا يمس زوجته إلا بعد أن يقطع مهرهما شيخهم الديني الكبير وسط حفل ديني خاص، إرهاق ليلة الزفاف شيء لا يحسب على أنه إرهاق، بل متعة وفتنة وشعور طاغٍ بالفرح والبهجة، ثم عند الصباح يذهبون حيث معبدهم المحاذي لنهر دجلة في منطقة القادسية في جانب الكرخ من بغداد، طقوس لم يأتِ الزمن عليها ولم يغيرها، بقيت على حالها منذ حياة النبي يحيى وذلك بنزولهما ماء النهر الجاري وتعميدهما وهما يرتديان ملابس ناصعة البياض كنطف الثلج من قبل رجل الدين الكبير... ورنات الطبل والدف والزغاريد لن تنقطع أثناء تأدية تلك المراسيم.

• • • •

سكن سعيد مع أهله في نفس البيت بعد ان فرّغت له أمه غرفة في الطابق الأرضي وأثثتها بما يتناسب ووضعهم المالي المتواضع. لم تمر إلا أسابيع على زواجه حتى انتقلت عائلة زوجته إلى نفس الحي الذي يسكنونه في منطقة البنوك. من هنا بدأت مأساة جديدة تكبر وتتضخم بمرور الوقت بين العائلتين... فقد كان هناك مجيد وآدم ومروان ونصير، وبالمقابل، سمير رب الأسرة وبناته فيحاء ورجاء، ناهيك عن دريد الذي اصطفى مروان صديقًا له، وضياء الذي قرر أن يختار زوج أخته سعيد ليرافقه في كل داخله وخارجة...

تمتع دريد ابنهم بوسامة ورشاقة رائعة وتخلف عن الدراسة، فشل فيها فشلاً ذريعًا، كان يمضي وقته بالعمل يومًا والتسكع أياما لا شغل له غير العربدة والسكر والمبيت في بيوت الأصدقاء والأقارب كلما سمح له ذلك؛ تجد في جيبه الكثير من الهويات الشخصية غير الأصلية وكل واحدة تختلف عن الأخرى وتجعله مره طالبًا وأخرى تثبت بأنه مدرسًا، والثالثة ضابطًا وهكذا كان يعيش ويتنقل داخل بغداد دون مبالاة أو حساب للعواقب التي يمكن أن تحدث في زمن لا يرحم، يعلو هرم السلطة في العراق كايزر لا يفرق بين ابنه وعدو، بقائه في السلطة متربعًا على قمة الهرم هو كل ما يفكر به ويسعى من أجله، ومع ذلك كان دريدًا هازئًا، ساخرًا بكل شيء ولا يرهبه في الحياة غير الحياة ذاتها!!.

وطأت أقدام دريد ومروان حسب الاتفاق المبرم بينهما إحدى البارات المطلة على نهر دجلة. كان بارًا عتيقًا، تفتح بابه نحو الداخل الهزاز المشقوق من الوسط غير

الطويل، ذا طلاء رمادي غامق متعفر، متشقق ومقشر بسبب العتق والاستعمال وفعل السنين... ما أن يهزه أحدهم بغية الدخول أو الخروج حتى يصرخ مزمجرًا عن صوت كريه عالٍ كأنه يسخط شاتمًا، سابًا على كل من يقربه، وربما يريد به الزمن الأغبر الذي جعله فريسة سهلة لكل من هب ودب من زبائن المحل!... دخلا فإذا الأرض الخشبية تأن من تحتهما عن صوت كأنين المرضى، احتلا ركنًا قصيًا في إحدى أركان المحل، طلبا بيرة من نوع فريدة، كانت بيرة رائعة يضرب بها المثل ويحلف بجودتها الشاربون، طقطق كأسيهما أثناء الشرب وأحدث صخبًا ودريد ما انكف عن سرد مغامراته النسائية الفاضحة الحقيقية والكاذبة بصوتٍ مشروخ ينم عن شهوة متأصلة فاز بها بالوراثة عن أبيه بجدارة... في هذه الأثناء الملبدة بالسكر والمشبعة بالدخان والروائح التي يجهل الشيطان مصدرها أو نوعها نطق وجه شيخ مسن بإيماءات مختلفة متعددة قبل أن ينطق لسانه متلعثمًا، متلكًا كنبرة منْ لسعته الغيرة القاتلة:

- لقد أرهقتنا وأزعجتنا وصدَّعت رؤوسنا بحكاياتك ومغامراتك الجنسية الوهمية يا هذا، شهق ثم تابع مترنح الصوت: عفا الله عنا من مجالستكم يا أرباب الشياطين... قهقهة نفرًا من الجالسين بغير اعتبار، فار دم مروان بسرعة كعادته، حاول النهوض لتأديبه، فمنعة دريد نابرًا:
- اعقل وابق جالسًا أرجوك، وأضاف بنبرة متوسلة:
- أنت لا تعرفه، إنه صاحب الحانة... ثم بحذلقة خائبة كمن يقارن بين الخيبة والبراعة:
- ومن ثم ماذا تريد أن تفعل مع رجل منتهي، زفرته الحياة وهو كما ترى في عداد الموتى إلا لسانه هو الذي يتحرك ويعتبر السكر أهم وألذ من الأكل وكركر لوصفه وتشبيه... شاركه جليسه الضحك بعد أن اقتنع سريعًا بحجج صاحبه وهو تحت تأثير سحر الخمرة اللعينة...

الشيخ الذي نهره مزمجرًا كان معروفًا في أوساط الشاربين ومن زبائن الحانة المخضرمين، يدعى مرزوق. في مقتبل حياته لم يمارس من مهنة غير معاقرة الخمر والنساء، رجل لسانه تبرأ منه منذ زمنٍ طويل، لا ينفك عن القرح والذم والتهريج كبائع متجول... وهو المميز بعلامة فارقة لا يمكن تجاهلها عندما تنظر

إليه، فقد ولد بعين واحدة سليمة يرى العالم من خلالها. منذ وقت طويل لا يعلم قدمهِ دخل شريكًا مع أحد وكلاء توزيع المشروبات الكحولية والمعتمد الرسمي لتوريد بعض الحانات التي تطل على ضفاف نهر دجلة، ولقصر وقت الرجل شاركه مرزوق تجارته في إدارة الحانة، الحق كان يعتبر أحد أفضل زبائنها من ناحية الإسراف في الشرب، فما يحصل عليه يهبه بسخاء على زجاجات العرق والبيرة وما لذ له وطاب... فأتلف ما كان طيبًا ومعافى في جسمه وجيبه... اشترط على شريكه أن يعلق لوحة على واجهة الحانة كتب عليها بفخر "حانة العم مرزوق" بخط يد منحوس، مخربش وبالكاد كان يقرأ؛ أبقى على جدرانها العارية الصماء التي تعكس وحشه خرساء مذبوحة أو مغتصبة، عتيقة الطلاء، بعد أن أبى تجديد دهانها؛ أحضر بعض الطاولات الخشبية المستعملة مع ما يناسبها في القدم من كراسي وظلت الأرض عارية من أي غطاء، سوى الخشب الذي ما أن تطأه الأقدام حتى يصرخ مهتاجًا كأنه ينتفض، يحتج أو يتألم. جعل الحانة محل لعمله ومكان لإقامته وسكنه؛ فلم يكن يغادرها إلا ما ندر وشذ كالحالات التي يحتاج فيها لشراء ما يلزم من أصناف خمور غير التي يوزعها شريكه، أو مزات لإدامة عمله الذي يقول عنه مسل، بائس ولعين في نفس الوقت، خاصة عندما تقوم بعض المناوشات الكلامية وتتطاير في الهواء الكلمات النابية الفاحشة بين جمهور الشاربين عندما يستولى الخمر على ما تبقى من عقولهم التائهة أصلاً... وهو الذي يسقي زبائنه ويشاركهم الشرب، عادة، رغبه، إدمانا، إرضاء ومجاملة في بعض الأحيان، وكلما يستمر بالشرب حتى يزداد ليئًا، انشراحا وتألقًا، فيصبح مزهوًا، معتدًا بنفسه يردد مقولته التي يفتخر بها، نعم، أنا أشرب العرق، لكني لا أسمح للعرق بشربي، لذلك أبقى واعيًا لا يتسرب الخدر إلى خلايا جسدي... ومهما أكثر من شربه ابن الخائبة... لا يصل إلى حدود السكر الحمراء أبدًا.

طلع القمر في بهائه الساطع والحانة من تحته تستحم بضيائه الناصع... تقدم المساء المخترق السكينة بسبب الأصوات العالية والمتداخلة خارج الحانة، واللغط والقهقهات التي تصدر من الداخل بعد أن اكتظت بالشاربين كالعادة بدأت الروائح الزنكة المختلطة بالعرق المتصبب من الأجساد الذي ينضح تحت الآباط بشكل

مفضوح وكريه، ودخان السجائر المتصاعدة تملأ سماء الحانة الداكن، الغائم الكئيب.

في هذه اللحظة دخل أحدهم بتثاقل وهو يغرز نظراته في الجالسين بفضول مبهم، غريب، ثم التفت نحو إحدى زوايا الحانة المقابلة إلى ذلك الباب الذي لا يعجز عن إطلاق الأصوات المتشنجة، المقززة في كل مرة يفتح ويغلق فيها... هناك اتخذ مجلسا من إحدى الطاولات الشاغرة، المحشورة في أحد الأركان حشرًا والقريبة من الطاولة التي يجلس حولها كل من دريد ومروان الغارقين بالشرب الملتهيين بالحديث الفاضح الذي يقرص الحياء... جلس صامتًا يترقب بحذر شديد كأنه بانتظار إشارة من أحد.

كانت ملامح القادم الجديد الذي دخل لتوه مريبة بعض الشيء، رأسه صغير وأنفه حاد، تنطق عيناه بنظرات ثابتة، قصير الشعر، غليظ الشارب وملابسه لا تدل على أنه من الميسورين. عندما طلب خمرًا يحتسيه نبرته كانت نبرة المجنون للعاقل، فجأة، تحير والتمع الدمع في عينيه، لم ينزلق، ظل محبوسًا في الأحداق... رفع الكأس وأخذ رشفه طويلة منه، مسح شاربه الغليظ بقفا كفه، صاح بتجهم:

- ما هذا؟ ثم مجيبًا مشفقًا على تساؤله:
- إنه ماء جهنم وحق الشيطان ومن خلقه... قهقهه كمن يستخف بمأساته، صمت ليبدو وهو جالس كمتشرد نائم على رصيف مقفر...

بعد برهة من ذلك الصمت الأخرس، أفاق على نفسه، رنّ بصوت جميل، عذب وشجي يجلب الانتباه، يصيح بعم مرزوق:

- أرقدش(•) هل لك أن تخبرني عن رحيم أين أجده؟ ألم تره؟ ألم يحضر إلى هنا؟، تابع برجاء حقيقي: أنا بحاجه إليه كثيرًا، لم أعد أطيق الصبر والحياة من دونه... تركني بعد أن تخاصمنا على مبدأ الحياة، هرب... ولا علم لي إلى أين؟!

أجابه عم مرزوق مقتربا منه، حاملاً كأس العرق بيده اليمنى، يركز النظر فيه جانبيًا بسبب عوره، هاتفًا:

(•) أرقدش: كلمة تركية تعني أخي بالعربية

- لطف الله، الرحمة واجب، من أين لي أن أعرف رحيمك هذا يا أخي؟! ومن ثم أنا لم أتشرف بعد بمعرفته، فكيف أستدل عليه؟ ها... السؤال الآن موجه لك، من حقك أن تمتنع عن الإجابة وضحك بتهكم... سحب كرسيًا مقابلاً له وجلس.

ركَّز نظره كأنه ينظر له من ثقب باب، بعد وقفة قصيرة استعاد فيها هدوءه، قال باستياء:

- يا إلهي أمر لا يصدق، كيف لا تعرف رحيم؟ أنا استغرب ذلك كثيرًا.

- ومن يكون؟! بالتأكيد أحد الصعاليك الذين نراهم هنا وهناك يتسكعون في بغداد ليلاً.

مستنكرًا:

- يا رحمة الله، أرجوك، سوس أولان(•) لا تقل مثل هذا الكلام عن رحيم، وواصل متماسكًا: إنه فنان أصيل، أقصد، فنان بالفطرة، مطرب كبير، يتمتع بحنجرة لم تصقلها الدراسة، إنها الموهبة الربانية التي قلما تجدها في شخص آخر، سعل، ثم استطرد مشفقًا على محدثه: خيبت آمالنا أطال الله في عمرك يا.(لم يذكر اسمه)، تابع دون مبالاة:

- كان رحيم مطرب مشهورا له معجبون كثر، صريحًا لا يحب التشوف أو المباهاة، لا يتنازل ولا ينحني، لذلك، ظل بعيدًا عن الأضواء، تلك التي تعرفها... إنك صاحب حانه وتعرف ما أعني، أليس كذلك؟!

رد عليه متحذلقًا بلسان ثقيل بعد أن جرع ما تبقى من كأسه الخامس لهذه الليلة:

- نعم، نعم أعرف كل هذا، قال ذلك مرزوق ثم سأله بتأنيب:

- لكنك لم تقل لي، لماذا هجرك وأنت تقول إنه أعز أصدقائك، وإنه شخص لا يهادن أو يهاب؟!

- هذا هو السؤال الذي أنتظره، ثم باغته:

- جدد لي كأس العرق أولاً... وأنا أقول لك!. بل أنا لم آتِ إلا لأقول وأبحث ولأجد رحيما...

(•) سوس أولان: كلمة تركية تعني اسكت هذا عيب بالعربية

ذهب صاحب الحانة لملء كأسه... سمع صياح جليسه من مكانه الذي تركه فيه برعونة غير متوقعة وبنفس الرنة الهادرة السابقة غير المترددة:

- تلك هي المشكلة، أعني حياتنا التي تشبه حياة الغربة، ثم كواعظ محذرًا:

- الطقوس التي نمارسها دون احترام لذاتنا، لأننا في غربة تشبه غربة المنافي، اختلفت أخلاقنا وانحدرت، كثر كذبنا ورياؤنا، أصبح الزبال منا طبيبًا، كيف، لا نعلم؟! هكذا هي أخلاق الحياة التي نحياها اليوم واستدرك مناورًا رافعًا سبابته عاليًا ملوحًا بها في الهواء:

- هراء، لا تصدق كل ما يقال، توقف عن الخطابة، بادرته نوبة سعال حادة أستسلم لها، في هذه الأثناء حضر عم مرزوق وبيده كأسين ممتلئتين بالعرق، اتخذ مجلسه أمامه، عاود صاحبنا الهتاف والتنديد مسترسلاً:

- إرادتي(أرقدش) اغتالها اليأس، بينما رحيم لم يستسلم فتركني... ثم خفق ناطقًا، أسيقًا: تلك هي المشكلة. أقصد، إننا لم نتفق، فتركني وهو ملاك وأصبحت أنا في نظره، في شريعته وفي قانونه وعرفه نذلاً، نزقًا أعاني الأمرين بعد أن اختلطت عليّ الأشياء وباتت كلها بلونٍ واحد... ما كنت أراه صائبًا أصبح كفرًا، الحمامة التي كانت في حضني سلامًا، تحولت فجأة إلى غراب دون علم مني، ثم ناح:

- كما ترى بنفسك، أجالسك، أسكر معك وكأنني أطلب التوبة على يديك!.

رد عليه بعدم اكتراث وهو يحدق به جانبيًا كالسمكة داقًا كأسه بكأس جليسه نخبًا:

- أنا أتفهم وضعك يا أخي، لكن لا تعذب نفسك هكذا؟ تجمّل بالصبر، الغائب عذره معه كما يقال، لا تيأس. اليأس هو الابن الشرعي للموت أليس كذلك؟!، ثم تابع بحيوية نشطة لا تعود إلى شخص شارب:

- أنا لا أراك إلا ابنًا للحياة، اشرب، أستمتع، تذكر كما يحلو لك، انس إذا أردت، ارقص إن شئت، غن إن أحببت ولكن لا تيأس... ثم دعا كمؤمن راكعًا في جلسة صلاة: قرب الله لقاءك بمن تحب، آمين رب العالمين. قال ذلك وهو يفتح ويغلق عينه اليتيمة بسرعة غريبة نزقة.

- أشكر لك عواطفك الصادقة (أرقدش) ولكن، وهو يتلفت ويزر الآخرين بتلك النظرة الثاقبة المعتادة، ما هذه السهرة غير الماتعة، المعتعتة، الباردة غير الملتهبة التي لا تريد أن تنتهي، ولا أن تجعل من العقل سلطانًا يذوب وهو يعاقر الخمر؟!.

تدخل دريد متخابئًا بعد أن أزعجه النقاش الدائر بين الأعور والرجل الغريب وبصوت مقهور وقح كأنه مخذول من شيءٌ ما:

- ستنتهي وحياة أمك... "ضجت الحانة بموجة ضحك متهتك"، ثم نبر بلؤم:

- لكن بعد أن تجد صاحبك، أقصد رفيق عمرك هذا الذي أصدعت رؤوسنا به من كثر ما رددته على مسامعنا... أفسدت علينا طقوس ليلتنا، أفسد الله عليك لياليك جميعها، كف واعدل عن فكرة البحث، على الأقل الليلة هذه، ثم شارك الآخرين الضحك ها... ها... ها

أجابه الغريب منفعلاً، مغتاظًا وهو يلوح بيده بعد أن التمع ماء النشوة والغضب الزجاجي في عينيه:

- يا عدو الله، أنت يا وجه الشيطان يا سليط اللسان، طائش، أرعن ولا يفرق بين الديك والدجاجة، ثم أضاف: جنوني أفضل من عقلك، غروري أسمى من فعلك، وتفاهتي أجمل من فنونك، ضنفوس(•) لا يعرف نفسه حتى وإن ظل ينظر بالمرآة عامًا كاملاً... ثم بحنق:

- أنتم يا أولاد السحالي، أراكم تشربون الخمر كما تشربون الماء كي تسكرون نشدًا في النسيان، وهذا يخالف وجهتي في الشرب تمامًا، أنا أشرب كي أتذكر "ورجت الحانة بالضحك الصاخب من جديد".

جاءه صوت قبيح من إحدى الزوايا التي لم يتعرف عليها:

- سلام يا نسيان، أنت قواد وابن قحبة، والكل هنا يشهد...

- مرحبًا شهود، سكتر(•)، ثم عقب: تقصد هؤلاء السكارى شهود؟! ما شفاك الله من ورطتك اللعينة هذه إذن، تابع صاهلاً:

- أنت يا مسلول... يا صلّ... يا جسم فانٍ، الموت سيكون نهايتك السعيدة بإذن الله، ثم همس في أذن جليسه مرزوق الذي التهى مكتفيًا بالشرب والتحديق: أنا أرعن وأستحق كل هذا العذاب أتعلم ذلك؟! ثم سكت كراهب بوذي يتعمد في وحدته.

أجابه صاحب الحانة مستدرجًا، متملقًا، متظاهرًا بالعفو ومصطنعًا الكلمة والغفران:

(•) ضنفوس: كلمة تركية تعني خنزير بالعربية

(•) سكتر: كلمة تركية فاحشة

- التاريخ يعيد نفسه، صالوما الداهية هي التي أدت بيوحنا إلى التهلكة، الزمن عبرة والماضي لا فائدة منه، ورحيمك هذا لن يظهر بسهولة خلافًا لما توقعت، لذلك أقول:

- لا تتألم، اترك الأمر لصاحب الأمر... أخذ جرعة من كأسه، تابع بحماس متذبذب:

- يا حفيظ، جرّب أن تصدقني، أو على الأقل أن تأخذ بنصيحتي: الحزن كالابتسامة لا يمكن وصفهما بسهولة، أعني، ليس بالشيء الهين أن ترسم الحزن أو الابتسامة على الوجوه حتى وإن كنت رسامًا بارعًا، لذلك، أراك تتعذب أمامي وتسكر، الذكرى هنا زمن فائت كما قلت، غير موجود، ونحن هنا لا نتعامل مع الأشباح إلا عندما نسكر!.

رفع صاحبنا رأسه، صوب نظراته التي لا تخطئ كالسهم الموثوق منه، حرك لسانه وماج:

- جبر الله بخاطرك (أرقدش) فما تقوله صحيح، ولكن... كيف أشرح لك؟ أقصد، حياتنا التي تشبه حياة المنافي في جدال مع التناقض، الأخلاق هي محور الحوار، والشخص الغريب في غربتنا، معذرةً، أعني في حياتنا هو الخائن الخسران، إننا لا نعيش هنا على سجيتنا، بل نتصنع، نموه ونميل إلى الخداع والتشويه والتحريف، ناهيك عن قسوة ومعاناة البعد والتشرد النفسي والروحي الذي نعانيه، لذلك أقول، منطق حياتنا الغريبة هذه في جدال أو صراع مع التناقض!، ثم طفق صائحًا بحنجرته العريضة الواسعة:

- أتفهم ما أقول؟! الدموع كانت قد غزت عينيه بسخاء لا حدود له فجأة، ودون إرادة منه راح يدندن بنغم شجي، مؤثر رائع، حميم أبهر الجالسين:

"حتى لو يجرحني حجيك بالفؤاد... وحتى لو وشحني حبك بالسواد... وحتى لو ذاك الوفه وياك ما فاد... أظل اشتاق إلك مثل العراقي الشوف بغداد(•)".

جرع ما كان باقيًا من كأسه في جوفه دفعة واحدة، ناح متألمًا بصدق: رحيم. أين أنت الآن؟! أين؟ صديقك مازال يسكر وفي مكانه يدور... وظل يدندن بذات الصوت الحزين العذب.

(•) مقطع من قصيدة ، للشاعر العراقي قيس كامل جودة السهيلي

في هذه الأثناء دخل زبون جديد إلى الحانة... زعق الباب الهزاز باستهتار صارخ بأن أحدهم شقها من الوسط... نظر إلى الجالسين وهو يعاين المكان كأنه ينوي شراءه حتى عثر على صاحبنا الباكي، الشاكي الذي كان غارقًا بالغناء... صرخ به فرحًا غير مصدق:

- منْ هناك... سلطان الطرب؟! أخيرًا وجدتك يا رحيم يا فنان، يا ملهم، يا أصيل... توقف لحظه، بلع ريقه، لوح بيده كأنه يرحب بالجالسين شرع هاتفًا بخبل: يا رجل لقد أتعبتنا... فمنذ الصباح ونحن نبحث عنك في كل مكان... اقترب منه وهو يدعوه ملهوجًا مبتسمًا:

- هيا انهض معي ولا تجعلنا نتأخر أكثر، الفرقة الموسيقية تنتظرك والمدعوون كذلك، وأنت هنا!، ثم استدرك: لا حول الله يا رب، ماذا أقول ولمن أشتكي؟!

توقف رحيم عن الغناء، اعتصم بالصمت ولاذ به كأنما يمثل طبع الحجر الذي لا يعرف الشعور أو التأثر، يحدق بالقادم في حال شبه غائب عن الوعي بسبب كثرة الكؤوس التي جرعها وهو يشعر بالذل والخيبة والهوان ومن عدم الانتماء؛... الانتماء علاج لكثير من الأمراض في غربته الروحية النفسية القسرية التي لا تريد أن تحييه أو تميته، هذا ما كان ينقصه، فمرض بعد أن تخلى ضميره الحي، الناطق الصادق عنه وهو في أمس الحاجة لنقد الذات في سويعاته المقهورة الحزينة تلك.

انضم لمروان ودريد صديقهما عدنان، وصل متأخرًا، شاركهما الشرب، استمرت جلستهم في الحانة حتى لعبت في رؤوسهم الأحلام كما الأوهام، الساعة قاربت الحادية عشرة والنصف، طلب مروان ورقة الحساب وأقسم بأن يدفع حق ماشربوه. دريد لم يعترض ولم ينطق بكلمة مجاملة، جعله يدفع كأن مروان مجبر ولابد له أن يفعل ذلك؟، عدنان رفض عرض مروان، أصرّ على أن يدفع حق شربه وفعل.

في الطريق بدت البيوت متدثرة بالظلام والأحياء مقفرة كعادتها في ساعة كهذه أثناء الحرب التي كانت نارها مشتعلة بين العراق وجارتها إيران. بانت الأحياء كمقابر فرعونية نساها الزمن. أثناء ذلك فكر دريد بمكر وجيبه خاليًا بأن يوصل مروان إلى بيته بعد أن عدّ وخطط لشيء وجده لذيذًا، يجعله يعيش الأسابيع القادمة في نعيم دائم، هو يعرف كل مداخل ومخارج بيت صديقه وما تحتويه دواليبهم ورفوفهم، خاصة وأن مروان بدأ يترنح في مشيته وصوته بدأ ينخفض تحت تأثير وطأة الخمر

والجهد والنعاس... ودعهما عدنان مترنحًا، استغل دريد الظرف وغياب أهل الدار... دخلا البيت، خلع له ملابسه بصعوبة، ألبسه بيجاما النوم، ساعده في ارتقاء سلمات الدرج النافذ للسطح حيث ينامون، أرقده على سريره، ثم ودعه.

• • • •

غاص مروان بالنوم المصحوب بالشخير سريعًا، دريد لم يغادر بيتهم كما أدعى، بل ذهب يبحث عن أشياء ثمينة هو بأمس الحاجة لها، دخل غرفة نصير، فتح دولاب ملابسه، أخرج علبه أسطوانية معدنية لا يتعدى طولها ثلاثين سنتمرًا كانت علبة من علب حليب الأطفال المجفف، حُوّلت إلى قاصة بعد أن نفد ما في داخلها، من ماركة "نيدو "المشهورة من الحجم الكبير. كان يعلم علم اليقين بوجودها وبمحتوياتها، دسها بثقلها المرعب في عبه، أغلق باب الدار من وراءه متسللاً نحو دارهم التي تقع غير بعيد عن مكان جريمته.

(٦)

الحفلة التي دعوا إليها عائلة نصير وأهله كانت موجهة من قبل ابن عمه الذي يدعى جليل، يعتبر الأخير من أفضل أصدقاء نصير، المحسوب على شلة عاصم السكير المغضوب عليه الذي تخافه الشياطين زوج سمر الأخت الأكبر لأنْهُر، وصديق طفولتهما وشبابهما بالإضافة إلى إنه زميل مغامراتهما ومقامراتهما التي لا تنتهي...

إذا آمنا بوجود الشياطين على الأرض فعاصم أرذلهم. رجلاً أخرق أمرد وصوته يُسمع ما بين المرأة والصبي، غير متزن لا في سلوكه ولا في كلامه والخبث يطل من أعماق عينيه. فقيرًا، معدمًا، وحاذقًا في الكذب والنصب والاحتيال، متلذذًا طوال حياته بالمسكرات والمدمرات بأنواعها المحلية البائسة الصنع والرخيصة، يا الله... أي سمات اتسم بها مولانا ابن الخائبة هذا، لا غفر الله له؛ كان مهرجانًا من الصخب لا ينقطع... أخزاه الشيطان، موهوبًا بالمجون والجنون. ولد في بغداد من أسرة كبيرة على رأس سبعة أخوة توازي في عددها قبيلة، له وجه، سبحان الله من الصعب على المرء أن يجازف وينظر له. استقر على رأسه الكبير ذاك كتله ضخمة من الشعر غير معتن به، خدين منتفخين غير موردين، تحيطان بعينيه المدورتين هالة داكنة كأنها دهنت بالسخام، وكلما سمن وجه كلما ازدادت عتمة، رفيع العود رغم ضخامة رأسه، سبحان مصور الأحوال، كيف يستطيع أن يجعل عقل نملة في إنسان، لا تجد أثر لشعره واحدة في جلده، أملس كجلد الحية، مخيف كالفراغ في الليل، يعرج من ساقه اليسرى إثر دخول مسمار في قدمه عندما كان طفلاً، لم يبرأ منه، يجيد الغناء حينما يكون ثملاً، وما أن يريد المزاح حتى يبدأ بالأهازيج الساخرة المليئة بالشتائم التي تنتهي بإصرار وبشكل خبيث بكلمات بذيئة يعرق جبين المرء لدى سماعها يعتبرها ملح الحديث والدعابة، خاصة عندما ينهي جولاته الخطابية، الغنائية وصوته يكون قد بح لكثرة ما قدمه، بعدها يمج معطيًا أوامره بلا خجل زاعقًا كصاحب مزاج محترف:

- هش ش ش ش!... وعلى وزنها يضيف بنشوة أقرب إلى السكر:

- كش ش ش ش!... ثم يدعو بطريقة غريبة، مريبة بصوت هج يشبه صوت الشهيق:

- إلهي، هب لي عقلا كعقل الرحمن، واجعل لحمي كلحم الضان، مرغوبًا ومطلوبا... ثم يسكت كأنه قد قال كل ما حفظه وينام، يبقى في جلسته لا يبارحها، يتدلي رأسه على صدره كالمصلوب وشعرات رأسه تميل كيفما أتفق على كتفه، والويل كل الويل من يوقظه في تلك الساعة التي ينام فيها مخدرًا كالميت. ترعرع الذي الجن نفسه لن ترتاب منه كشيطان أجرب في فاقة وعوز كبيرين، فتعلم منذ الصغر عادات سيئة كبرت معه كوزنه، أكثرها شناعة، جمع المال بطرق غير مشروعة. كان في بداية الخمسين ويبدو في السبعين، لم يسكن ابن المقرودة يومًا في دار يملكها، بقي مستأجرًا متنقلاً من شقة إلى أخرى، ومن حي إلى أخر، ومن غرفة فوق السطوح إلى غرفة تحت الأرض وهكذا ظل يجر عائلته وراءه كظله في كل تنقلاته المكوكية التي لا تريد أن تنتهي؛ فسبب لولديه رند ورامون إحباطًا وتأخرًا في الدراسة بشكل مروع، فاضطر ابنه البكر من ترك المدرسة مبكرًا وهو لا يبالي ولا ينتكس، وكل مرة يزداد همة في الاستدانة من الناس الجدد الذين يتعرف عليهم، كي يسدد دينًا قديمًا لدائن يهدده بالشكوى وربما إيداعه السجن، هكذا بقي يستدين من هذا ليعطي ذاك دون أن يعجز أو يملّ أو يستحي... يعمل سائقًا في الجيش على شاحنة ينقل بها معدات الحرب المدمرة التي يموت بسببها الشباب. زوجته سمر تدير متجرًا صغيرًا تبيع فيه الخضار والفاكهة في منطقة شعبية جنوب بغداد.

لم يوفق عم نصير الذي يدعى هاشم من أن ينجب غير جليل وأخيه خليل وبنت واحدة اسمها سناء. اختلفت طبائع وميول الثلاثة بشكل مثير. فبالرغم من ميول الابن البكر نحو المجون والاستهتار ظل صاحب واجب، يعرف بالأصول ويساهم بشكل فعال في مساعدة أهله وأقربائه وأبناء طائفته كلما سنحت له الفرصة عكس أخيه خليل الذي ظل بليدًا، متقاعسًا لا يحب العمل، أصيب بشظية أثناء الحرب قطعت ثلاثة من أصابع يده اليسرى، فزاده عوقه همه، أرتكن للراحة واعتبر من المتقاعدين رغم صغر سنه، أهداه الكايزر سيارة تويوتا من نوع "كرونه" خاصة لمعوقي الحرب وقتذاك، ثم توقفت تلك المنح بعد أن شعر الكايزر بأن حربه ستدوم

طويلاً وخسائرها كبيرة مثل ضحاياها البشرية فأمر بتوقيفها، استغل خليل سيارته التي حصل عليها لقاء فقدانه ثلاثة أصابع من يده فقط أشنع استغلال، حطمها خلال وقت قياسي لم تتجاوز بضعة شهور بعدد أصابع يديه السليمة المتبقية، أجبر بعدها على أن يعمل بالمجال الذي يحبه فاختار التمثيل بمسرح خاص للمعوقين وأصحاب الإعاقة الخاصة ولم يبدع حتى في هذا المجال الذي يعتقد بأنه الأنسب له والأقرب إلى قلبه وخاب ظنه!... بعدها تفقد وضعه، جَرده، فوجد نفسه اتعس خلق الله، زاده إحساسه المرير بالتعاسة نفورًا من الناس وأتى على ما كان سليمًا معافى من نفسه وروحه. بينما كانت أختهما أفضل حظًا منهما في الجمال والدراسة، حيث وُفقت كثيرًا في دراستها، دخلت الهندسة المعمارية لكنها اشتهرت بإنفراديتها، وحدتها وحبسها لنفسها أيام بلياليها دون سبب واضح، مما جعل أهلها يخافون عليها الوحشة التي تسكنها وقد تؤدي بها إلى الجنون... تعودت في الآونة الأخيرة على الإكثار من الأكل، فساء جسمها وتلبد بالشحم وترهل بالسمنة... لكنها والحقيقة تقال، كانت إنسانة طيبة القلب، حسنة الأخلاق كجمالها، محبة لدينها وناسها، تحب الله وتخلص له من أعماقها، فتفقدها الله لهذا السبب أو لغيره بحكمه لا نقدر على فهمها عندما أرسل لها خطيبًا من دينها، ارتاحت له فجأة وكأنها منذ دهور تبحث عنه، وها هي تحتفل اليوم بليلة زفافها وسط الأهل والصحب والأحباب...

ما أن دعي نصير من صديقه وزميل مغامراته ابن عمه جليل بمناسبة حفل زواج أخته حتى طار عقله، سعى إليها بكل ما يملك من حواس ملتهبة ومشاعر فياضة ملأتها أحلام رائعة سيحققها ويجعلها واقعًا بلا ريب أثناء الحفل من حيث الشرب المفرط والرقص المشترك المغرم به من هوسات الجوبي(•) فصمم أن يكونوا أول الداخلين للقاعة لحجز أفضل مائدة قريبة من المسرح، يواجهون فيها بجلستهم العروس وعريسها.

أول المستقبلين لهم كان عمهم هاشم، ذلك العملاق الأبيض السمين البشوش ذو القلب الرحيم الذي يتدهدر بمشيته كالكرة كلما تحرك، بلبسه الريفي المحبب، أدمن

(•) هوسات الجوبي: رقص فلكلوري عراقي معروف كالدبكات

الشرب مبكرًا ويعتبره أفضل من الأكل، عكس المرحوم أخيه فاضل والد نصير الذي كان اسمًا على مسمى، رجل فاضل، كريم، متدين ومؤمن، طويل عريض كرياضي، تجلس أمام عينيه نظارة طبية إطاراتها سوداء، لحية فضية أضافت لهيئته وقارًا على ما يحمله شخصه من وقار، لم يفته في حياته فرض ديني لم يتمه كما الطقوس التي كان يسعد بأدائها، وطقوس دينه لم تكن بالشيء الهين أو اليسير عند ممارستها، كان يفعلها رغم ذلك كلها بحذافيرها، وأولها، شربه من ماء النهر الجاري الذي يكلفه الجهد والعناء لجلبه... عاش فاضل ومات في بحبوبه مقتنعًا بما لديه وما في حوزته، مات مبكرًا بسبب تصلب شرايينه نتيجة التدخين من جهة وبسبب قهره لزواج ابنته من رجل ليس من دينهم، وبهذا تكون قد خرجت من ملتهم دون رجعة، وفضيحة كهذه كانت كافية لقتله، تقيأ دمًا عندما كان جالسًا على سريره يتوسط ابنه نصير وجليل ابن أخيه وزوجته بعد أسبوع من هروب ابنته وزواجها بمن أحبت دون علمهم... مات الرجل غمًا وقهرًا وهو مازال في منتصف العقد الخامس.

الملفت للنظر في حياة الأبناء في العراق عامة وأبناء طائفتهم خاصة كانت تختلف عن حياة آباءهم المتقدمين بالسن وأجدادهم في ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم كثيرًا، فقد عرفت حياة الآباء بالإباء، والأجداد بالجد والحرص والمحافظة على الميول والأصول والأعراف، بالإيمان الحقيقي بالأشياء وأولها الدين وحبهم للخالق دون مصالح أو منافع يبتغونها منه، تمامًا كجد أنْهُر وفضائله وفاضل أبا آدم وحسن أخلاقه وتدينه، يطلقون عليه لقب "الحلالي" في عرف طائفتهم ودينهم... التي تعني الشخص المتدين الذي يعرف الحلال ويميزه بالقلب قبل العين عن الحرام. في حين ظهرت السطحية مع بداية ثمانينات ذلك القرن وما تلاها في حياة الأبناء بشكل واضح إلا ما ندر منهم وشذ، إذ نراهم لا يعرفون عن دينهم الكثير، إيمانهم متذبذب ينقصه الصدق الخالي من الأنانية وحب الذات، وإذا أرادوا أن يبتعدوا عن التهريج الذي يمارسونه في حياتهم بشكل يومي ويخطئوا أو يسهوا ليصلوا، ينتظرون لقاءً من ربهم يعوضهم عما يفعلون، لسانهم ينطق وقلوبهم تأبى التصديق وهم عن ربهم غافلون، كمن يريد السبيلين، الدنيا والآخرة في آنٍ. المال رغم توفره يبقون فقراء الأرواح، حياة آبائهم وأجدادهم رغم فقرها أغنياء النفوس، الشهامة كانت تنبض

فيهم مع ضربات قلوبهم المحبة للحياة الصافية البسيطة الجميلة البعيدة عن الجشع والتسلط والقهر والاستبداد، ترى ما الذي حصل؟ لماذا تغير الإنسان العراقي بهذه السرعة؟! وهل لسياسة البلد دورًا في هذا؟! صدق من قال، الذين خجلوا ماتوا. شلة نصير كانت من النوع الأخير، تلك التي تضم عاصم وجليل مضافًا لهم نسبيهم سمير وحفنة من فصيلة البشر ممن على شاكلتهم لا يذكرون بالخير أو الطيبة.

بالفعل تحقق لنصير ما أراد ، ما كان يصبو إليه من متعة ولذة وانشراح، لم ينقص أفراد عائلة أم نصير الفرح والانسجام، خاصة آدم الذي أندمج ظاهرًا فقط مع إحداهن وراقصها دون سابق معرفة بها، وبعد حديثه المقتضب أثناء الرقص تبين له إنها من أقرباء زوجة جليل ابن عمه، سعد باللقاء رغم براءته، لكن داخله كان يحتضر رغبة وشوق لا يقدر على وصفه بالكلمات لأنْهُر ومدى حاجته لها في مثل هذه الأوقات البهيجة التي تعتبر نادرة في زمنهم وقت الحرب اللعينة التي لا يريد مشعلوها أن تنتهي... وهنا تدخلت ابنة أخته التي تدعى وسن وتلقب بالفقمة لسمنتها وبشرتها الزيتية البيضاء الممتلئة بالشحوم تلك التي كانت تعيش في بيت جدها باستمرار بعد أن عذبها وأراها الويل بتصرفاته الشنيعة البشعة غير المبررة أبوها حسام شقيق عاصم الذي لا يختلف عن الأخير إلا في الاسم... وهي تقرصه مبتسمة هامسة:

- أراك مرتاحًا على الأخر؟ سأشي بك لأنْهُر، ألا تخاف من سوء العاقبة؟

كما ينذر البرق بقعقعة الرعد:

- حتى هنا؟ إلا تعطي لنفسك راحة؟ ما هذا الخبث النزق الذي يتلبسك دائمًا؟ ثم أردف: اتقِ الله!، قال ذلك وهو يسير راجعًا إلى الطاولة التي يجلسون ويلتفون حولها بخطى وئيدة بطيئة كخطى الأسير.

لم يختلف نصير عن أصدقاء السوء أمثال عاصم وجليل إلا قليلاً، فقد كان مدمنا مثلهما، لا يفارقه الشرب ككلام زوجته، تلك يحبها بجنون ويخونها في نفس الوقت!، عندما تسأله لماذا؟ يجيبك دون خجل: - هذا شيء وذاك شئ آخر!... زوجته تعرف وتغض الطرف، تقول:

- هو الرجل، يفعل ما يشاء ما دام لم يقصر مع بيته وأولاده!! لو حدث الأمر ذاته مع أنْهُر لاختلفت النتائج كثيرًا، قد لا يتصور من لا يعرفها ماذا تعني الخيانة

لها... عليك أولاً أن تجز رقبتها ومن بعد تخونها، هكذا هي مثل صفحة الماء الرقراقة، كوجه المرآة المصقولة، ترى الأشياء فيها على طبيعتها.

مر بهم الزمن سريعًا، الزمن لا يرحم، عقاربه لن ترجع إلى الوراء، دائم التقدم غير مبالي بما أمامه، في السعادة يكون قصيرًا ويحسب بالثواني، نسوا أنفسهم في غمرة نشوتهم، انتصف الليل دون أن يعوا، وفي لحظة شاردة تذكرت أم نصير ابنها المرحوم سعيد، بالله... قالت بنكهة حارقة وهي تخاطب نفسها "لِم اختفيت وطواك الموت تحت جناحية هكذا بسرعة وأنت مازلت في عمر الزهور؟ يا ريتك الآن معنا، تشاطرهم الرقص وتتحدث مع ولديك وزوجتك وتسامرني وتحاول أن تقرصني أو تلكزني من خاصرتي بغية إضحاكي كما كنت تفعل دائمًا معي"... انتبه لها آدم فجأة وهي سارحة في آفاق بعيدة لا تمت لطقوس الحفل بشيء، اقترب منها هامسًا:

- لا تعودي بالزمن إلى الوراء، الماضي لن يعود، انظري إلى الغد، وهو يمازحها جادًا: الساعة تجاوزت الثانية عشر بعد منتصف الليل، إذن هو الغد، فكري بمروان الذي لا نعرف لماذا لم يأت معنا؟ ترى أين يكون هو الآن؟

ارتعبت الأم عندما تذكرت ولدها مروان؟ فزت من مكانها كالملدوغة وهي تدعو الجميع المغادرة... لم يرفضوا طلبها، الوقت تأخر بالفعل، مازالوا يحتاجون إلى أكثر من ثلاثة أرباع الساعة كي يصلوا محل سكناهم في الرصافة، نصير ترنح من السكر، رفض إعطاء مفاتيح سيارته الكروان الزرقاء النظيفة الجميلة إلى مجيد كي يقودها بدلاً عنه، يقول كما في كل مرة وهو يهتز من السكر كلهب المشعل:

- أنا لست سكرانًا، أستطيع أن أقود سيارتي بلا أدنى مشكلة!، ثم ردد ببطء قاتل دليل عدم التوازن: يمكنني أن أشرب المحيط الآن دون أن أكترث... صدقوني، لماذا لا تريدون أن تصدقوا؟ قال ذلك وهو يدعو زوجته وأولاده إلى الصعود بالسيارة، اقترب منه آدم، بحزم تخلله الرجاء:

- اترك أمر القيادة لنا، ما هي إلا دقائق وسنكون في البيت... والتقط من بين يديه المرتجفتين المفاتيح التي كانت تطقطق لكثرتها والمحبوسة في حلقة حديدية ملئها الصدأ لقدمها التي احتوت على مفاتيح البيت كذلك... قاد مجيد سيارة أخيه، وتولى آدم قيادة سيارة مجيد الخضراء من نوع تويوتا كرونا موديل ١٩٨١ التي

اشتراها من حر ماله من تجارته المربحة بالمصوغات الذهبية التي يمارسها في متجر العائلة في أسواق الرباط القريبة من محل سكناهم...

قبل أن ينطلقوا اكتشف آدم بأن إطار السيارة الأمامي كان مختفيًا، استعيض عنه بحجر كبير جلس عليه طرف مقدمة السيارة من اليسار، ترجل نصير يزفر ويكفر، زعق حانقًا بصوت مجلجل كصوت جوقة إرهاب تعزف لحن الرعب:

- ما هذا الحظ التعيس، اللعين الذي يلاحقني؟! ثم تابع بلسان سكران ملتوي مخاطبًا آدم الذي أصبح أقرب منه إلى الآخرين الذين ترجلوا لمشاهدة ما حصل لسيارتهم:
- انظر يا حكيم الأسرة، هناك من سرق إطار سيارتي دون مروءة، لم يسأل نفسه ابن السائبة ماذا تفعل عائلة في وقت كهذا مع سيارة بإطارات ثلاثة باقية؟

أجابه آدم بحكمة مقللاً بها الحدة التي رآها تنفجر من فم أخيه:

- دعني أرى أولاً إن كانت مفاتيح الإطار موجودة، فبدونها يمكن أن نلاقي صعوبة كما تقول، وفي هذه الأثناء كان قد انحنى تحت السيارة يبحث عن مفاتيح الإطار المسروق، وجد ما كان يبحث عنه، صاح:
- لا تقل عليه ابن سائبة، لقد سرقنا وعطف علينا، ها هي مفاتيح الإطار في يدي... لم تمض إلا دقائق حتى كانوا قد ركّبوا بدل الإطار المسروق الاحتياطي بمساعده أخيهم مجيد. غادروا مكان الحفل، رجعوا قافلين إلى دارهم يدفعهم النعاس للاستلقاء على السرير سريعًا دون تأخير ونصير في الطريق ما انقطع من الغناء وأصابعه مشغولة بطقها محدثة أصوات ودندنة يعرفها العراقيين تساعده على مواصلة طربه وهو يطنطن:

وياك أروحن حبيبي وياك أروح... ما أكَدر على فركَتك وياك أروح... وياك عيني خذني... لا تروح وتعذبني... ما أكَدر على فركَتك... وياك أروح(•).

(•) شرح مقطع الأغنية: أذهب معك حبيبي. لا أستطيع فراقك. معك أذهب. لا تذهب وتعذبني. لا أستطيع فراقك. أذهب معك

(٧)

من ينكر أن الدمعة لمعة في المقلة عندما تأبى أن تنساح أو تنحدر .

التغير ، أي تغير لا يحدث في لحظة ، بل يحتاج إلى صبر ، صبر طويل أحيانًا كصبر أيوب .

لم تلحظ أم نصير عندما فتحت باب الدار الداخلي الخشبي الواسع الثقيل بالمفتاح بأنه لم يكن مقفولاً أصلاً... كان طراز الباب رائعًا، نقش بنقشات شامية ذات ذوق جميل كتلك الموجودة على آلة العود الشرقية. بني البيت في منتصف الستينات واشترته عائلة أم نصير بقيادة ابنها سعيد قبل رحيله المفاجئ بثمانية سنوات من كابتن طيار أراد هجرة العراق بعد أن يصفي أموره ومتعلقاته فبدأ ببيع بيته الذي يقع وسط زحمة من البيوت المتراصة متواضعة النسق، امتاز لون طلائه الذي يشبه لون غروب الشمس قبل رحيلها المقرر المعهود، بسياج لا يتعدى ارتفاعه عن المتر ونصف، محاط واجهته الأمامية بنباتات متعددة الأنواع، متشابكة الأغصان غير معتنى بها، ذات بوابة كبيرة من الحديد تفتح للداخل، ممر عريض على يمينه تسلقت أغصان العنب بجدارة على حافات خشبية غير مطلية بلون فغطت الممر بأكمله كالمظلة، خلفها امتدت الحديقة وما يميزها عن غيرها نبات الرازقي المعروف برائحته الليلية الزكية وتكية كبيرة معمرة في أقصى يمين الحديقة القريبة من الجيران... يتدلى التكي منها كعناقيد العنب الأحمر الناضج، ثم يأتيك الباب الخشبي الثقيل الذي فتحته أم نصير دون أن تأخذ بالها بأنه لم يكن مقفولاً، ممر ضيق يجلس فيه جهاز الهاتف الأزرق الجميل ذات السلك الطويل على كوميدي خشبي بمرآة مصقولة بعناية، ثم غرفة الضيوف الباردة أبدًا على اليمين، يفصلها عن غرفة جلوس العائلة التي تستخدم لنوم أم نصير أيضًا باب خشبي تعتبر أجمل ما في البيت، حليبية اللون تلمع، ينتشر الزجاج الملون في وسطها بدقة كزجاج شبابيك الكنائس، تطبق لو فتحت وتصبح قطعة واحدة صغيرة، أو أن تغلق فتظهر كلوحة زاهية تشع ضوءًا أرجوانيًا ساحرًا، ثم غرفة سعيد إلى اليسار، يفصلها عن

المطبخ ممر شبه أظلم وما بين المطبخ والغرفة التي تضم سعيد وزوجته لمياء حمام ومرافق صحية، عندها ينتهي الطابق الأرضي ثم يليه الأول الذي بني بعد شرائهم للبيت بسنة، أضافوا غرفتين وعمروا السطح الذي يعتبر غرفة نومهم المكشوفة جميعًا في الصيف... خلف البيت وما يفصله عن الجيران ممر ضيق كالأمعاء استغله آدم عندما كان يتمتع بمراهقته لمغازلة بنت الجيران والحديث معها بشتى المواضيع، فقد كانت نداء التي تصغره بسنتين تتسلق على شيء لم يعرف آدم ماهيته مطلقًا ولم يسألها يومًا... يخرج رأسها الجميل الصغير كرأس العصفورة واضحًا جليًا يعلوا سياج البيت الفاصل بينهما ويبدأن بالحديث الذي لا ينقطع... يبدأ بالدراسة والامتحانات وما شابه ثم يتطور حماسهم فيذهب بعيدًا حيث المشاعر وكلمات الغزل وكل ما يجعل الروح تتسامى وتصعد إلى عنان السماء وهما مازالا بوقفتهما الأرضية البريئة الطفولية... حتى تطور ما بينهما يومًا فضربا موعدًا للقاء خارج أسوار بيتهما، ولم يحدث في اللقاء أكثر مما كان يحدث بينهما وهما يتباحثان ويتجاذبان أطراف الحديث خلف بيتهما وسط ذلك الممر الضيق الذي يشبه الأمعاء... بقي هذا المنظر يتكرر يوميًا كل عصر تقريبًا حتى عقل آدم وامتنع عن تلك العادة المسلية!...

دخلوا مجهدين تباعًا وهم في أمس الحاجة للنوم بعد سهرة طويلة استهلكت منهم جلّ طاقتهم. دقائق قليلة حتى دوي صوت مقبولة زوجة نصير عاليًا كالعواء وهي تبكي وتلطم خدودها وتردد:

- لقد سرقنا!، ثم تابعت وهي مازالت في غرفتها بالطابق الأول بلبكة لم يفهم منها غير أن هناك من دخل حجرتهم وفتح خزانة ملابسهم وسرقهم.

فزعت العائلة من جراء صوتها الملعلع الذي أرهبهم وأوقظ فيهم النشاط المكهرب بالخوف... أمحى فيهم ملامح المرح والغبطة والسعادة والرغبة بالاستلقاء والنوم وما تعلق بأذهانهم وذاكرتهم، سرت بدلاً عن كل ذلك الحركة والارتجاف وفقدان التوازن وهز الركب... توجهوا إلى الغرفة التي خرج منها العواء كيفما أتفق بعيون زائغة لا يعرفون تمامًا ما قد سرق منهم، ارتفع اللغط، سادت الضوضاء المكان وعج بهم...

مقبولة لم تنقطع عن لطم خدودها، كانت مشهورة بحبها للمال، ضياع مثل تلك الثروة التي كانت قد بدأت بتجميعها منذ سنوات لا تقدر بعناء أو عواء، المهم كانت تدعو الله بصدق أن يخلصها من هذا العذاب الذي جعلها فيه بسرعة، بل أسرع من فترة ظهور البرق واختفائه... نهرها زوجها عابسًا بعد أن طارت الخمرة من رأسه التي جرع منها بلا إنصاف وقت الحفل:

- إذا لم تسكتِ سأجعلك تصمتين إلى الأبد!، صراخكِ سوف لن ينفعنا بشيء ولا يرجع لنا ما سرق منا، لذلك يجب أن تهدئي كي نفكر بروية... قال ذلك وهو يلوب متنقلاً في الغرفة من ركن إلى ركن كمحكوم بالإعدام وهو ينتظر التنفيذ صباحًا... فجأة ووسط الضجة غير المتوقعة والارتباك تذكرت الأم ابنها مروان، ناحت عائطة:
- ماذا عن مروان؟ لقد نسيناه وسط هذا الرعب وهول المفاجئة... تدخل آدم مستدركًا:
- لابد وأنه نائمًا في السطح بعد سكرة عميقة هدت حيله ولن يصحو منها إلا عند النهار المتأخر... تركهم وذهب يتفقد أخاه.

التحقت بآدم العائلة كلها، سورت سرير مروان وهو نائم وشخيره يعلوا أصواتهم، حاول آدم أن يوقظه:

- مروان... مروان انهض، هناك سرقة حدثت، أرجوك استيقظ، ربما تعرف شيئًا أو تخبرنا بما رأيته أو سمعته... وأعاد عليه توسلاته وكرر نداءه بعد أن رفع درجة صوته:
- مروان... هل تسمعني؟ هزه بلطف ثم بقوة، مروان لا يبدي أي تجاوب، غارق في النوم وشخيره لم ينقطع، تقدمت منه أمه وهي تمسح عرقه عن جبينه وتقول:
- حبيبي مروان استيقظ، لابد من مساعدتنا، متى رجعت؟ بصحبة منْ؟ هل كان هناك شخص غريب سهر معك وأوصلك ودخل الدار؟ أرجوك استيقظ... لكنه لم يبدِ أي إشارة على أنه كان واعيًا على نفسه أو سيصحو من نومه، تركوه بعد أن فقد نصير أعصابه وهو ينظر لهم متأففًا يصفق يد بيد دلالة الخيبة... حتى همست بهم وسن ابنة أختهم نابصة:

- عرفت منه قبل أن نذهب إلى الحفل بأنه سيكون بصحبة دريد وعدنان ابن جارنا، لماذا لا نذهب إليهما ونسألهما؟

صاحت مقبولة بخبل ينم عن يأس:

- ماذا ننتظر؟!

نهرها زوجها مغمغمًا بشيء من الإشفاق كمن يستعيذ بالله:

- ما أحوج الإنسان إلى الرحمة في ظروف مثل هذه، تابع:

- قلت لكِ اهدأي، لابد لنا من أن نتصرف بحكمة، الوقت متأخر، دوريات الشرطة هي الوحيدة التي تجول وتدور في شوارع بغداد الآن، لا نريد شوشرة وزعيقًا أكثر، ثم أشار إلى آدم ومجيد بأن يصطحبانه، لكنه تذكر بأنهم لا يعرفون بالتحديد بيت جارهم أبي عدنان، تدخلت وسن وانطلق لسانها مهلهلاً:

- أنا أعرف بالضبط أين يكون بيته... ذهبوا بغية تقصي الحقيقة التي يبحثون عنها وسط الظلام المثقوب بالنجوم والهدوء الذي يشقه في أحيان أصوات طلقات نارية بعيدة ترمى على أهداف جوية لا يعلمون من أمرها شيئًا.

• • • •

ساروا في الظلمة التي تنورها أعمدة النور الواقفة على رصيف الشارع كأعمدة المشانق، ترسل نورها الخافت الذي بالكاد يصل الأرض، أشارت لهم وسن بيدها التي بدت تحت تلك الظلمة كثعبان سائب وهي مازالت ترتدي فستان الحفل البنفسجي اللون المطرز بدانتيل في نهايته السفلى بلون ذهبي جميل:

- هذا هو بيتهم.

تقدم نصير نحو باب البيت وضغط على الجرس... جاءهم صوت من فوق السطح مبحوح يزفر:

- من هناك؟... صوتها أرعب وسن وجعلها تفز صارخة:

- آه.آه... وهي تحتمي بآدم دون إرادة منها، فضمها الأخير إليه وطمئنها:

- لا تخافي... إنها والدة عدنان.

تدخل نصير حاسمًا الموقف:

- نعتذر عن ازعاجك خالة أم عدنان، نود الحديث مع عدنان لأمر هام، هل هو في البيت؟

لم يظهر من جثتها غير رأسها المعصوب بفوطة سوداء وصوتها ينتشر كالرعب الملغوم في الفضاء:

- ماذا فعل ابني كي تريد التحدث معه في ساعة متأخرة كهذه؟ أضافت مستنكرة: ألا تستطع الانتظار حتى الصباح؟
- الموضوع لا يتحمل الصبر أو الانتظار، وإلا لما أتينا كما قلتِ في ساعة كهذه.

بيأس:

- لكنه نائم.

متوسلاً:

- أيقظيه من فضلك، الأمر خطير... هناك سرقة حدثت عندنا، نريد أن نستعلم منه بعض المعلومات، لقد كان مع أخينا مروان في سهرة... وفي هذه الأثناء طلّ رأس عدنان الصغير ذو الوجه النحيف الأسمر الممصوص مناديًا بنبرة لم تختلف عن نبرة أمه المبحوحة وكأنها خارجة من قبر:
- ما الذي حدث؟

برزانة لتخفيف وقع الحدث عليه وعلى أمه المسكينة أشار له آدم بأن ينزل ويتحدث معهم. ما هي إلا لحظات حتى كان وسطهم بفانلة بيضاء طويلة كالثوب وبيجاما مخططه ترفرف بالهواء، همَّ يسألهم مأخوذًا:

- نعم، ماذا تريدون؟

بصوت رزين أجابه آدم:

- عرفنا بأنك كنت مع أخينا مروان في سهرة، هو الآن في سابع نومه، عندما رجعنا من الخارج وجدنا بأن أحدهم قام بسرقتنا، لذلك نحب أن نعرف منك بعض التفاصيل التي قد تفيدنا... بعد برهة أضاف: نحن لا نتهمك لا سمح الله، بل نريد أن نعرف مثلاً، من كان معكما، متى تركتم مروان، هل هناك من أوصله إلى البيت ودخل معه؟ هكذا تفاصيل يعني... وفي سره همس "من يتكهن بالمستقبل أراهن بأنه يقبل بالحاضر واقع".

تنحنح عدنان ثم نبر بلسان ثقيل:

- نعم، فهمت، أنتم تريدون أن تقبضوا على السارق أليس كذلك؟! وأجاب على سؤاله متابعًا: سأساعدكم بالتأكيد، وهنا شَرِق، كنا ثلاثة، أنا ومروان ودريد، شربنا حتى صحينا، فشعر بأنه أخطأ في تعبيره، صححه مباشرةً، أقصد حتى سكرنا ثم رجعنا نترنح كالسكارى!! ودعتهما عند باب بيتكم واتجهت إلى بيتنا، خلعت ثيابي مثلما ترون وحاولت النوم ولم أستطع، هل تعرفون لماذا؟ لأنكم هنا تستجوبونني بحثًا عن السارق!، من أين لي أن أعرف؟ اسألوا ابنكم مروان...

أراد أن يستمر فقاطعه نصير بلهجة تنمُّ عن اتهام متذمرًا:

- هل دخل معه دريد البيت؟ ألم تشاهده وهو يدخل مع مروان؟.

فصاح مقبوض القلب عدنان:

- نعم، لقد رأيته.

مصَّ شفتيه، تلمظ وتابع ملجلجًا بتندر كمن يداري الحرج بالنكتة:

- رأيت دريد وهو يدخل بيتكم ومروان يتكأ عليه ودريد يسنده، أخوكم شرب كثيرًا حتى سكر... لم يعد يستطيع السير مثلنا، أقصد كباقي البشر!!.

صاح به نصير ثم وعى على نفسه فجأة فخفض صوته:

- هل أنت متأكد مما تقول؟...

- بالتأكيد، أنا أعي الآن كل شيء، حضوركم أخفى من رأسي الذي كان ثملاً، ثقيلاً منذ لحظات أصبح والبركة بكم، أخف من الريش.

ناح بصوته المبحوح مؤكدًا:

- نعم، من سرقكم هو دريد.

ندم على تصريحه، عض شفتيه قال مرددًا:

- أقصد، من دخل بيتكم هو دريد.

تدخل مجيد حاسمًا الموقف بالرجوع إلى بيتهم وترك عدنان لحاله لتكمله نومه.

• • • •

أثناء عودتهم استعمرت ذهن نصير فكرة واحدة "تبليغ الشرطة بما حدث" لكنه ومع ما كان مسيطر عليه سألهم:

- هل نذهب إلى بيت نسيبنا دريد ونحاول معرفة ما جرى؟! ثم أجاب نفسه: لكننا سنعمل مشكلة كبيرة بين العائلتين ونحن مازلنا غير متأكدين من شيء!، أجابه مجيد بتعقل:
- الأمر يستدعي إحضار الشرطة. أشاد آدم برأي أخيه وأثنى عليه:
- أتفق مع مجيد، علينا إبلاغ الشرطة ورفع البصمات وبهذا نكون في موقف سليم إن كان دريد السارق أو غيره.

• • • •

لم تكن دورية الشرطة التي أحضرها آدم ومجيد تتكون إلا من رجلين، ضابط ومساعده يتبعه كالظل لا قول له ولا فعل، يتحزم بمسدس لم يظهر منه غير فوهته السوداء كفحمة منطفئة استعملت منذ عهد بعيد، في حين كان الضابط يتنفس بشكل غريب كأنه يتنفس من لسانه كالكلب، سبحان الله، الأصوات التي كان يطلقها في شهيقه وزفيره لا تطاق، يدق الأرض بقوة بحذائه الثقيل، فيحدث رعب غير قليل في أبدان طاقم البيت. ما أن عاين المكان والأسلوب الذي جرت فيه السرقة، وبعد عدة أسئلة متفرقة أكد بسرعة فائقة كخبير بمثل هذه الجرائم على أن السارق يعرف البيت جيدًا، ولابد له من أنه كان قد دخله عدة مرات، سألهم إن كانوا يشكون بأحدهم... تبادلوا النظرات الخرساء التي كانت لها القدرة على ثقب الصخور... لم ينبس أحدهم بجواب، حتى تقدم منه آدم بهدوء:

- الحقيقة، لا نشك بأي شخص، لا من المعارف ولا من الغرباء، حتى أننا ليس لنا أي نوع من العداوات أو حالة من حالات الثأر... في هذه الأثناء دخل عليهم مساعد الضابط الذي كان ينتظر خارجًا يتحسس بلاط الأرض بقدمه كأعمى في مشيته، همس بأذن الضابط الذي ما انقطع عن إطلاق شخيره في كل نفس يصعد وينزل من صدره، ألتفت الضابط بعد أن أصغى لهمس مساعده إلى نصير وأمره بأن يلحق به.

وقف الضابط أمام نصير مواجهًا ومساعده إلى يساره ينتظر أوامره، ثقبه بنظره وهو يسأله بدقة:
- هل يسكن أقربائكم في نفس الحي؟

حرّك حاجبيه بحركة غامضة لا تنم عن تفسير معين متوجسًا:
- ماذا تقصد؟

دون أن يعير لسؤاله أهمية ولم يغلق فمه:
- أجبني على تساؤلي أولاً!

- لا يسكن في الحي غير أهل زوجة أخي المتوفى قبل عام ونصف.

- هل أحد أفراد عائلتهم شاب بشاربين رفيعين وعينين ضاحكتين صغيرتين، رشيق القوام وسيم؟

ضيق ما بين عينه، أجاب:
- نعم، وأسمه دريد، هو في الحقيقة صديق أخينا مروان... عض شفتيه، شعر بندم لأنه تمادى في الجواب، تراجع في قوله مرواغًا متلكئًا:
- أنه شاب ذو خلق، لا يمكن لنا أن نشك به، ومع ذلك فهو أخ زوجة أخينا المرحوم سعيد وهي مازالت تعيش معنا، وأراد أن يكمل قوله، أرجوك حضرة الضابط... قاطعه الأخير بحنكة:
- هذا عملنا، نحن نعرف بالضبط ما نفعل، لقد رأى مساعدي شابًا يحوم حول منزلكم، وما أن رأى سيارتنا حتى غير اتجاه سيره، هذا يعني أن المجرم يريد أن يعرف ما يحدث في مسرح جريمته، خبرتنا تقول ذلك، لذلك نشك به ولابد من استجوابه... ارتعدت أطراف نصير، فهم بأنه أمام مشكلة كبيرة مع أهل زوجة أخية لا يريد الدخول فيها، حاول متوسلاً أن يبعد الشكوك عن ابنهم قدر المستطاع نابرًا:
- حضرة الضابط، دريد شاب مهذب لا يمكن أن يفكر بإيذائنا، ومن ثم عائلته غنية لا تحتاج إلى نقودنا كي يسرقها... قاطعه مجددًا:
- يعني أنت لا تريد منا التدخل مباشرةً واستجوابه؟!

فكر بسؤاله برهة، رأى من الحكمة أن لا تتدخل الشرطة في أمر كهذا، رغم أنه اقتنع بتحليل الضابط ورؤيته التي وجدها صائبة، خاصة وهو يعرف بأن دريد شاب سائب صائع ومتسكع يمكن أن يفعل أي شيء من أجل الحصول على المال لإطفاء نزواته وشهواته لكنه وبحكم خبرته في الحياة أراد أن يسوي الموضوع معهم بنفسه دون تدخل الشرطة، فأجاب الضابط بكلمة حاسمة وبأدب بالغ في توظيفه بعد أن طار سحر الخمر من رأسه نهائيًا:

- نعم، لا أريد تدخل الشرطة واكتفي عند هذه الحدود ونعتذر عن إزعاجكم... نظر له الضابط بتحدٍ ولم ينبس، أدار له ظهره، استقل سيارته التي قادها مساعده بعد أن شهد الحديث وما آل إليه الموقف وغادرا مسرح الجريمة دون وداع والضابط فمه مفتوحٌ ولسانه ممدود.

• • • •

وصل خبر وجود الشرطة في بيت أم نصير مسامع عائلة سمير ضامن، لبست خيرية والدة لمياء عباءتها السوداء وجرت مسرعة تتدهدر إلى بيت أم نصير تعاتبهم على شكوكهم بابنها دريد بعد أن أبلغتهم ابنتهم خفية عبر الهاتف بما رأته وسمعته في نيتهم بتقديم أخيها للشرطة بغية الاستجواب... دخلت البيت الذي ساده الفوضى، لعلع صوتها وهي تقف بجانب ابنتها لمياء أمام نصير بتحدٍ كحامي الطبع نددت:

- عرفت بأنك تريد تقديم ابني ضحية للشرطة، هل هذا صحيح؟ تابعت دون أن تعطيه فرصة الرد: هل تشك بدريد وهو مثل أخيك مروان؟ هانت عليك العشرة والقرابة؟ لا يمكن ذلك، لن اسمح به وظلت تهذي كالمحمومة حتى أمسكها نصير من كتفها طلبا في إسكاتها وإغلاق فمها:
- يا أم ضياء، يا عزيزتنا، نحن لا نفكر مطلقًا بإيذاء دريد، من قال لك ذلك؟ بل أنا الذي صرفت نظر الشرطة عنه بعد أن شَكّوا به وجعلتهم يغادروننا... أرجوكِ، أرجعي إلى بيتكِ وعائلتك وكما ترين، الوقت متأخر، عند الصباح الذي طلع علينا نتحدث بروية كعائلة واحدة، نبحث الموضوع من كل جوانبه... تدخلت لمياء ابنتها صاهلة بلهجة الواثق من نفسه مستنكرة:

- الموضوع من كل جوانبه؟، ثم بدهاء ومسكنة:
- ماذا تعني بقولك؟!

بهدوء تمرس على لبسه وهو يوجه كلامه إليهما معًا:
- نعم، لكن ليس الآن... ثم تركهما في غرفة الضيوف بالطابق الأرضي وصعد إلى زوجته التي كانت تنوح، تندب حضها المكروب العاثر دون توقف لالتقاط أنفاسها.

(٨)

لم يأتِ الصباح إليهم بشيء جديد. كانوا منهكين من ليلة الأمس التي عاصرت فجر الصباح وطلوعه؛ تأخروا في الاستيقاظ جميعهم حتى مروان الذي لم يعرف ما كان يدور حوله ثم تفاجأ عند تناول الفطور مع أمه وآدم ووسن بما حصل. لم يتذكر شيء عندما واجهه أخيه نصير فيما بعد وهو يسأله، قال:

- الحقيقة كانت أمسية جميلة، نسينا أنفسنا فيها، شربنا كثيرًا ولم أعد بعدها أتذكر ما حصل، بل لم أعرف كيف وصلت للبيت ومع منْ!. وبذلك ضاعت فرصة استجوابه وحصولهم على معلومة قد تفيدهم لمعرفة هوية السارق، حتى دخل عليهم سمير والد لمياء وعيناه منتفختان، حمراوان من السهر والشرب، ذقنه بائت لم يحلقه منذ يومين، طافقًا بالاسترسال وهو يتمطق دون مقدمات:
- أؤكد لكم بأن ابني الذي تمنيت أن لا يكون ابني هو الذي سرقكم...

صرخت مقبولة:

- ماذا، دريد هو الذي سرقني؟...

انهارت لمياء وهي تسمع أبيها يتحدث بالسوء عن أخيها، استطرد دون أن يعير لغرابة موقفه أي أهمية كأنه لم يسمع ما كان يدور حوله من هم طافح وغم نازح، تابع بروح لم تنقصها الجرأة كروح شيطان متمرد:

- الدليل موجود في بيتي "دمدم الجميع بغمغمات وهمهمات غير واضحة" وجدته خلف منزلنا وسألهم دون إحراج:
- ألم تكن علبة صفراء كبيرة من علب حليب الأطفال المجفف؟! وأردف بجرأة كأنه يتحدث عن شخص لا يمت له بأي صلة: دريد كما تعرفون شاب صائع، متسيب وبشهادة الجميع، لا عمل له، يتحين الفرص للحصول على المال بأي طريقة، لقد فعلها معي وأنا والده، فما بالكم وأنتم نسائبنا فقط؟ تستطيعون أن تفعلوا به ما تشاءون، ثم تركهم مأخوذين لا يصدقون ما يسمعون وكأنه لم يقل لهم شيئًا ذا

بال، خرج يصفّر منشدًا مقطع من أغنية ناظم الغزالي "طالعة من بيت أبوها رايحة لبيت الجيران... فات ما سلم عليّ يمكن الحلو زعلان..."(•)
تركهم غارقين في بحيرة من الذهول، وما أن غاب عن أنظارهم حتى تدخلت ابنته منتصبة متوسطة جلستهم وهي تردد كلمات سريعة لابكة كعادتها عندما تتحدث كأن النيران مشتعلة في ثيابها ما تبادر إلى ذهنا لحظتها دون تفكير طويل:

- أرجوكم لا تأخذوا كلام أبي على أنه الصدق بعينه، فهو كما رأيتم لم ينم ساعة من ليلته الفائتة، ألم تنظروا إلى عينيه كيف كانتا تبدوان؟ كان يهذي بالتأكيد، لا يوجد أب في العالم يقول عن ابنه ما ردده على مسامعنا... ظلت تتلفظ بما كان يخطر على بالها دون حساب... حتى قاطعها نصير مقتضبًا حاسمًا هذيانها:
- سكتنا عليه دخل بحماره، لا داعي للتبرير، النقود التي سرقت هي نقود زوجتي يعني نقودي، وأنا أعرف كيف أرجعها، واستطرد: لم التحق بالمعسكر اليوم بسببكم جميعًا، ستنالني عقوبة بالتأكيد غدًا، وربما أُحبس لو لم أستطع أثبات حادثة السرقة لهم، ثم نهض مودعًا ذاهبًا إلى متجره الذي يديره وسط بغداد دون أي ورقة رسمية يحملها لعدم التعرض له وهو يخدم في الجيش كجندي احتياط بعد أن أستدعى للمرة الثانية بسبب الحرب التي لم تخمد نارها المستعرة بين العراق وإيران.

• • • •

متجر نصير لم يكن لنصير فقط بل ملك العائلة كلها، اشترك أفراد العائلة جميعهم بدفع حقه عندما تم الاتفاق على شرائه من رجل يهودي معروف في منتصف السبعينات يدعى "ياهودنكَور" يملك أغلب دكاكين السوق القديمة المطلة على ضفة نهر دجلة القريب من جسر الشهداء والمحاذي لسوق المكاتب المعروف بسمعته الثقافية الطيبة المثخن بالكتب من كل عمر ولون واتجاه، حيث تجدها على الأرض وعلى المساطب الممدودة كجرحى الحرب على نقالات الإسعاف، وعلى أدراج

(•) تفسير مقطع الأغنية: خرجت من بيت أبيها، ذهبت إلى بيت الجيران. مرت ولم ترحب بي. ربما الجميلة منزعجة.

ورفوف دكاكينه خافتة الإنارة وصوت المارة وبائعي شراب السوس يدخل الأسماع غصبًا دون تحكم، ثم تستقر في خياشيمك رائحة كبة الموصل العطرة المميزة الفريدة كالبصمة التي لا تتكرر عند اثنين من البشر، ذلك السوق الجميل القديم الذي تكنسه الرياح القادمة من ضفة النهر كلما هبَّ نسيمه العذب يدعى "سوق السراي" المجاور لسوق الصاغة المشهور بممراته الضيقة الملتوية التي تشبه الأمعاء الآيل للسقوط في أي لحظة لقدمه والناس غير آبهين وفي الخطر المحدق بهم لا يفكرون... كان ياهودنگور عراقي من أصول يهودية، رحلوا معظم أقربائه إلى إسرائيل بتذكرة الذهاب فقط حيث اللاعودة بعد الاحتلال إلا عائلته، أبى أن يغادر العراق، قال هذا وطني، هنا ولدت وترعرت وكبرت وهنا أموت، ماذا أفعل في إسرائيل؟ العراقيون لا يضايقونني، بل يعتبرونني واحد منهم وأنا كذلك، لم أجد فيهم ما يشين أو لشخصي من يهين، وهكذا رفض مغادرة بلده كما كان يردد في كل مناسبة لكسب عطف الآخرين لتمشية أعماله التجارية الأخطبوطية التي لا تنتهي ولا تعرف بماذا يتاجر الرجل، في العقارات والإقراض بالفائدة والذهب والأحجار الكريمة والعملة الصعبة وأمور غيرها لا يحب التحدث بشأنها. كان مسنًا، طويل وعريض، يعاني من شلل نصفي يساعده ابنه حليق الوجه والرأس بنيامين أعماله التجارية، معروف بسمعته الطيبة وبخله الكبير، يسامر جميع زبائنه كأنهم أهله، يعرف كيف يحصل على أمواله المستحقة ببراعة يصعب على الشيطان تقليدها، تراه يضحك ويقول النكته ويهدد في نفس الوقت ثم يأخذ حقه على داير مليم. دفعت عائلة أم نصير حق خلو الرجل كما يقال وبقي ياهودنگور صاحب الدكان، يدفعون له قسط سنوي كل نهاية عام رغم المبلغ السمين الدسم الذي أستلمه منهم عندما تم توقيع العقد، وقتها قام سعيد بجمع حملة تبرع عائلية تعلوها سمة الهزل الممزوج بالجد وأخذ ما جاد به أخوته وأخواته وأمه من مال ومصوغات سدد به حق خلو الرجل وتم شراء الدكان الذي لم يكن يومًا باسمهم، وظل الرجل اليهودي هو المالك الرسمي كما يفعل مع باقي زبائنه ودكاكينه التي يصعب حصرها لكثرتها!.

في بداية الأمر عمل نصير وساعده كل من سعيد ومروان في تصنيع بعض الحلي، عرضها وبيعها، كما يفعل أغلب أبناء طائفتهم الذين يمتهنون مهنة الصياغة أبًا عن جد بالوراثة كاليهود... لكن سرعان ما اشتعلت الحرب مع بداية الثمانينات،

فاضطروا إلى تركه حينًا بعد التحاقهم بالخدمة العسكرية كما التحق مجيد بعدهم، فأضطر آدم من تحمل مسؤولية العائلة وهو في سن مبكر لم يتجاوز الثامنة عشر، حاول جهد إمكانه من التكيف للعمل في المتجر والحرص على تكملة دراسته ونجح في هذا التوافق أينما نجاح لإصراره على تكملة المشوار بهذا الشكل الذي كان واقعًا لا مفر منه...

كان متجر نصير الذي يعمل فيه مع أخوته صغيرًا كقبو مسكون أو بالكثير يشبه وكر الجن أو الوحوش المركون، مغروز في ركن ضيق المسلك لا يصلح إلا لسير الأقدام العابرة، لا يصله ضوء الشمس مثله مثل باقي متاجر السوق القديمة التي يمتلكها ياهودنگور بواجهة من الخشب المطلي بطلاء أسود وبإنارة صفراء تعذب العين مقلقة للأعصاب، ولو ركز المرء فيها لدقائق بشكل متواصل لأصابته لوثة لا محال. بجانب المتجر من جهة اليمين مقهى تبعث روائح مختلفة ومحروقات غريبة لا يمكن التكهن في أصلها أو فصلها كأنها صادرة من سرداب، كثيرة الرواد لا تنقطع الرجل عنها كما يقال... ربما بسبب سمها أو سمعتها أو رائحة عطرها... يمتلكها رجل أعزب في الستين، من أصل كردي يتكلم العربية بشكل مضحك رغم أنه عاش معظم حياته في المقهى التي يمتلكها يدعى عزيز... ما عدا ذلك لا يعرفون جيرانه وأهل السوق عنه شيئًا، يضحك، يسب، يشتم، يغازل ويعمل وهو مع الجميع في وفاق عجيب، وشايه الذي يقدمه يضرب به المثل لطعمه الرائع الذي يدمن عليه المرء من الرشفة الأولى.

كان الصمت في ذلك اليوم عميقًا في السوق والجو حارًا يكتم الأنفاس يضارع جهنم في حرارته بعد أن انتصف النهار وجهاز التكييف من نوع "توشيبا" جالس بشموخ متلصلصًا على الحاضرين من فوق واجهة المتجر الخشبية يعطي برودة خجولة لا تذكر بالحسنى بسبب الجهد الذي يعانية من ضعف الكهرباء الواصله له وتعدد وجود أمثاله الجهنمية الحرارة التي تشعها وتطلقها من مؤخراتها في درب السوق الضيق التي يمتكلها كل صاحب دكان هناك، فقد كانت تعر ولا تسر.

دعى نصير أصدقائه وأقربائه وممن يشعر بأنهم يؤيدون آرائه إلى متجره وهو يعرض عليهم مشكلته وما حدث معه بشأن سرقتهم ومن ضمنهم كان جليل ابن عمه الذي يعاني العرج بسبب شظية أصابت ساقه اليمنى مؤخرًا عندما كان في الجبهة

يحارب الأعداء!، وعاصم بالصدفة لأنه من المفروض أن يكون في مثل هذا الوقت في الجبهة وبعض الذين يتعاطفون مع نصير أمثال ابن خالته ناصر الذي لا يحل ولا يربط ولا يقدر على تقسيم الشعير بين حمارين، يهاب زوجته كما يهاب رجال الأمن، رفيع، قصير، أصفر الوجه، مدمن على التدخين حدود المرض، أصر نصير على حضور الجلسة حكيم عشيرته التي ينتسب إليها، رجل يدعى كذلك ناصر؛ طويلاً، أبيضًا بشاربين أصفر من الذهب، يتمتع بصحة رائعة وبحكمة ولباقة قل نظيرها بين من يعرفهم، ناهيك عن سطوته ووقع تأثيرها على الآخرين بين رنة صوته التي تشبه رنة وتر آلة موسيقية أثناء التجريب قبل الشروع بالعزف عليها، وماله، ووجاهته وبلاغة قوله؛ مكانته المرموقة المعروفة في مجتمعهم الصغير المغلق من جهة أخرى لذلك أصر نصير على حضوره... وبدأ بسرد قصته دون إبطاء، جاءت نبرته مؤثرة كأنه تقصد على إظهارها بهذا الشكل لكسب المزيد من التعاطف، وفي عينيه نظرة غضب كانت تبرق بقوة:

- لقد دعوتكم إلى هنا لأمر هام، ما ترونه سأفعله وأقبل بحكمكم مهما كان. لقد سرق دريد ابن سمير ضامن نسيبنا نقودنا بعد أن دخل بيتنا ليلة أمس مع أخينا مروان الذي كان في حالة سكر شديد، اعترف الأب بجريمة ابنه وقال بأن الدليل موجودًا في بيته... تنحنح عاصم دون أن ينبس بحرف، اكتفى جليل بالابتسام ولاذ به، في حين تدخل ناصر الحكيم برزانة كأصحاب النفوذ:
- أرى أن يكون الحديث أمام الأب، لندعوه ونسمع منه. أثنوا جميعهم على الاقتراح. انسحب عاصم بسرعة وهام على وجه للمجيء بالمطلوب، كان سمير يعمل في نفس السوق، ثوانٍ حتى كان بين أيديهم يجالسهم، اختنق الدكان لصغره وفاض بهم. بدا على عاصم التأثر رغم أنه ظل طوال الوقت باسمًا، رفع خصلة شعره المتبقية مما كان باقيًا من شعره عن جبينه والعرق ينضح منه فصوصًا، حاول الجلوس ولم يستطع، فضّل الوقوف خلف ناصر ابن خالة نصير الذي يكبره مرتين طولاً وعرضا وهو يتظاهر بالإكتراث لحال صديق طفولته وشبابه الذي يقول عنه غير سعيد بها، في زاوية المتجر على يسار المجموعة المتجمهرة وصورة المرحوم سعيد تعلو رأسه بهيبته ووقاره وشاربيه القرويين العريضين

وعينيه الجميلتين الناطقتين بالرحمة والقوة في ذات الوقت... واصل ناصر الحكيم خطابه بإسهاب ولباقة مشهور بها:

عزيزنا أبا ضياء، أنت واحدًا منا، ما يصيبك يصيبنا ونصير كذلك، نعتبر أنفسنا عائلة، تصرف نصير أراه عين الحق بتفضيله الاجتماع بنا لحل المشكلة التي تعرفها بعيدًا عن أقسام الشرطة... فقاطعه سمير منتصبًا بانحنائه مجبر عليها بسبب اهماله لصحته بشكل ملحوظ من قبل الجميع:

- ابني لم يفعل شيئًا!. فارت دماء نصير في عروقه لِما سمع لكنه لم يتدخل، جعل ناصر يحسم الموقف... وبالفعل نبر الأخير متشوقًا بلهجة راثية:
- كيف عرفت بما كنا في صدده ونحن لم نقل بعد ما هي نوع المشكلة؟!

تردد قليلاً ثم خرج عن صمته مدافعًا عن قوله بوجد فاتر وقلب خائر وابتسامة لم تمكث طويلاً على شفتيه شاحبة شاحت على وجهه الكالح وطافت على ذقنه النابت البائت الذي لم يحلقه منذ يومين:

- أنا لم أقل بأني لم أعرف بحادثة السرقة التي تعرضت لها عائلة أقربائنا وأحبابنا، لكنني قلت بأن ابني لا دخل له بالموضوع... وهنا لم يستطع نصير الإمساك بأعصابه، صاح هائجًا وعيناه تنطق بالدهشة والأسف:
- كيف تدعي ببراءة ابنك وأنت اعترفت أمامنا جميعًا هذا الصباح بما فعله دريد، وذكرت لنا بأن الدليل موجود خلف الدار عندكم، وكان عبارة عن صحيفة معدنية من علب الأطفال للحليب المجفف؟!

خفض رأسه، ثم أدارها نحو ناصر تجنبًا مواجهة نصير الذي أعماه جحيم غضبه، شرع:

- في الحقيقة أنا لا أنكر تصرفات ابني الشائنة، لا أريد التستر عليه، لكنني أقول بأن الشرطة لم تستطع أثبات الجرم، فكيف يريد نصير إثباته ويطلب منا تصديقه؟، وأضاف مستدركًا قبل أن تخونه ذاكرته: أنا لا أسمح لنصير أن ينظر لي هكذا وكأني بصقة!... ناح عاصم صاحب اللهو واللغو بتودد إرضاءً لنصير والإبقاء على قربه منه:
- رحماك يا رب. نحن لم نخلق لشيء من هذا؟... ثارت ثائرة نصير، لم يعد يتحمل كذب ومراوغة سمير فرشقه بكلمات تسم البدن بدأها:

- يا ابن الملسوع كيف جاز لك أن تكذب، تغير الحقائق وتلعب بها هكذا على هواك؟... في حين ظل سمير ملتزم الهدوء كأن ما يردده نصير غير موجه إليه، أراد ابن الحلال أن يثبت تهور نصير وتسرعه في الحكم على الأشياء أمام الآخرين ليأخذ الموضوع مسارًا آخر فينقذ نفسه من المأزق وابنه من الاتهام بالسرقة؛ نجح في ذلك أينما نجاح حتى فضَّ الاجتماع بإبعاد سمير عن منطقة الخطر، أخذوا يتكلمون مع نصير بلغة أخرى أقرب إلى النصيحة من القرار.

انفضَّ اجتماعهم دون أن يتوصلوا إلى حلٍ مرضٍ. أقسم نصير أن يدخل دريدًا السجن حتى لو تطلب منه الاستعانة بمعارفه في سلك الشرطة لحبسه ونيل جزائه. لم ينفذ وعده. تخاذل عندما حسبها بأن ذلك سيؤدي إلى انشقاق داخل الأسرة ثم يتسبب في ألم لزوجة أخيه المتوفى فامتنع من تسليم أخيها للشرطة وقبل بأمر الواقع على مضض.

عند المساء وحينما كانت الشمس تؤذن بالغروب أطلَّ على زوجته، صارحها بما حصل معه في دكانه ظهرًا... استمعت إليه كفاقدة الوعي، لم تحرك ساكنًا، اعتقدت خاطئة بأن نصير سيرجع نقودها التي سرقت من خزانة ملابسها، خاب ظنها، أسودت الدنيا في عينيها المتلصصتين الزائغتين التي لا تعرف منهما ما تتكهن به مقبولة وما يضمر قلبها... بعد أن وعت على نفسها حاولت التصريح بما كان يجول في خاطرها فتذكرت عناد زوجها ومعرفتها الجيدة بسلوكه وطباعه وبأنه سوف لن يتنازل من تحقيق مبتغاه... آمنت راضخة طلبًا للسلامة، لكنها لم تستسلم نهائيًا لغريزتها الثائرة المحبة للمال والطمع فيه... سألته بنبرة جاءت بين التحريض والتهوين تدقن استعمالها في أوقات كهذه:

- هه... ماذا ستنوي إذن؟... كان داخلها يحترق كبطن موقد متقد، تابعت مخفضة رأسها تعبيرًا عن إجلال لزوجها لم يكن صادقًا أو حقيقيًا، نصير كان يعرفها كما تعرفه، لم تفته تلك الإشارة منها، ولم يقطع حديثها، جعلها تقول ما تريد، أستمع لها بأذنين مفتوحتين لامتصاص نقمتها والتخفيف من حزنها، كان يحبها حبًا جمًا، أعمى إن صح التعبير وهو في هذا العمر المتقدم، حتى قال من قال، بأن مقبولة كانت قد عملت له عملاً أو سحرًا أو أشياء من هذا القبيل وذلك لولع نصير غير الطبيعي بها... استطردت مقبولة بحذر كي لا تجعله يفقد أعصابه بسرعة:

- عليك ألا تنسى بأن دريد دنّس حرمة بيتنا، دخل غرفة نومنا وسرقنا، هذا أمر غاية في الوقاحة والتحدي، هل نسامحه؟، نغض الطرف عما فعله؟. هذا ما أردت التنويه عنه، ثم همست بصوت رفيع كالصوت التي تطلقه ساحرة في عز عملها تحضر شيئًا ما يجهله الآخرون: لك يا حبة عيني وما تفعل، أنت صاحب الكلمة والحسم في مواقف كهذه، أنت رجل البيت وسيده وكل ما أردته قلته... مازال رأسها خافضًا تنظر نحو الأرض وترسم بنظراتها خططًا وحبائك وأشكالاً هلامية غير مرئية لا يتكهن في فك رموزها رئيس كهنة الشياطين.

لعن نصير في سره أسرة لمياء واليوم الذي رغب أخيه المرحوم سعيد قربهم يوم إعلان قراره بالزواج من ابنتهم، مرة أخرى يتحكم القدر في مقاديرنا ونحن صاغرين ولأمره مطيعين وكأننا منومين... قال ذلك في سره وربما لأول مرة يشعر بمرارة تنزف بداخله وألم كانفجار الزائدة وشفته السفلى كانت قد تقلصت دون إرادة، عندها استدرك غاضبًا قبل أن يسمح لها بالرد أو التعقيب:

- ما أجهل من يظن بأن الموت أعظم الشرور والناس به يبتلون!، قوله هذا كان إعلانًا حاسمًا عن نهاية الحديث في هذا الموضوع... وأعرض عن السرقة والسارق يائسًا وسكت وأسكت زوجته التي ظلت لأشهر تنوح وتندب حظها تبربر دون هوادة، لم يرجع إلى ذكر الحادثة كأنه نسيها كروح شخص احتضر طويلاً ثم اسلم الروح لصاحبها بعد نزاع مع الموت، فانتهى أمره وطواه النسيان.

(٩)

حاور آدم نفسه كالمجانين بوقفته المعتادة أمام دارهم في مساء وجده أكثر وحشةً وتجهم على روحه كأن المساء صخرة رابضة على صدره، ينظر إلى الأفق بنظرة حالمة، مستلهمة، ساطعة من الغيب كبريق النجوم:

"ماذا يا آدم؟ هل تنتظر المعجزة تنزل عليك بوحي من السماء لتهبك أنهُر متوجة بإكليل من الزهور دون أن تحرك ساكنًا؟! أم مازلت تؤمن بالحظ والنصيب وما إلى ذلك، فتسلم أمرك للأسطورة والغيب تاركًا إرادتك تتهاوى كخيوط العنكبوت ما أن يلامسها الريح البسيط، عاجزة لا تقوى على مواجهة الواقع؟! هه... لن تتخلص من عذاب الضمير إلا إذا تطلب رضى نفسك وتتصالح مع ذاتك المنقسمة على نفسها عشرة أجزاء مبعثرة، لابد لك من توحيدها أولاً، ثم تقرر ما لك لتفعله وتعطي ما عليك كي تشعر بعدها بالراحة والطمأنينة التي تشبه راحة الأبدية الحتمية التي هي مصير كل كائن حي"... هز رأسه علامة من علامات الاقتناع، مسح بعينيه الشارع كأنه يقيسه، ثم غاص في تأملاته التي تلسعه كالأسواط تؤنبه وتوخز ضميره:

"لا تظن بأن الله يقبل مراوغتك وترددك وعدم حسمك لأمورك وإبقاءها معلقة ما بين الأرض والسماء، فأنبيائه سبحانه وتعالى كانوا حاسمون في قراراتهم، لماذا لا تفعل مثلهم؟ لو كانوا قد ترددوا لحظة لما رأينا رسائلهم اليوم تقرأ على سكان الأرض ولما سمعنا بأن أحدهم قد آمن بهم وبنبوتهم ونبوغهم وفوق كل ذاك أحبوهم بصدق... حسم الأمور التي تتعلق بالناس وفلسفة الحياة هي إحدى أهم أدوات العبقرية التي امتلأت بها أرواح الأنبياء دون شك... ثم دوى صوت الحق، صوت الضمير الحي الذي بداخله يصدح:

لماذا كل هذا التردد، والخوف والانتظار؟!... إقدم، أفعل شيئًا، تحرك، قل ما ترغبه وما تراه مناسبًا، لا تبقى ساكنًا، صامتًا كحجر التماثيل".

أفاق آدم على نفسه المعذبة، المتشوقة لمعرفة ما آلت إليه ظروف أنهُر في الأسابيع الأخيرة التي مضت مستنكرًا دموعه دواءً لأحزانه؛ حاول أن يقاوم شعوره بالغربة والتعاسة ولم يخرج إلا بنتيجة واحدة فاز بها، وضع خطة تساعده على تتبع

أخبارها بأي شكل من الأشكال مهما كلفه الأمر، عندها فقط شعر براحة نفسية لم يتصورها عازمًا على تنفيذ فكرته بأقرب وقت ممكن.

• • • •

بدأ بالفعل بالتحرك وكانت وجهته أختها سارة ذات الصوت المنفر المقزز الذي يشبه صوت الدف المثقوب، أختارها لأنه كان على يقين بأن تشوفها سيجعلها تساعده ويأخذ منها ما يريد من معلومات حول أنْهُر، وكان حدسه صحيحًا. فما أن تربص بها بالقرب من مكان عملها في دار الإذاعة بمنطقة الصالحية في صباح أحد الأيام حتى رآها تقترب تدهدر بمشيتها كحركة من يصفي الرمل في غربال، قاسها بعينيه فوجدها أقل طولاً من أنْهُر، لكن هذا لم يؤثر على نسق جمالها البارع وسحرها الخادع والأخير لم يغب عن باله لحظة، ظل متفطنًا، يقظًا، متقد الحواس ومتوثبا، عليه أن يختار كلماته بدقة ويحذر من تمادي سارة المعروف بالخبث، أن لا يستجيب لحركاتها وغمزاتها، أن لا يدخل منطقة حوارها ليبقى على مبعدة من حبائلها ومكائدها التي اشتهرت بها حتى باغتها بلطف زائد لمعرفته السابقة بطبعها ولتشجيعها في المضي معه ومساعدته وصولاً إلى ما كان يطمح به... أستوقفها وابتسامة معبرة بالافتنان رسمها بدقة على شفتيه:

- صباح الخير يا ساره... وتابع دون أن يعطيها فرصة للرد: هل عرفتِني؟
ضحكت بتهكم ملحوظ خافقة:
- وهل يخفى القمر!.

- لماذا هكذا؟ جئتك متعشمًا بكرمك وطيبتك الظاهرة والخفية، قال ذلك وهو يركز نظره بها كأنه يجس نبضها ومدى تأثير ووقع كلماته عليها وأضاف مستدركًا محاولاً أن يرفع من شأنها المرفوع أصلاً بالنسبة إليها: اخترتك بالذات لمعرفتي الجيدة بأنك تختلفين عن غيرك، تقدرين الأمور وتزنيها بحكمة، أردت التحدث معك على انفراد بعيدًا عن الأنظار، هلا سمحتِ لي بذلك؟
استعادت نشاطها، نفخت صدرها، ابتسمت بخيلاء، ثم شرعت:

- كنت أعرف بأنك شاب ذكي تقدر الناس وتعرف قيمتهم الحقيقية، لذلك أوافق على التحدث معك بشرط، قاطعها متلهفًا:
- ما هو؟
- أن لا يزيد حديثنا عن نصف ساعة، ولو أقل يكون أفضل!. اتفقنا، وسألها برقة:
- أين يعجبك الجلوس؟. دون تفكير طفقت:
- في الشارع الفرعي على يسارك توجد مقهى هادئه غالبًا ما أتناول غدائي السريع فيها... واتجها إليها وهو يشعر بالقرب من تحقيق مبتغاه وبراحة غمرته فجأة بعد طول تفكير، تخطيط وعذاب.

• • • •

كانت المقهى كما ذكرتها سارة بالفعل غائصة بالهدوء على غير عادة مقاهي بغداد الحديثة التي يمكن استقبال كلا الجنسين دون محاذير أو عائق. خافتة الإنارة، اللون الأخضر الفاتح طاغٍ عليها، الطاولة الكبيرة التي يخدم فيها النادلون زبائنهم كان سطحها الأملس أخضر، المقاعد غطت بقماش لونه أقرب إلى لون الزيتون... اتخذا مجلسهما القريب من النافذة المطلة على الشارع، جلسا، نادى آدم النادل مسرعًا، ثم هَمَّ بسؤال سارة عن أحوال أختها دون مقدمات:
- الحقيقة عُرف عني بأني شخص مباشر، أعني لا أحب اللف والدوران كالسهم عندما ينطلق نحو هدفه، كما تعرفين، قلقت على أنْهُر جدًا، لم استطع أن أقف على ما آل وضعها في الفترة المنصرمة، كل محاولاتي للاتصال بها باءت بالفشل، أعترف أمامك بهذا وأنا على يقين بأنك ستتفهمين ظرفي وتساعدينني... قاطعته وابتسامة حادة فرشتها على شفتيها كأنها تستجوب متهم مُثل بين يديها:
- لا تنتظر مني أن أحل لك كل مشاكلك، عليك الاعتماد على نفسك، وإلا لن تكون الرجل المناسب الذي يستحق أختي وحبيبة قلبي أنْهُر!.
- هذا لا جدال فيه... لكنني مازلت طالبًا، أخي مروان خاطب لم يتزوج بعد، أحتاج لمزيدٍ من الوقت، هذا كل ما أطلبه... وقف النادل على رأسيهما وهو ينزل ما

طلباه، قدم لسارة عصير البرتقال ولآدم شايًا أسود، أدار لهما ظهره وانسحب بهدوء متمرس، تابع آدم مستدركًا وهو يضع القليل من السكر في قدح شايه:

- ربما تزوج مروان في الخمسة شهور القادمة، هذا يعني أحتاج إلى مدة لا تقل عن نصف عام حتى أتقدم لخطبة أنْهُر وسألها مباغتًا بذكاء لإعطائها قدرًا أكبر ومزيدًا من الثقة بالنفس:

- هل ستساعدينا وتقفي بجانبنا؟، هذا ما ننتظره منك وما نتمناه...

وهي تتظاهر بالاحتجاج وعدم الرضى، ترنو له بنظرات ذات مغزى فسّرها على أنها حركة من حركاتها التسلطية التي تهوى وتذوب في ممارستها:

- بالتأكيد لن أتخلى عن مساعدتكما وإلا ما كنت قد وافقتك على الاجتماع والتحدث معك، ثم كرنين الطلقة التي خرجت من فوهة سلاحها، نوهت:

- لكنك لا تعلم ماذا جرى لأنْهُر!!

مأخوذًا وهو يبلع ريقه:

- ماذا جرى لها؟ وأضاف: أرجوكِ تحدثي.

ببرود كبرود القتلة:

- احذر... أن الله لن يغفر لمن يسيء لأنْهُر أبدًا!.

مشدوهًا وهو يتحدث:

- لم يولد بعد من يفكر مجرد التفكير بالإساءة إليها.

- هكذا أحسن... وتابعت بتطفل غريب جهنمي:

- رؤية العواقب للأشياء قبل حدوثها يجنبنا العبث أو الغوص والخوض فيها أليس كذلك؟!... على الرغم من أنه كان يقرأ الشك في وجهها، قال:

- لا نقاش في هذا، الحياة دون أنْهُر لا تساوي قلامة ظفر، ثم أردف متأثرًا مسحوقا: لكنكِ لم تقولِ بعد ما حدث لأنْهُر، إنكِ تقتليني بعدم التنويه عما حصل لها وكأنك تحبين تعذيبي؟

بلا مبرر غرقت في الضحك حتى دمعت عيناها الجميلتان الزرقاوان الآسرتان، ثم دون تباطأ كالطلقة نطقت:

- انتحرت!.

- ماذا؟ صاح مفرقعًا كالخشب عندما يبدأ بالاحتراق دون وعي.

- كما قلت، حاولت الانتحار، انقذنا حياتها بمعجزة، ثم سكتت لإضافة مزيدًا من التشويق لحديثها بعد أن شعرت بأنه يتألم ويتحرق لمعرفة المزيد من التفاصيل التي تضني بها عليه، توسل ملقيًا عليها هالة من الأسئلة دفعة واحدة بتسليم وقنوط:

- لماذا سكتِ؟ أرجوكِ، قولي ماذا حدث لها؟ أين هي الآن؟ كيف صحتها؟.

فيما يشبه الضجر:

- لا تقلق عليها، أنهُر فتاة قوية، هي تعرف كيف ستخرج من أزمتها متعافية وبصحة لا تملكها امرأة بسنها، أختي وأعرفها، نقلناها للمستشفى بعد شجار شب بينها وبين أمي حاولت الانتحار ولم توفق، هي لا تريد أن تموت، بل أستطيع أن أجزم بأنها تحب الحياة أكثر مني، لا تهتم لأمر انتحارها كثيرًا، هي اليوم في البيت لكنها تشعر بكآبة، ستزول بعد فترة، بل ما أن تعرف بأنك ألتقيتني حتى تطير رقصًا وفرحا، سأحدثها مساءً بعد رجوعي من عملي وأجعلها تتصل بك، سؤالك عنها ومحاولتك الجادة للتحدث معي بشأنها كلها أمور إيجابية ستساعد على حل المشكلة، سأقف بجانبكما ما استطعت، نظرت إلى ساعتها، آه... لقد تأخرت على عملي، رفعت ما استطاعت من شعرها، أرجعته إلى الوراء بأناملها بحركات متتابعة نرجسية كأنها تحاول ترويضه، ثم وقفت حاسمة أمر مغادرتها:

- لابد من الذهاب الآن، تأخرت كثيرًا، سأنقل ما أتفقنا عليه لأنهُر، ستكون الأمور على ما يرام، أعدك بذلك، أعطته ظهرها وغادرت المقهى متدهدرة في مشيتها وهي ترفع حقيبتها الجلدية ذات الألوان الأرجوانية وتضعها على كتفها الأيسر وغابت عن مرمى ناظريه بسرعة لم يتوقعها.

• • • •

بعد أن دفع الحساب غادر المقهى وهو يشعر براحة تغمره، سرعان ما انقلبت سعادته إلى ظنون وأسئلة لم يتلق عليها أجوبة واضحة وبدأ يتساءل بحيرة:

ترى إلى أي مدى كانت خطورة الانتحار على حياتها؟ هل تعذبت؟ هل طرأ تغيير ما على جسمها أو شكلها أو حتى نفسيتها؟ لا يمكن تصديق ما قالته أختها نتيجة شجار مع أمها، هذا لا يعقل، لابد من أن يكون الأمر أبعد وأكبر من ذلك بكثير... فجأة تراءى له السبب جليًا:

بسببه ومن أجله!... تحفز دمعه ولم ينسكب، خارت قواه وتجهم وجهه، شعر لحظتها بتعاسة سرت وانتشرت بسرعة في كل جسده، إحباط ثقيل لا يعرفه من قبل وبهذه القوة، كم تمنى لحظتها بعالم خالٍ من الشر والفقر والجهل والآلام والمرض... وهو يتجه نحو جراج العلاوي المكتظ بحافلات نقل المسافرين من بغداد إلى كل أرجاء العراق، هناك استقل حافلة متجهة إلى منطقة أبي غريب المزدحمة بثكنات الجيش وعساكرها حيث تربض كليته بطلابها وحيواناتها الأليفة المنتجة التي تعتبر الأخيرة في مواقع وأحيان أفضل بكثير من بعض نسل البشر بالنسبة إليه.

(١٠)

الحياة رغم قصرها لا تنتظر أحدًا ،

متى يستطيع الإنسان أن يفعل ما لا يستطيع فعله؟ . . هل عندما يحب يا ترى؟ ! . .

في ذات اليوم وعند المساء الذي كان صافيًا ترصعه النجوم المتألقة كالماسات كَرصت (•) سارة بأَنْهُر خفية في غرفتهما بالطابق الأول وهي تجلس ملاصقة لها على سرير أختها هامسة في أذنها كذبًا كهسيس الأفعى التي تتسحب ببطء بعد أن قررت مع نفسها أن تبعد آدم عن أختها بطريقتها الخاصة اللا إنسانية الخبيثة:

- هل تعرفين؟

بصوت واهن لكنه جاء جميلاً ورحيمًا بلا مبالاة:

- أعرف ماذا؟

- سوف لن تصدقي ما سأقوله!!

- تكلمي أرجوكِ دون مقدمات... أعني، لا خلق(•) لي على سماع أي شيء في العالم وما يدور فيه.

بغرور مطعم بخبث شيطاني عجيب نبرت:

- حتى لو كان الأمر يتعلق بآدم؟!

هنا وعت على نفسها، تجدد نشاطها فجأة، تدفق الدم في عروقها بقوة غير منتظرة منها، ففي اللحظة التي سبقت سماعها أسم آدم كانت إنسانة أخرى، تشبه جثة تتحرك بفعل أسلاك غير مرئية يتحكم القدر فيها والإيعاز يعطيها، لكنها ارتعشت لدى ذكر آدم أمامها، دبت الحياة فيها مجددًا، أدركت مستفسرة بذكائها المعهود:

(•) كرصت: اختلت

(•) خلق: رغبة

- هل التقيت به؟ أين ولماذا؟

- على رسلك... هو لا يستحق منك كل هذه اللهفة!!

تغير لون وجهها الوردي الجميل الطافح بالمودة والرقة، أصبح أحمر قانيا بعد أن احتقنت الدماء فيه وهي تسألها بامتعاض:

- لا تتدخلي فيما لا شأن لك به... وأضافت بتكدر حاولت أن لا يكون واضحًا على ملامحها ولم تفلح إلا في حدود ضيقه اكتشفتها سارة بسهولة:

- قولي ما عندك ولا تترددي، قلبي بات يسع آلام العالم كلها وعذاباته متجمعة دون أن أهلك أو يصيبني حتى الغثيان.

بسرعة البرق كأنها لم تصدق ما سمعته:

- لئيم لا يستحق حتى العطف، تربص بي اليوم صباحًا عند دار الإذاعة واضطرني أن أجلس معه في مقهى قريب ليشرح لي أسباب تردده وتمنعه من الاستمرار معك أو التقدم خطوة إيجابية نحو الأمام بعلاقتكما الجميلة، أقصد، التي تتصورينها أنتِ فقط جميلة، هو في نظري نذل يستحق الإعدام وسكتت كأنها تجس وقع كلماتها عليها.

- ما الذي أسكتكِ؟ قولي كل ما عندك، أعني كل ما قاله لكِ... أنا على استعداد لسماع أي شيء دون شجار أو نقار... أعدكِ بذلك، وفوق ذلك سأحقق لكي حلمكِ إن أردتِ!.

فرحت بالنتيجة، لم تكن تصدق بأنها تستطيع التأثير على أختها بهذه السهولة، تشجعت، بل كلمات أنْهُر بالفعل هي التي شجعتها على الاسترسال، تابعت بنبرات متوجسة كأنها تخاف على أختها من القهر أو المهانة:

- هو يقول بأنه غير مستعد للخطوة التالية، سألته محتدة:

- إذا كنت غير مستعد لماذا تلتقي بأختي حبيبة قلبي أنْهُر؟، لحظتها غرق في بحر صمته كدهاة السياسة، هذا أكثر شيء كرهته فيه... غادرته دون أن أوليه أدنى اهتمام بعد الذي قاله!، ثم أضافت بعطف زائف:

- ألم أقل بأنه لا يستحقكِ...

لم تتبس أنْهُر ببنت شفه ، نظرت لأختها بعمق كأنها تود رسمها، ثم تركت الغرفة نازلة إلى حيث يوجد الهاتف، رفعت سماعته دون خوف أو تردد أو حتى لحظة تفكير بالعواقب، أدارت أرقام الهاتف بتحدي وإصرار لا مثيل له.

• • • •

لمياء زوجة سعيد لم تتحمل نظرات أهل زوجها لها، ولا تعليقات مقبولة في كل صاعدة ونازلة وهي تذكرها بطريقة وبأخرى بما فعله أخوها دريد قبل فترة عندما سرق نقودها من خزانة ملابسها، حتى ذاقت لمياء ذرعًا بها وبالظروف التي تحيطها خاصة بغياب زوجها وتركه لها طفلين بلا مورد غير الراتب الذي تقدمه الدولة لأن زوجها توفي أثناء أداء واجبه وهو يخدم في الجيش، فقررت مع نفسها بأن تخلّص أخاها من التهمة التي لصقت به وتبعد عن نفسها تعليقات مقبولة الواضحة التي لا تحتاج إلى ترجمة كي تفهما، أعدت الخطة، ثم بدأت بتطبيقها بإحكام قل نظيره:

إذ ما أن حل الظهر في أحد الأيام التي وعدت نفسها بتطبيق خطتها، قامت بخلع ضلفة باب خزانة ملابسها الخشبية لتوهم الآخرين بالتشابه بين السرقتين، ثم صرخت من أعماقها كأن نارًا تلتهمها وهي تعيط بحشرجة:

- الحقوني، رأيت سارقًا يخرج من غرفتي ويتجه نحو السياج الخلفي المحيط بالبيت بعد أن حطم ظلفة باب خزانة ملابسي بغية سرقتي، أرجوكم أغيثوني، أمسكوا به، سارق... هناك، أراه بشكل جيد، مازال يتعثر بركضته كأن في أقدامه أغلال وأثقال... لا تجعلوه يهرب منكم... وهكذا كانت تصرخ وتولول مهتاجة بعد أن تجمع الأهل والجيران حولها غارقة في دموعها تلطم خدودها وتمثل على أنها ضحية منهارة.

لم يمسكوا أحدًا، ولم يشاهدوا سارقًا، ومع ذلك نجحت في تهميش حادثة السرقة التي تعرضت لها مقبولة وكأنها تقول بشكل غير مباشر "انظري، في عز النهار أراد أحدهم سرقتي، فما بالك لو تم سرقتك في عتمة الليل؟!". سرعان ما كاشفت لمياء آدم بسرّها بعد أن أخذت وعدًا منه بعدم فضحها عندما أسرّته على مكنونات نفسها

لإراحة ضميرها من عذاب الكذب التي كانت أوزاره ثقيلة على قلبها ثقل الأحجار كما قالت له وقتها.

• • • •

تلقى آدم صوت أنْهُر بكثير من الفرح ولم يصدق سمعه:

- يا الله... أنْهُر!... كيف أنتِ؟ أراد أن يكمل قاطعته مستاءة:
- اسمع، أريد أن أعرف بالضبط ما حصل مع سارة، ماذا قلت لها؟ ونوهت متابعة: بالحرف يا آدم، المسألة تهمني جدًا.
- ماذا هناك يا أنْهُر؟، أنا لست بمنافق، الأخير هو الوحيد الذي يدعي البراءة المطلقة وهذه ليست سجيتي، أراكِ تسرعين بالحديث كأن أحدهم يركض وراءك، أرجوكِ لا تفعلي بنفسكِ كل هذا، لا شيء في الحياة يستاهل دمعة من عينيكِ الجميلتين ولا حتى أنا... قاطعته مجددًا:
- لا تخرج عن الموضوع، سألتك سؤالاً محددًا أرغب بجواب حاسم يضع النقاط فوق الحروف، أما عن صحتي فلا تخف عليّ، أشعر بقوة وطاقة أكبر بكثير مما تتصوره، الدليل اتصالي بك أمام أهلي وبحضورهم!!.

فطن إلى هذه الجزيئة التي غابت عن ذهنه، شعر بخوف يلف بدنه، سأل نفسه سارًا "اللعنة، لم أنتبه لذلك، تتحدى أهلها رغم ما فعلوا بها وما عانت، إذن الموضوع فعلاً خطير". ردَّ عليها بجدية حاسمًا النقاش بكلمات قليلة لا تقبل غير معنى واحد:

- كل ما قلته هو أن تقف بجانبنا وتساعدنا حتى يتسنى لنا إعلان خطوبتنا وحددت لها وقتًا رأيته منطقيًا يخدم ظروفنا على أن لا يتعدى نصف عام أي بعد أن يتزوج أخي مروان بشهر، ثم سألها بلطف مقللاً حدة الأجواء التي بدت مشحونة بالغضب والتحدي:
- ها يا أنْهُر، هل أجدت الدفاع عن قضيتنا أم ترينني محاميًا فاشلاً لا يستطيع أن يقسم الشعير بين حمارين؟! وأضاف: لا تحزني... أعدكِ بأن كل شيء سيكون على ما يرام بشرط أن لا نختلف ونتشاجر من أولها.

صمت كصمت القبور المهجورة، سمع أنفاسها عبر خط الهاتف، تشجع ثم طفق مجددًا سائلاً:

- كيف هذا، هل تريدينني أن أنتحر حتى أؤكد لك حبي؟ اللعنة، أي فتاة اخترت الارتباط بها؟ لا تفهم غير الصرامة من لغة... ثم خفف من لهجته وجعلها أقرب إلى الرجاء والتسبيح: ابتسمي، سأراكِ، نعم، هكذا، أكثر، بل أريد أن أسمع!... سألته ببحة خفق بقوة لها قلبه:

- تسمع ماذا، ابتسامتي؟

- من قال ذلك؟

- تنكر؟

- بل أعترف!

- بماذا؟

- بأنني أهيم في حبك كعابد في معبد.

- وبعد.

- أسمع ضحكتكِ وكلمة تاقت أذناي لسماعها.

- خوش(•)... ثم ضحكت بشهقة

- هل تعرفين؟

- أعرف ماذا؟

- أراكِ بعقلي وأفكر بكِ بقلبي.

- فيلسوف أم شاعر؟

- عابد لا ينوي غير ذبح نفسه وتقديمها قربانًا بين يديكِ

علت ضحكتها، قالت:

- جعلتني أشعر بحرارة الحياة وأحبها مجددًا بدقائق.

- كي تعرفي من أكون ولا تسيئي الظن!

- خوش... ثم استدركت بحنية طاغية تسربلت من بين شفتيها، من طرف لسانها لحن خالد لن يزول:

(•) خُوش: جيد

- لن أشك بنفسي مطلقًا، فأنا أنت، شخص واحد، بروح واحدة، لن نجعل القدر بجبروته يفرقنا فكيف لو كان أنس مننا؟.

فهم ما قصدته، عرف بأن سارة لعبت دورًا غير نظيفا معها بعد أن التقاها صباحًا، سرّ ذاته هامسًا "الموضوع لا يحتاج إلى كثير من النباهة"... ابتسم بمرارة أو سخرية، يرثي بحسرة داخلية غير ناطقة بعض الكائنات البشرية لتصلفها ووقاحتها وعنادها، الحياة لا تستحق هذا كله، هو يعرف ذلك، ويعرف بأن هناك أصناف من البشر يعطون للحياة صفاتها ومعناها مثلما يريدون، في حين الحياة في عُرفهم لا معنى لها ولا تستحق كل هذا العناء والصراع والموت النهاية الحقيقية الوحيدة، ثم راح يردد على نفسه متابعًا، مسكينة سارة كأخيها كمال لا يفقهان ما ينتظرهما، يصدقان كأنهما سيخلدان كالمومياء المصرية وأن خلدت فهي تبقى مجرد مومياء لا روح فيها ولا نبض يرن بداخلها... سأل نفسه كالمجدوب "لماذا تعتقد سارة بأنها سعيدة بترفها الفكري؟ الفكر لابد أن يكون أداة لمحاربة الفقر، هو ليس ترف كالذي يؤمن به الملوك والسلاطين، أن تشعر بألم وفقر ومرض أخيك الإنسان هذا هو الفكر الحقيقي، وإذا لم يحصل، لابد من أن نجعل الإنسان يصعد درجة أرقى، أعلى في سلم التطور الحياتي النظيف الخالي من الجهل والمرض هذا هو الفكر الذي يتوجب علينا الإيمان به وإلا يكون الطاعون بعينه، ألا نضع العصي بين العجلات ونقول، تحركوا... كي يضحكوا". وعى على نفسه، تذكر كلمات أنْهُر الأخيرة، رددها بهمس، أنا هو أنت بروح واحدة... ركز فيها، تعلق وهام بها، حلّق معها إلى أعلى الطبقات التي يمكن للروح أن تصلها أو تبلغها سابحة في نعيم الراحة، رد عليها بعد أن تقهقر عذوبة:

- متى أراكِ؟ هذا هو المهم، اشتقتُ إليك كثيرًا وحق ما أعبد.

- دعني أفكر قليلاً، سأتصل بوسن وأبلغها النتائج.

- حسنًا، ثم تذكر أمرًا:

- على شرط دون محاولة انتحار جديدة!

رددت ورائه بعفوية كالطفلة بعد أن نست عذابها وألمها فجأة:

- دون محاولة انتحار جديدة... أعدكِ يا حبيبي

- ماذا قلتِ؟

- قلت ماذا؟

- الكلمة الأخيرة

- لم أقل شيئًا، أردفت:

- هل سمعت شيئًا لم أسمعه أنا؟

ذاب في همساتها ومراوغتها وعدم رغبتها في الإفصاح، قبل منها ذلك، هو لا يريد غير رضاتها، سعادتها وهناءها، قال ضاحكًا:

- هل يسمح وقتك؟

- بماذا؟

- سأقص عليك حكاية قصيرة لذيذة حدثت لي عندما كنت طفلاً، هل ترغبين في سماعها؟

- بالتأكيد، أتوق لمعرفة حياة طفولتك الأولى، كيف كنت تعيش، وفيما إذا كنت شقيًا أم لا؟... وقبل أن يبدأ تذكر أمر مهم، قال:

- ماذا عن أهلك؟، لا نريد أن نخلق مشكلة جديدة، ثم باقتضاب مازحًا:

- ربما هذه المرة لن ينقذونكِ من الانتحار!

- لا تقلق. الأمور تسير نحو الهدوء والتراضي، سيف ابن خالتي غيّر رأيه بعد أن عرف ما حصل، أضافت بوداعة: أعرف كيف أتدبر أمري. كل شيء تحت السيطرة كما يقال. ثم متعجلة:

- هيا أحكِ لي القصة ولا تعذبني أكثر.

- لم يخلق بعد من ينوي عذابك، تابع برنة هادئة تتناسب مع الموقف كأنه ينوي الغناء مقلدها بكلمتها المشهورة:

- خوش، وقبل أن يشرع بالسرد سألها بحذر:

- لماذا حاولتِ الانتحار؟!...

صمت هائل ثقيل كصلاة الغفران، طال أمده، رن صوته مجددًا:

- قهرتكِ!، ذكرّتك!، ثم طفق:

- أعتذر...

- أختي نداء سألتني نفس السؤال بعد أن رجعت من المستشفى وتلقيت العلاج هناك. أجبتها لحظتها "أنا لا أعرفه جيدًا، مازلت أجهله، لا يعترف مجتمعنا بالحب، خاصة للمرأة. يعتبرونه خروج عن الأصول الأعراف، ولو لم أقدم على الانتحار، هل سيتغير المجتمع من أجلي ويقبل علاقتي؟ وقتها بكت أختي، نشجت، غزتها الدموع ولم أعرف لماذا، هربت من أمامي كصاحبة ضمير مذنب يتألم". توقفت برهة، ثم شرعت:

- أسألك أنا، لماذا ينتحر الإنسان؟!، لم يرد عليها، شعر بالحرج والوهن، نقذته باسترسالها: الأصح أن نقول، لماذا يحيا الإنسان؟ عندما نعرف الإجابة نعرف لماذا يفكر بإنهاء حياته بإرادته، ساعتها، لم أرَ هدف من بقائي على الأرض، لم أشعر بأن هناك شيء يربطني بالحياة، كنت أجهل أشياء كثيرة عنك، وقت تعارفنا لم يتعد أسابيع، ما جمعنا وزاد من إعجابنا بعضنا ببعض هو إيماننا المشترك بالأشياء العامة التي تحيط بعالمنا، لكننا نجهل أشياء كثيرة تخصنا، ثم ترددك وعدم قدرتك على حسم الأمور، الضغوط التي تعرضت لها من قبل أهلي، حتى من أبي الذي كنت أظن بأن رحمته ستكون حاضرة كرحمة الله لم أجده كما كنت أتوقع، غاب عني كما يغيب عن أمي، لم أقدر أن أفهم رد فعله لحد هذه اللحظة، سامحته منذ زمن، في نظري مسكين يحتاج إلى علاج، كلها أمور تجمعت جعلتني أفقد السيطرة على نفسي وأقدم على الانتحار... ثم غيرت مسار الحزن بالظاهر، نوهت ضاحكة وداخلها يلتهب:

- لن تخلص مني، أنا مثل لاصق التمساح، مجربّ ومعروف... هيا ماذا تنتظر، كلي آذان صاغية، أم تريد أن يحضروا أهلي لتفسد عليّ متعة الاستمتاع؟!

برقة لم يتقصدها قال:

- اسمعي إذن:

كنت مسلوعًا(•) ومهلوكًا في عمر لا أذكره بالتحديد، لكنني أستطيع أن أجزم كان ما بين السادسة والسابعة جالس بين اثنين من أصحابي على رصيف شارعنا الترابي

(•) المسلوع: الشخص الضعيف

متلذذًا بما يفعله أحد الجالسين معنا بزرق المارة الذين يجلسون في السيارات التي تمر أمامنا بحقنة كالتي يستعملها الأطباء بماء وسخ يملئه من الخندق الأشبه بنهر بردى من حيث عرضه وعمقه الموجود خلف الرصيف الذي كنا نجلس على طرفه حيث يشق منطقتنا نصفين وهو كل ما يدخل ضمن معنى الصرف الصحي للحي، يزرقها كما قلت على المارة والجالسين في السيارات التي تمر أمامنا بحذر وسرعة ثم يخبئها كأنه غير معني بما يحصل والناس يتلفتون ويلعنون ولا يعرفون من أين يأتي الماء الذي يرشهم، ثم ينحدر نحو الخندق، يملأ حقنته اللعينة سبب مسراتنا ويعود لنا ويكرر المشهد، نضحك من قلبنا، ندق الأرض بأقدامنا مكهكهين بما يحدث ونحن جلوس... حتى حدث أمر قلب جلستنا إلى كدر. مرت سيارة تاكسي يجلس فيها رجل عجوز زجاج نافذته مفتوحة يتهوى منها وما أن أصبح في مرمى هدف صاحبنا الشقي حتى زرقه بالحقنة التي معه... عاط العجوز بحنق طالبًا من السائق التوقف. نزل من التاكسي متوجها إلينا... هرب الشقي الذي لا أذكر اسمه الآن ولحقته أنا خوفًا، والعجوز الذي له رأس مفرطح (•) كالنهد الاصطناعي المحشور بالخرق، كانت ركضته لا تتناسب مع سنّه، لعينًا كان كالطرطور (•)، يشتم ويسب ويهذر ويركض محاولاً اللحاق بنا، بقي ثالثنا جالسًا على الرصيف لم يهرب، لأنه لم يفعل شيئًا، وأنا كذلك لم أفعل شيئًا، لكن الخوف والهلع الذي سيطرا عليّ جعلاني أطلق ساقي للريح مثل صاحبنا، والمصيبة أو الحظ المنحوس جعل العجوز يترك المجرم ويركض وراء البريء الذي هو أنا كالعادة عندما نحاكم الناس على أفعالهم، فصديقي صاحب الحقنه كان سريعًا في الجري كالغزال لم يستطع العجوز ابن المنخورة مجاراته، اكتفى بملاحقتي على أمل الإمساك بأحدنا في أقل تقديراته؛ يرتدي ثوبًا ريفيًا يحزم رأسه العقال وتتسربل الكوفيه الحمراء المنقطة بالأبيض على كتفيه، كنت مذعورًا لم أمر بموقف كهذا من قبل، الأدهى أني لم أقترف ذنبًا، كنت أتمتع بالمشاهدة فقط، أركض والعجوز ورائي وهو يضع يده على عقاله وكوفيته ويمسك عباءته السوداء الشفافة باليد الأخرى بعد أن طبقها

(•) الطرطور: التافه ، القلنسوة الطويلة العنق

(•) مفرطح: مبسوط وعريض

ولفها كالجريدة. وصلت في بقعة نائية قريبة من سوق علوان وهو سوق المدينة الذي كان وقته مغلقًا؛ طمست في وحل تفاجأت بوجوده، لم أستطع تكلمة الفرار من وجه العدالة!، انغرست إحدى فردات حذائي البلاستيكي القهوائي اللون في الطين، حاولت وأنا أشعر بأن نهايتي ستكون على يد ذلك الرعديد الذي لم يستطع اللحاق بصاحبي المذنب فاختارني لضعفي وبطئ جريي. أمسك بي من رقبتي كما يمسك الجزار الخروف قبل ذبحه. أول ما فعله بصق في وجهي كرد اعتبار عن الماء الذي رشه به صديقي، ثم صهل:

- يا ابن الكلب، اقسمت بأن لن اتركك، وها أنت الآن في قبضتي...

حلفت له بأغلظ الإيمان بأنني بريء لا أملك حقنة، لم أمسك واحدة في حياتي قط وأنظر إلى فردة حذائي المغروسة في الطين وهو يجرني بعيدًا عنها؛ عيني تعلقت على فردة الحذاء، كانت تعني لي الكثير، اشترتها لي أمي قبل فترة قصيرة وأنا سعيد جدًا بها، أغسلها وأمسحها كل ساعة، أراها أمامي مغروسة في الطين والرجل يجرجرني لا أعرف إلى أين، أو ماذا يريد أن يفعله معي، رجعنا إلى النقطة التي كنا فيها، الرصيف وسيارة التاكسي الذي سائقه مازال ينتظر بداخلها يدخن سيجارته بنهم ولذة، غير عابئ بما يحدث حوله وصاحبنا الثالث الذي لم يهرب يترقب المشهد بقلق، كنت في حال لا يحسد عليه مثل جرو مبتل، واجهني أمامه، كان هو الأكبر فينا لم يبلغ بعد سن الحرب، أقصد أكبر فقط بفارق العمر، فقد كان طفلاً مثلنا لم يتجاوز العاشرة، سأله بحدة جائرًا زائرا:

- من الذي زرقي بالماء النجس؟ قل الحقيقة وإلا قبرتكما هنا معًا!.

حمدت الله لأنه لم يتردد طويلاً، أعني كان طفلاً بريئًا فقال الحقيقة بعد صفنة قصيرة ثم صاء كطير البطريق دون مرواغة وبحرارة صادقة:

- ليس آدم، بل الذي هرب. لو أمسكته ستجد الحقنة معه، نحن لا نملك حقنة، صدقنا...

لم يكتفِ بشهادة صاحبنا الصادق، توجه لي بسؤال مباغت لم أتوقعه وأنا في ذلك السن الصغير، وهو مازال معرتًا بياقة قميصي وفردة حذائي مغروسة في الطين بعيدًا عني:

- هل أنت مسلم؟...
وأنا أتفرس بوجهه نعقت:
- لا
- من أي ملة إذن؟...
أجبته على طلبه اللحوح وأنا أتعذب تحت نير سيطرته وعاد يسألني:
- أحلف بنبيكم بأنك بريء ولم تحمل حقنة في يدك ولم تزرقني بالماء النجس؟... كان أسهل من هذا لا يوجد لحظتها، كنت أريد الخلاص منه بأي طريقة، ثم جاء الفرج بالحلفان، حلفت بقوة، بصوت مجلجل فاجأ الجميع، لم يتوقعونه بأنه كان يصدر من حنجرتي، صوت الخوف عظيمًا كصوت الحق، قلت له أقسم بنبي الذي أحبه بأنني لم أمسك حقنة قط في حياتي، ثم عويت: اتركني أرجوك، أريد أن أجلب فردة حذائي، سأنسى مكانها، لابد من العثور عليها... وقتها فقط ترك رقبتي الذي كان كمجنون يبيت في المقابر ابن الذين... بعد أن شبعت بكاء ونحيب ونشيج وعدت أبحث عن فردة حذائي في الوحل، اخرجتها عائدًا إلى البيت من أجل تنظيفها، ثم جعلتها تلمع كما كانت وأحسن... ضحكت أنْهُر ملء فمها، قالت:
- آه يا آدم... لك مغامرات لا أتوقعها منك!.
- ما علينا، خلينا فيما نحن فيه رعاك الله. أضاف:
- سأنتظر ردكِ.
- اعتني بنفسكَ يا أغلى الناس... وانقطع الخط، لكن حديثها مع أختها سارة لم ينقطع، ظلت معها طول الليل تعاتبها على كذبتها وتحريفها لكلمات آدم بعد أن فضحتها أمام أختها نداء بكل صراحة وسارة ما انفكت عن البكاء وهي تردد مخنوقة بالعبرات:
- أردت أن أنتشلكِ من وحل المشاكل التي وضعت نفسكِ فيها، هذا جزائي لقاء خوفي وحبي لكِ؟، صدق من قال، خير تعمل شر تلقى... تستمع لها أنْهُر وتهز رأسها أسيفة على محاولات أختها التي لم تظن بأنها سيأتي اليوم التي تراها فيها بهذا الضعف والابتذال الآدمي.

(١١)

غالبًا ما يكتشف الإنسان متأخرًا بأن نسيجه الملتهي به منذ سنوات لحياكته لم يكن بالحقيقة سوى نسيج من خيوط العنكبوت . ومن يحاول الصعود إلى القمة جريًا عليه أن يحسب المسافة جيدًا ، وإلا سيتعب ويتقهقر قبل أن يصل .

ما حدث لنصير لم يكن في الحسبان ولم يتوقع أحد حدوثه... فذات مساء وأثناء جلسته المعتادة في الشرب صرخ من أعماقه متألمًا، متأوهًا كأن مسخًا لبسه:

- أغيثوني، ألحقوني، سأموت، معدتي كأن سكينًا حادة تجرحها وتقطعها...

ثم ينهر زوجته مقبولة بلا احترام فجأة:

- ماذا دهاكِ يا امرأة، أفعلي شيئًا، نادي لأخوتي أو اتصلي بالإسعاف، لا تنظري لي هكذا كالبلهاء التي لا تعرف يسراها من يمينها، أم تنتظرين أن أنفق حتى ترثينني؟...

المسكينة تنظر له بعينين ملأتهما الدموع وهي تحاول أن تعرف ما أصاب زوجها بجلسته وهو يعاقر الشرب. طلبت من نوري ابنها الكبير أن يبلغ أعمامه ويحضرهم معه وهم لا يبتعدون عن سكناهم غير أمتار قليلة، خرج راكضًا لا يلوي على شيء كالمجنون ببيجاما البيت نحو بيت جدته يطلب المساعدة... في حين تجمعت أسرة نصير حوله وميسم وأخته ضي يبكيان دون أن يعرفا ما يحصل لأبيهما الذي بدا السكر عليه واضحًا من نطقه وحركاته.

دخل نوري بيت جدته، عاط بهم منفعلاً، لابكًا كعادته:

- أبي... أبي...

فتلقفته جدته من ذراعه وهي تحاول أن تهدئه متساءلة:

- أهدأ يا حبيبي وأجبني، ما به أبوك؟ ما الذي حصل له؟

فلبك مجددًا:

- يتمرغت، أقصد، يتألم ويتلوى، أمي تقول لابد أن يحضر مجيد وآدم لأخذه إلى المستشفى وإلا سيموت... يشكو من معدته، يقول، سكاكين حادة تقطع أحشائها... نعم، هو يقول ذلك.

ثم بكى نائحًا وأدبر فارًا، راجعًا إلى دارهم مرتبكًا والقلق يأكله على مصير أبيه الغامض بالنسبة له...

عرف عن نوري بأنه ولد مدلل، جاء بعد طوال عناء وانتظار ومراجعات عند أحد أفضل أطباء العراق المتخصصين في الأمراض النسائية يدعى أنور القيمقجي، عيادته في الدور الأول الأظلم أبدًا في منطقة مكتظة بالسكان والسيارات والمحال التجارية اسمها ساحة الرصافي التي يقف في منتصفها منتصبًا تمثال شاعر العراق الكبير معروف عبد الغني الرصافي ومنه سميت الساحة؛ يتسلق زبائن الدكتور سلمات الدرج المؤدي إلى عيادته بمشقة، لا يصلونها إلا بعد أن تطلع أرواحهم كما يقولون ذلك دائمًا وأنفاسهم تنقطع من عدد سلمات الدرج التي لا تعد، وسوء إنارتها.

دام علاج مقبولة عدة سنوات حتى رزقت في نهاية المطاف بنوري فدلل لهذا السبب والعلم عند الله. في عهد طفولته كان رفيعًا، أسمر يشبه عصا راعي الغنم، طيب القلب، نقي السريرة، لم يحب يومًا المدرسة، تركها واشتغل يساعد أباه في متجره كمحاسب يعد له نقوده خاصة بعد أن هلك الدينار العراقي بفضل سياسة الكايزر الرعناء الآخذه بالسوء كلما تقدم به العمر فأصبح الدينار يوزن لكنه لا يعد... في تلك الفترة من مراهقة نوري سمن الشاب وثخن عظمه، تربرب لحمه وطفح بالشحم، وبات لا يتحرك إلا متدهدرًا كالكرة.

لبست أم نصير عباءتها بسرعة وطلبت من ولديها آدم ومجيد أن يسرعا ويلحقا بها لأخذ أخيهما إلى المستشفى، لم تمض إلا دقائق حتى كان مجيد يقود سيارة أخيه نصير الزرقاء الفاخرة من نوع "سوبر كروان" التي أبقى عليها وابتاع سيارة مجيد عندما أحتاج لاستكمال مبلغ لشراء بيته... وها هو يتلوى في المقعد الخلفي بالسيارة، يبكي كالأطفال ويصيح:

- انقذوني... سأموت... أرجوكم... بالله عليكم... وآدم يحاول تهدئته دون فائدة تذكر، وصلوا مستشفى ابن البيطار الأهلي التي لا يبتعد عن مسكنهم إلا بضعة

كيلومترات المشيدة حديثًا... لم يجعلوه يتألم كثيرًا، المستشفيات الخاصة تعمل بكادر له سرعة البرق وخفة السحرة، ما أن رأوه وفحصوه حتى قرر الدكتور المختص بإجراء عملية استئصال القرحة من معدته دون تأخير.

• • • •

البيت يعتبر لنوري وأهله جديد عليهم، ابتاعه نصير مؤخرًا بمساعدة أخوته. نظر إلى المبلغ الذي بحوزته رآه ناقصًا بضعة آلاف دينار، فطلب من جديد مساعدة أخيه مجيد، الأخير لم يقصر معه، قال بكرم منقطع النظير:

- خذ... هذه سيارتي، بعها وحل أزمتك، لا أملك اليوم غيرها، أنا كما ترى أخدم في الجيش ولا أكون في بغداد إلا في الإجازات وفي فترات متباعدة كحلول الأعياد...

نصير لم يكذب خبرًا، تصرف بسيارة أخيه واستكمل المبلغ الذي بحوزته واشترى البيت. واجهته مشكلة لم يستطع حلها، هو كذلك يخدم في الجيش ولا وقت لديه، طلب من آدم أن يقوم بتسجيل البيت باسمه؛ وافق الأخير بطيب خاطر على مقترحه، قام بكل الإجراءات الرسمية القانونية التي تطلبت وقتا طويلاً لاستكمالها، ظهرت على السطح مشكلة أخرى أمام آدم هذه المرة وهو يتابع معاملاته لتسجيل بيت أخيه باسمه في الشهر العقاري...

الموظف المسؤول عن ضريبة بيع وشراء العقارات واجهه وهو يتلمظ كأنه يتشفى بالسؤال الروتيني الذي لم يتوقعه آدم:

- من أين لك المال الذي تريد به شراء البيت وأنت مازلت طالبًا جامعيًا؟

تفاجأ من السؤال، الموظف باغته، بقي حائرًا بالجواب لائذا بالصمت مختفيًا ورائه... أعاد عليه مسؤول الضريبة سؤاله بطريقة أخرى كأنه يناقره ويشرح له الأسلوب الأمثل للتعامل في دوائر الدولة الشرقية:

- خذ أوراقك كلها وارجع لي غدًا بعد أن تشرح الأمر لأهلك عما ينتظرك وهم سيعرفون الفولة كما يقال... أدم سمعه جيدًا، فهم من فوره إلى ماذا يلمح الرجل، هو يريد رشوة مستورة، نظر إلى عينيه فوجدهما حمراوين كأنهما لشيطان، قال:

- حسنًا، سأتفاهم مع أهلي وأحضر غدًا مع كل ما يلزم، قال الكلمة الأخيرة وهو يفرك إبهامه وسبابته بطريقة مكشوفة ومعروفة لدى الشرقيين، ثم غادره دون أن ينظر وراءه.

عند المساء اجتمع بأخيه، شرح له ما حصل مع موظف الضرائب، نصير رجل يفهم بهذه الأمور جيدًا، توقع حدوثها قبل أن يحدثه أخيه عنها، لكنه كان يتأمل بعض الخير من أسلوب آدم الجدي الرصين المعروف بقدرته الفذة على الإقناع، الآن عليه أن يجهّز للموظف مبلغًا إضافيًا لو أراد أن ينهي بسرعة عملية تسجيل البيت، مد يده في جيبه، أخرج له ظرف كان جاهزًا، أشار لآدم بتكلف ناصحًا:
- سلّمه مع حزمة الأوراق التي عندك وهو سيتصرف بذكاء خاطف، سينهي معاملة التسجيل بسرعة لا تتوقعها!.

لم يعقب آدم على ما سمعه مباشرةً، شعر بالخوف والرهبة حيال ما ينتظره، مرت عليه لحظات بطيئة أحسها طويلة كليل الشتاء وهو يتفرس أخيه دون أن ينطق، أراد أن يهضم ما تلقفته أذنيه... وبعد أن عاد إليه وعيه سأل أخيه بلا تردد:
- لماذا لا تحضر معي وتسلمه بنفسك ما تريد، تنهي الموضوع وتخلصني من هذه الورطة التي أجهل شيطانها، ثم عدل عن جملته الأخيرة: أقصد مصيرها؟!
في هدوء بدا غريبًا ضحك ضحكة مقتضبة وهو يهز رأسه علامة الاستخفاف:
- كن رجلاً، الحياة لا تسير كما تتمناه وتفكر به وتحب أن تكون، لابد من مواجهتها بالأسلوب الذي يفهمه الآخرون، صاحبك ذاك مسؤول الضرائب يفهم هذا جيدًا، هو يعيش من وراء تجارته التي عبر عنها بشكل فاضح، إذن عليك مجاراته فيما يرغب به من أجل إتمام الصفقة دون عرقلة تذكر، تسلح بالفطنة، هذه التجربة ستفيدك في الأيام القادمة من حياتك خاصة وأن الإنسان منا لا يفقه الحياة بالكلام بل بالتجارب... قال ذلك وهو يرمقه بنظرة ذات مغزى. وافق على مضض، شعر بالاختناق وكأنه سيواجه غدًا منيته المحتومة.

عند صباح اليوم التالي سارت الأمور كما أشار لها نصير... دفع آدم ملف الأوراق والظرف الممتلئ تحتها، لم يعر الأقرع المسن السمين موظف الضرائب في الشهر العقاري للأوراق باهتمام بقدر حرصه على تخمين ما موجود في الظرف وهو يتحسسه خفية من تحت الأوراق، سأله وهو يداري قلقه بابتسامة:

- هكذا ستسير الأمور على أحسن حال، نعم، سوف لن أجعلك تتأخر كثيرًا يا ولدي، ما هي إلا دقائق حتى تلتحق بجامعتك دون عناء... تفضل اجلس لماذا أنت واقف؟ ثم نهض من مكانه فرأى آدم كرش الرجل منزلقًا إلى أسفل بطنه كبطن امرأة حامل في شهرها الأخير وأزرار قميصه تكاد تنفر من مكانها فلم يصدق ما كان يسمعه ويراه... أتى السمين الممتلئ بالشحم واللحم بكرسي، وضعه أمام مكتبه بعد أن نظفه بكف يديه المنتفخة التي تشبه كف الضفدع بسرعة ظهر متمرس عليها من حركات أصابعه العارية من أي خاتم يزينهن أو يكسر وحشتهن... ما هي إلا دقائق قليلة حتى أصبح آدم يمتلك عقارًا ليس له!.

• • • •

انتقل نصير مع عائلته إلى بيتهم الجديد القريب من بيت أمه الذي كان يسكنه رجل يعمل سائقًا للشاحنات... يعرفه نصير معرفة سطحية، لكنه ومع ذلك أسرّه عن رغبته وقراره في هجرة العراق بعد أن يبيع البيت. كان البيت ركنًا يستحق الشراء. جميلاً مطلاً على شارعين، بحديقة غنّاء معتنى بها، باب البيت الخارجي واسعًا مشبك ومزخرف الحواف أبيض الطلاء، الممر الذي يفضي إلى البيت مبلطًا بحجر أحمر جميل يلمع كأحجار الكَرنات المعاملة بعد قشطها وتلميعها وتقطيعها، ثم الباب الخشبي الداخلي العريض غامق اللون يفتح إلى الداخل، يواجهك المطبخ إلى يسارك بشباكه المطل على الحديقة الذي تدخل منه أشعة الشمس فتجعله منذ لحظات الفجر الأولى متوهجًا، مضاءً براقًا ومحببا لمستعمليه، تخرج من المطبخ تواجهك فسحة ملأتها مقبولة بالسجاد الإيراني الأصلي غالي الثمن تؤدي إلى غرفة الضيوف ثم غرفة النوم للزوجين وغرفتين متلاصقتين للأولاد وبعدها يأتي الحمام الذي يحوي التواليت على الطراز الأوربي...

مضت على حياتهم في بيتهم الجديد أيام قليلة، ملئت مقبولة كل فراغات البيت بشتى أنواع السلع المنزلية التي تحتاجها والتي لا تقربها كذلك كمهفات الخوص اليدوية الصنع!، أغلبها تكرر ابتياعه دون معرفة الأسباب التي دعتها لفعل ذلك، لم يناقشها زوجها الملهم بها نصير في هذا، بل أعطاها كل ما تحتاجه من نقود دون أن يتعرض لسؤالها فآمن لسانها. بدورها جعلت كل أيامه هناء متصل لا يسمع منها

رنة ولا صدى... فاستقرت بذلك جلسات سكره اليومي وهذا كل ما كان يطمح ويحلم به منذ زمن ليس قصيرا بعد أن يعتزل بأسرته في بيت بعيدًا عن أهله... لكن الحال لم يستقر به، وها هو ينقل إلى المستشفى بصحبة أخيه ويجرى له عملية مستعجلة لاستئصال القرحة من معدته وهو مازال لم يسكن في بيته أكثر من أسابيع قليلة لا تتعدى عدد أصابع اليد الواحدة التي لا تقدر على التصفيق بمفردها.

(١٢)

تناوب الأخوة كلٌّ حسب وقته وتفرغه على السهر في خدمة نصير الذي لم يعد أخاهم الذي يعرفونه قبل إجراء العملية، فقد أصبح وديعًا يسمع الكلام، لا يناقش كثيرًا ولا يتدخل فيما لا يعنيه إلا بالنصيحة الرقيقة التي لا يريد من وراءها غير تسجيل حضوره وهو يغمغم بكلمات بالكاد تكون مسموعة خالية من رنة الحياة!...

لكن حصة الأسد في مهمة السهر والرعاية لأخيهم وقعت على عاتق آدم دون منافس لأنه المدني الوحيد الباقي في أسرته، إحدى أمراض الحرب؛ أي حرب؛ أنه نادرًا ما يبقى رجلٌ مدنيٌ متواجدٌ في بيته يخدم أسرته إلا ما ندر وشذ، آدم كان وجوده بسبب دراسته الجامعية استثناء يُحسد عليه من باقي الأُسر العراقية من الجيران والأقارب، في حين ظل مروان يعد ولا يفي بوعوده، ففي مساء كان نصير يتألم بلا إنصاف من أوجاع كان يظنها ستقتله، أصرّ مروان الذي كان في إجازة في تلك الليلة أن تكون حصته في السهر، فأعلن لأهله وبحضور آدم عن قراره دون تفكير كعادته:

- يمكنكم الذهاب، سأتولى العناية بنصير والسهر على راحته، لا تقلقوا اعتمدوا عليّ. تدخل آدم الذي يعرف إمكانياته:
- لا تبالغ، الليل طويل، سوف لن تقاوم، الساعة الآن لم تتجاوز السابعة مساءً، لنتناوب على السهر، أذهب أنت بصحبة الأهل، نم ثلاث أو أربع ساعات، ثم أرجع، وقتها ستتحمل السهر والعناية بأخيك، فيتاح لي الذهاب إلى جامعتي عند الصباح دون أن أشعر بإرهاق أو تعب، ها... ما رأيك؟

كالبغل الذي لا يفهم ردَّ مصرًا معاندًا:

- لا، اعتمد على ما أقوله، وأضاف: الدكتور لا يسمح لكم بالبقاء هكذا حوله، هو يحتاج إلى راحة، أرجوكم، ثم أدار رأسه العنيد الذي جففه الغباء نحو آدم ونبر: إذا احتجت لشيء سأتصل بك.

غادرت الأسرة المستشفى وهم غير متأكدين من مواصلة مروان السهر الليل كله، عادوا والطمأنينة أبعد ما تكون عن قلوبهم والشك يساورهم.

ما أن اقتربت الساعة من منتصف الليل حتى رن الهاتف في منزلهم رنات أيقظتهم، رفع آدم سماعة الهاتف قلقًا، فوصل إليه صوت مروان المنهك وهو يتثاءب:

- عزيزي آدم أرجو أن تحضر!

- ماذا؟ أقصد لماذا؟ هل ساءت حالة نصير؟!

- كلا، حالتي هي التي ساءت!

- ما بك؟

- أشعر بالوهن والتعب والرغبة في النوم!

هدأت أعصاب آدم قليلاً عندما سمع هذا، قال باستهانة واضحة لا تدل إلا على النفور:

- لقد نصحتك ولم تتعظ، قلت لك بأنك لن تقاوم الليل بطوله، هز رأسه علامة الامتعاض، أضاف:
- حسنًا، أمهلني نصف ساعة فقط... تنهد مروان الصعداء وأغلق الخط... سألت الأم ابنها عما يحدث، طمأنها وهمّ بتغيير ملابسه، أخذ أول تاكسي لقيه واتجه نحو المستشفى. وصل. صعد الدور الثاني حيث يقيم أخيه، وجد مروان نائم على كرسي بجانب نصير وهو يطلق شخيره كعجوز في التسعين... ايقظه برقة وطلب منه أن يذهب ليتولى النوبة...

جسّ نبض أخيه الذي لا يسمع سوى هسيسه وأنينه، ساعة يطلب فيها الماء ليبل شفتيه اليابستين، وساعة يصرخ ويصيح ويطلب بإلحاح كإلحاح آلة القانون حضور الدكتور الذي لا يحضر، معلل الأخير رفضه بأن الآلام أمر طبيعي لابد من مصاحبتها للمريض بعد إجراء عملية استئصال القرحة... فتح آدم كتابه الذي أحضره معه وكان رواية "السكرية"؛ الجزء الثالث من ثلاثية محفوظ. قرأ كيف زار كمال عبد الجواد ابني أخته خديجة في السجن بتهم متناقضة، أحدهما لأنه مؤمن متعصب لدينه، والآخر لعدم إيمانه واعترافه بالله... همس يسرّ ذاته "لا المتدين يستطيع أن يعيش بسلام وأمان في قاراتنا العربية التي كل قارة تعتبر مستقلة عن الأخرى في مصالحها، تفكيرها، سياستها وعملتها، ولا الذي ضلّ سبيله بقناعة داخلية، ترى أي نوع من البشر يرغبون، خارج حصون سجونهم

ومعتقلاتهم يكونون ونسائم الحرية يتنفسون؟! تبًا لهم سوف لن نخلص، لا نعرف بالضبط ما يريدون، حتى لو آمنت بفكرهم المزعوم سوف لن تكون في مأمن من غدرهم... اللعنة".

ظل يقرأ ويمسح العرق الذي يتراكم على جبين أخيه فصوصًا، نصير لم يبطل أنينه حتى ظهور أولى خيوط تباشير الصباح، وأسلاك البلاستك للمغذي التي تشبه المصارين معلقة من خلفه والممتدة حول جسمه ونهايتها مغروسة في يده كالخنجر في الصدر.

• • • •

آدم لم يذهب بعد نوبته في الحراسة إلى جامعته، رجع في العاشرة صباحًا إلى المنزل، استحل سريره ونام كالقتيل طوال النهار. استيقظ في الرابعة عصرًا، استحمّ وغيّر ملابسه، تغدى ثم اتجه إلى متجره في حي جميلة الذي يديره بشراكة صديقه جبار... هناك وأمام المتجر رأى رجل نائم، متسخ ومبتلّ في غائطه، عرف من فوره بأنه سكران لا يعلم من أمر الحياة أو الموت شيء، وهل هناك كثير اختلاف بين الاثنين عند العراقي؟ على الرغم من أن الموت غالبًا ما يكون طريقًا للحياة، هذه الفلسفة يعرفها آدم جيدًا ويؤمن بصحتها، طالما ردد ذلك على مسامعه والمقربين منه، وعندما يطلب منه تفسير ذلك، يقول:

"حالة الموت كلحظة الحساب، جرد للضمير والذات، هي التي تجعل الإنسان يعيد حساباته في الحياة المقبلة عليه، رجة الموت لها وقع الزلزال وتأثيره على قلب الكائن البشري، لا يمكن للأخير أن يعيش الزلزال دون أن يغيّر من تفكيره في مستقبله وكيف سيكون، الإنطلاقة تكون عند الموت وبعده، عندما يحل الموت تبدأ الحياة"... هكذا كان آدم يفسر قوله.

حاول أن يوقظ السكران من نومه ولم يفلح، ذهب من فوره إلى جيرانه أبو ريمان الذي يبيع الملابس النسائية بمساعدة زوجته، كان آدم مرتبكًا لا يعرف كيف يتصرف، أبو ريمان قال له بخبرة محنكة كخبرة نساء الصالونات الأدبية باسمًا:

- لا تقلق، سأتدبر الأمر، أمثال هؤلاء يمكنني التعامل معهم.

جاره والشهادة لله رجل شجاع، كريم ونبيل، غالبًا ما كان يسأل آدم وصديقه جبار أن يأتيا إليه لو احتاجا أي مساعدة، هو يعلم بأن الصديقين مازالا في مقتبل العمر وتجربتهما في الحياة قليلة، مخاطر السوق ومن يتاجر بالحلي رغم شحتها في متجر الصديقين لكنهما يبقيان عرضة للنصب والاحتيال والسرقة، لذلك عرض عليهما مساعدته في أي وقت يشعران بضرورة تواجده، لهذا السبب ذهب إليه آدم يطلب العون منه لإبعاد السكير النائم بغائطه عن متجره.

وما أن وقف أبو ريمان فوق النائم حتى ركله بقدمه وهو يصيح به:

- هه... أنت، انهض وإلا جعلتك فرجة للآخرين. فتح السكير عينيه بصعوبة وهو مازال ممتدًا يستحل ناصية الرصيف أمام المتجر، متكورًا، ضامًا ساقيه تحت بطنه، تمتم مناقرًا:
- منْ؟ عنتر بن شداد العبسي؟ ضحك بتهتك هه... هى... بلع ضحكته ولم يكملها، واستطرد: لا داعي لتهديدي بالفرجة من قبل الآخرين... فأنا فرجة دون حاجتك للتمثيل بي... هل أنت أعمى مثلي، ألا تلاحظ؟! ثم تنحنح، حاول النهوض ولم يقدر، كرر محاولته وهو يتكأ على واجهة المتجر المصنوعة من الألمنيوم، نهض بصعوبة، ترنح في وقفته، قال مخاطبًا آدم بالتحديد وهو يمط كلماته بتراخٍ رافعًا سبابته أمام وجهه:
- اسمع، سآتي مجددًا وأنام محل ما يعجبني، لا تستطيع أن تمنعني حتى لو أحضرت الشرطة، هل سمعتني؟ ثم ولى مترنحًا ورائحته النتنة التي تزكم الأنوف تزفه.

شكر آدم أبو ريمان، أحضر الأخير دلولاً مملوءًا بالماء، آدم رفض ذلك، جيرانه كان مصممًا، ناغاه باسمًا كعادته ملطفًا الأجواء التي لوثها السكير المبتل بغائطه:

- لا عليك يا آدم، صاحبك نام اليوم أمام عتبة دكانك سيكررها غدًا أمام ناصية دكاني، وقتها سأجعلك تنظف المكان كله لا ينافسك على ذلك أحد... ثم تابع على ذات الوزن الموسيقى:
- أعدك... ورنت ضحكته المجلجلة التي لها وقع صوته العريض وهو يسكب ماء السطل على الأرض. شكره آدم بنظرة وساعده بغسل الرصيف وممر المتجر المفضي إليه. فتح متجره وانتظر جبار بفارغ الصبر وهو محمل ببشرى لن

تكون مفرحة لصديقه وشريك عمله... القدر حسم أمره وقرر، وما على آدم إلا التنفيذ.

• • • •

من خلف زجاج واجهة الدكان رأى آدم شريكه جبار يتغربل في مشيته وهو يتجه نحوه وجسمه بالكاد يستطيع حمله. دخل. رحب به صديقه وقال مماحكًا:

- سوف لن تصدق ما حدث لي قبل مجيئك بنصف ساعة!

مناورًا كعادته عندما يرغب بالمزح مع آدم طفق:

- هل انتهت الحرب؟

- يا رجل تمنى معجزة أخرى لعلها تكون أقرب للحدوث!

- ما الذي حصل إذن؟

- ألم تلاحظ الرصيف نظيفًا يلمع؟

مد رأسه خارج باب الدكان الزجاجي بفضول مفضوح، أدرك:

- ما هذا النشاط يا آدم، ما الذي حدث؟ إنك لم تفعلها منذ دخلنا شريكين في العمل!!

- ومن قال لك بأنني قمت بتنظيف الممر والرصيف؟

- من إذن؟

- أبو ريمان بنفسه، وساعدته قليلاً!

مندهش لا يصدق ما يسمعه:

- أبو ريمان جيراننا؟

- نعم، هو.

- لكن كيف، أقصد، لماذا؟... أجلسه آدم وهو يطلب منه الاستماع بهدوء دون أن يقاطعه، ثم حدّثه بالتفصيل الملل ما حصل مع ذلك السكير الغائص في غائطه... ما أن أكمل آدم سرد قصته حتى قام جبار من مكانه، توجه من فوره إلى جيرانه، شكره ثم عاد يتمايل وهو يرجو شريكه من قبول دعوته للذهاب إلى السينما مساء غدهما الخميس... تفاجأ آدم من الطرح خاصة وهو يعاني التعب والأرق بالإضافة إلى ضرورة تواجده هذه الأيام مع أخيه الراقد في المستشفى.

ردَّ عليه بنبرة جاءت بين الجد والسخرية:
- أنت تعرف بأن نصير عمل عملية وهو مازال في المستشفى، علي متابعة أموره وأمور أسرته بنفسي لتفرغي كما تعلم، ثم تابع متوسلاً: أرجوك لا تكرر ما حصل معي في الدعوة المشابهة التي قدمها لي صديقي سلام قبل خمسة أعوام... قاطعه جبار مستغربًا ومستفهما:
- بالمناسبة كدت أنسى، كيف صحة أخيك الآن؟ ثم مندفعًا بفضوله: ماذا حصل؟ أعني، إنك لم تسرد لي حكايتك واستدرك: هل تقصد صديقنا سلام عامر؟
- أخي بخير، مازال يتألم، لكنه أمر طبيعي كما أخبرني الدكتور الذي قام بإجراء العملية، حتى إني لم أذهب إلى كليتي اليوم بسبب سهري على راحته طوال الليل، ثم عرج على سؤاله عن صديقهما سلام، قال:
- نعم ومن غيره، يا رجل، كانت مصيبة وليست دعوة، وافقته على مضض وصدق حدسي، اسمع، سأقص عليك الحكاية كلها ولكن عليك أن تستعد لسماع ما سأبشرك به فيما بعد، بشرط أن لا تنزعج أو تتضايق.
- ما هذه الألغاز؟
- عدني أولاً
- أعدك، لكن قل لي ما هي البشارة التي تعتقد بأنها ستضايقني؟ هل هناك مشكلة، أو إساءة؟
باقتضاب كالمعادلات الرياضية:
- لا إساءة ولا مشكلة!
- ماذا إذن؟
- حزن.
- حزن!، وأضاف: خير إن شاء الله
- لن أحدثك عنها إلا بعد أن تسمع قصتي وما حدث مع سلام
حائرًا:
- حسنًا سأستمع وأمري إلى الله... وقبل أن يهم آدم بالكلام دخلت امرأة تريد تصليح خاتم زوجها. اهتم آدم بخدمتها، وعدها بأن يكمل تصليحه غدًا قبل السادسة، اتفقا على السعر وجبار ينظر له فرحًا برزق سيدخل صندوقهما الخالي، وما أن

خرجت المرأة حتى بدأ آدم بسرد قصته برنة حاول معها أن يعطي بُعدًا ووقعًا مؤثرًا وهو يتحدث فظهر كأنه يناجي:

"ارتعشت الشمس وهي تزحف على الأرض منسحبة بعد يوم طويل من عملها حيث مقرها الأخير لتبدأ من جديد في جهة أخرى وعجلة الزمن تدور دون أن تعبأ بمن على الأرض وما يصادفهم أو يصيبهم"...

همس سلام بأذني كقيصر روماني قديم وعظيم:

- ماذا تقول يا صاحبي لو ذهبنا اليوم مساءً إلى السينما؟

صارخًا به كالمقروص بغفلة:

- ماذا تقول؟ السينما!... ثم أردفت متهالكًا غير مصدق ما أسمعه: هل أنت في كامل وعيك؟ كيف تطلب مني أن أوافقك على طيشك وأرافقك وأذهب معك إلى هناك؟!

"كان جبار يستمع لآدم فاتحًا فاه كالمسحور، هو يعرف سيطرة وسلطة صديقه عليه عندما يسرد له قصة أو حكاية عاشها أو كتبتها "

رد سلام عليّ منفعلاً:

- إلى هناك؟ أين تقصد؟ أنا لم أقل أكثر من كلمة واحدة واضحة، أريدك أن تشاركني متعة رؤية فلم في إحدى دور عرض الأفلام في بغداد، ثم استخف به الطرب فجأة فاستطرد ذائعًا يهز رأسه كهندي متمرس في هذه الحركة:

- كما سمعت يا صديقي هناك في أحد شوارع بغداد الذي غاب عني اسمه وأظنه يدعى شارع السعدون الذي يقال عنه "قبلة الأنظار ومعقل الأبصار" حيث تتجمع وترتصف فيه تلك الدور كخلايا النحل في مكان واحد، تتلقف أيادي عمالها الزبائن من الشارع ناهيك عن الصور والإعلانات الضوئية التي تروض الإرادة الشرسة، تحفز الغريزة النائمة وتجعلها مثارة ومتيقظة... ناهيك عن الضجيج الصاخب الذي ستسمعه، ضجيج يأتيك من كل مكان لترى نفسك كأنك في عرس لهنود الحمر في غابة، كل شيء هناك يصرخ، يضحك، يهتز، يرقص ويدمدم... إنها الحياة يا صاحبي، عليك ألا تنسى بأننا بعدها نستطيع أن نتنزه قليلاً على الكورنيش حيث خضرة الشجر وهدير النهر؛ ها... قل لي يرحم الله أباك: هل هذا عيب أم حرام؟!

كنت لحظتها محتدًا مرتعد الفرائص بعد أن استطار بي الهلع وعذبني الجزع، قلت له:

- لن أجيبك... لأنك تعرف السبب، وأضفت: لذلك تعجبت من طلبك الغريب هذا!.

بشموخ ردد سلام:

- أعرني سمعك وأنصت لما سأقوله:

- يا عزيزي وحبيب قلبي آدم، أنا اعرف ذلك جيدًا، لكن دعنا نغامر مرة في حياتنا، سوف لن نخسر شيئًا، بل العكس سنجمع خبرة، ربما نستطيع أن نعيد الزيارة في وقت قريب آخر!... نستمتع كما الآخرين، توقف برهه ليرى وقع كلماته ومدى تأثيرها عليّ واستطرد باندفاع محموم:

- عليك ألا تنسى بأننا في عمر يسمح لنا فعل ذلك.

استعدت فجأة قوتي كأنها بفعل معجزة، طفقت مكتئبًا وأنا أرفع سبابتي في وجهه:

- وماذا لو تهنا، أو تأخر الوقت ولم نعد نعرف رأسينا من أقدامنا؟! ها.. ماذا سنفعل ساعتها؟! نبكي وندوخ أم نلطم الخدود وننوح؟!

- هون عليك يا صاحبي. قال لي ذلك وتابع:

- لا تيأس من رحمة الله هكذا سريعًا، نحن مازلنا لم نجرب، ومن ثم لماذا تنظر إلى الأمور بمنظار أسود لعين، فكر بالمتعة وما سنجنيه من وقت حر نفعل فيه ما نرتاح له وما نحبه... حرّنت، قاطعته عابسًا متوسلاً:

- دعني وشأني يرحمك الله، لن أذهب، في ذلك مخاطرة قد لا تحمد عقباها... وأنا أزم شفتي كطفل غاضب.

- بل سنذهب واعتمد على أخيك سلام وأنت تعرفني جيدًا، قول وفعل... ثم شكرني بنظره، هزني من يدي وسحبني بعنف لطيف وهو يحاول أن يسوي معي الموضوع وديًا ويسمعني بعض النكات التي سمعها أخيرًا بغية تلطيف الأجواء التي توترت بسبب عنادي ورفضي لقبول دعوته... وما انقطع سلام من أن يردد على مسامعي مازحًا: لكَ يا صديقي قلبًا أفضل من عقلك بكثير... وهو يهز كتفيه ورأسه يتأرجح ويقهقه متعاطفًا مع ما قاله.

"تدخل جبار مماحكًا متسرعًا:

- وماذا حصل بعد ذلك؟ أقصد، أين المشكلة" تجاهل آدم أسئلة شريكه وتابع:

ترى متى رضي الإنسان عن حياته وما يحيط به؟! لو أودع الجنه وسكنها... سيفرّ منها متذمرًا ولو بعد حين!... إذ ما أن ترجلنا من الحافلة التي احتوتنا وأقلتنا حتى نسينا همومنا وما يربطنا بالماضي وعيوننا شاخصة نحو الأشياء التي نراها لأول مرة في حياتنا، أقدامنا تكاد لا تلامس الأرض طربًا وسعادة... لاحظ سلام فجأة أحدهم ينظر إليه بنظرة ماسحة، صاعقة، شرسة ذات مغزى غريب لم يفهم لها معنى محدد سوى شهوتها الفائرة!.

ارتبك كمن يدافع عن نفسه بالفطرة، حاول أن يلتصق بي ويسرع في خطاه، سحبني من يدي وراءه دون أن يفصح عما خالجته نفسه من خوف ورهبه نتيجة نظرات ذلك الرجل الذي اعتبره شريرًا دون سابق معرفة.

كان الرجل الغريب نزقًا فاتن القبح، طويلاً كصمته، بعينين متعبتين انهكتهما وأضعفتهما الملذات، غائر الخدين، لا يبدو عليه سيماء الرزانة مثل نحس طاعن في السن من جنس العفاريت الخرافية؛... رفيع العود، منحني الظهر، أشيب الرأس، يرتدي جاكيت رماديًا داكنًا دعكته الأحجار ولوحته الأوساخ، قلبت لونه فبان كأنه أسود، خطواته لم تكن ثابتة ونظراته كخطواته زائغة لا تستقر على حال، يمسك في يده اليمنى زجاجة لم يتضح ما بداخلها من سائل لم يبق منه سوى القليل يتمرغ داخل الزجاجة بصخب وعنف.

تضايقت من سرعة سلام غير المبررة، سألته بعفوية:

- ما وراءك يا سلام؟ لماذا تهزني وتسحبني بهذه الطريقة؟! أرجوك دعنا نرى كل شيء بهدوء وتمعن، ثم أشرت له بيدي:

- انظر إلى هناك... هذه لافته تعلن عن فلم عربي، وأخرى عن هندي... حاولت أن استمر قاطعني بحدة بارقًا، راعدًا وآمرا:

- اخفض من صوتك!!

- اخفض صوتي!... لماذا؟

- لا تسأل كثيرًا، هيا لندخل هذا الشارع الفرعي بسرعة...

- إيه... ما وراءك يا سلام، قلت له ذلك وأكثر: هل أنت خائف من شيء ما؟!

رد عليّ والقلق يركبه وهو يتلفت وراءه مثل قط خائف:

- هل ترى أحدهم يتبعنا؟

"بسبس جبار في هذه اللحظة مهمهمًا وهو يبتسم، لكنه لم يتجرأ أن ينطق أو يقاطع وهو يلملم بدنه ويكوره كعباءة عجوز تحاول لفها على جسدها "

تجمدت الدماء في شراييني، فتحت عيني بدهشة وأنا أحاول النظر إلى الوراء... رأيت الرجل الشرير صاحب الزجاجة يتبعنا بشغف منقطع النظير... صحت بسلام منفعلاً:

- ماذا علينا أن نفعل؟ هناك من يتبعنا، يبدو رجلاً شاذًا أو سكرانَ، حقيرًا وفقيرًا، عليلاً وذليلاً... إنه خليط لا أستطيع التكهن في شخصه، فهو يبدو كأهل الكأس والطاس والقرطاس مثله مثل الشعراء الكفرة!، ثم باغتٌ زميل الرحلة بقولي بعد أن جلت بطرفي:
- تصرف يا بطل؟

نبر:

- ولماذا تسألني؟، ثم عدل من سؤاله:
- أقصد، لماذا تطلب مني التصرف لوحدي؟

أجبته بامتعاض وحرقة:

- وأسأل منْ يا ترى؟ ألست أنت صاحب الفكرة الجهنمية؟ ألم تقل لي بأنك قول وفعل؟ هل نسيت؟ ثم صحت مرتجف الأوصال متهكمًا عابثًا ومواربًا:
- هيا.. أرني مهارتك وشطارتك، يعد نفسه بحذاقته ولباقته من العلماء وأهل الذكاء، رأيه صائب وفكره ثاقب وكما يقال، جليل الخطر عظيم الأثر!. تابعت منغصًا الأجواء التي أصبحت فجأة لا تحتمل:
- يبدو لي أننا وقعنا في براثن شرير لا يريد أن يتركنا بسلام قبل أن يمص دمنا!... وكررت الجملة الأخيرة بخبث شيطاني لم أعرف كيف أو من أين أتاني: سيمص دمنا معًا، وناديت كمؤذن: هل سمعت، أنا وأنت!.

متقهقرًا:

- عزيزي آدم لا تؤنبي ولا تلومني... إذ لم يكن في ظني أن تسير الأمور بهذا السوء أو أن يصادفنا ويلاحقنا هذا الشاذ الذي يحمل جرته معه وفي قعرها

يترجرج ماء جهنم... كما أن خبرتي لا تزيد على خبرتك قيد قيراط، أنت تعرف ذلك جيدًا، كن منصفًا ولا تحملني أكثر مما أحمله الآن!!

بعدائية مفاجئة أشرت له:

- وماذا تحمل؟ هه... إي... لا... قل ولا تتردد، انتهينا وسوف لن نفلت من يد هذا الشيطان الرجيم الذي يمص شفتيه ويتلمظ كما سيفعل بدمائنا.

- الحقيقة المخجلة هي أني ومنذ أن رأيت هذا اللعين ونظراته التي لا أفهم لها مغزى أو معنى وأنا اشعر بأن سروالي أصبح باردًا وثقيلاً، لا اعرف لماذا؟

"وجّه آدم نظرته وسؤاله إلى جبار الذي كان يستمع له بكل حواسه:

- تصور يا عزيزي وشريك رزقي، يحدثني عن سرواله في تلك اللحظات الحرجة من عمر زمننا الأغبر الذي نعيشه كالأموات في قبورها. اسمع سأكمل لك ما حدث"... سألت سلام مناورًا:

- سروالك!!

- نعم سروالي... ثم وعى على نفسه، فأردف بشيء من الوجد:

- دعنا من ذلك الآن، فكر معي في هذه اللعنة التي تطاردنا وهو ينظر جانبيًا وراءه ونحن نسير على غير هدى من شارع إلى آخر، حتى ابتعدنا كثيرًا عن الشوارع والساحات الرئيسية والعامة. بدأ الظلام يستحل الأمكنة دون وارع أو تردد ونحن نشعر بالتعب والجوع وحامل ماء جهنم مازال يتبعنا كظلنا قصف الله رقبته. حلَّ السكون الموحش وسيطر على المكان كسكون صحن كنيسة أثناء الليل، بعد أن خلت الطرقات من المارة وبدت الأمكنة مقفرة كأنها في كوكب آخر غير الأرض...

قررنا أن نستقل أول سيارة أجرة تمر بطريقنا كي نعود إلى منزلينا دون أن نأخذ حظنا من مشاهدة فلم في إحدى دور عرض الأفلام في بغداد أو أن نستطيع من تحقيق حلمنا رغم سذاجته وبساطته وحقنا في تنفيذ ما خططنا له دون شعور بالذنب أو الألم أو المهانة... وما انقطعت من ترديد بيت من شعر المعري الذي كان الأخير يخاطب الله فيه بقولة:

ولقد زعمت لنا معادًا ثانيًا   ما كان أغنانا عن الحالتين

كنا نشعر يا جبار يا صديقي العظيم بإحباط رهيب، ساحق، مدمر ومبهم كشعور من يفارق أحدهم فراقًا لا لقاء بعده، ثم سأله قاطعًا الأمل:

- وتطلب مني غدًا بعد تلك التجربة المريرة أن أعيد تكرارها معك؟. لا يمكن، وأضاف آدم بكدر مخلوط بين الصرامة والدعابة: كل الناس قبل التجربة يعتبرون أنفسهم أبطالاً وأنت أحدهم!.

(١٣)

بعد أن استمع جبار لشريكه حكايته مع صديقهما سلام، أطلق ضحكته الجبارة دون وارع أو خجل، آدم تقبل منه ذلك لمعرفته المسبقة بمكنونات صديقه وعاطفته الصادقة اتجاهه، باعا بعض القطع الفضية البسيطة وبعد أن أتم آدم تصليح خاتم الزبونة قررا إغلاق المتجر والسير قليلاً على رصيف شارع الطالبية الممتد بين ساحة جميلة حيث ينغرز دكانهما وبين جسر القناة المفضي إلى الجامعة المستنصرية، كان الشارع في المساء رائعًا لمن يريد أن يتمشى، فالمحال التجارية على الجهتين، البارات الجديدة التي انتشرت سريعًا بأضوائها الحمراء الخافتة، صالونات الحلاقة العربية التي غزته واستحلت أهم أركانه، كل هذا حصل للشارع بسرعة خيالية لم يتوقعها ساكنوه، ناهيك عن العمارات التي ارتفعت واجهاتها وأجرت على شكل شقق فارغة ومفروشة، حركة تجارية لا يستهان بنشاطها في زمن كانت الحرب مازالت مشتعلة في نهاية عامها السابع من ثمانينات القرن المنصرم، كانت هذه الدعوة طلبًا من آدم بغية شرح مبررات بشارته التي يريد إطلاقها بوجه شريكه، هو يعرف بأنها لن تكون في أي حال من الأحوال سارة، لعلمه المسبق بظروف صديقه وشريك تجارته.

• • • •

أثناء سيرهما سأل جبار ببراءة آدم:

ـ كيف تسير معك الأمور؟

ـ أي أمور؟

ـ أنْهُر!

فهم ما ينوي صديقه معرفته، قال مقتضبًا، سريعًا كالطلقة:

ـ حاولت الانتحار ولم تفلح!

ندت عنه صرخة مدوية متأثرًا بالخبر، مهمهمًا:

- لقد قلت لك رأيي ولم تصدقني، نهايتها المسكينة ستكون على يديك...
مغمومًا تابع:
- ولكن لماذا؟
- أمور وأشياء كثيرة يصعب حصرها بجمل قليلة، لكنني أستطيع اختصارها بالتالي: رآنا أخوها في المنصور معًا، فضحنا دون أن نقترف خطيئة أو نسيء لأحد، انتشر الخبر سريعًا كالنار في الهشيم، تم الضغط علينا بشكل مروع لا يرحم، المسكينة لم تستطع أن تقاوم ظروفها وضغط أهلها فانتحرت، رآها الله فساعدها لطيبتها وإنسانيتها وحنيتها، وقف بجانبها ولم يجعلها توفق فيما خططت له. فباغته مجددًا سائلاً:
- وكيف هي الآن؟
- بخير على ما أعتقد.
- تعتقد!
- نعم، لأنني لم أستطع التواصل معها أو رؤيتها، هناك حصار مفروض علينا...
قاطعه جبار:
- كان الله في عونها، وصقل خشونتك وجبروتك اللذين لا تريد الاعتراف بوجودهما وجعلك أكثر رقة ولطافة معها... أضاف: امهلني وقتًا حتى أراها، سأحدثها بكل صراحة وأفتح عينيها على أشياء لم تكن تعرفها عنك كي تكون مبصرة وهي تسير معك... ضحك آدم، غمغم بكلمات لم يسمعها صديقه، هزَّ جبار رأسه وسأله في موضوع آخر مغيرًا بذلك مسار الحديث:
- هل عندك آخر أخبار صديقنا ناصر؟
- ما الذي ذكّرك به؟ شخص غريب لكنه عبقري طيب.
- هل تذكر عندما كنا في الرابع الإعدادي كيف كان وكيف هو الآن وماذا يدرس؟
- نعم أذكر ذلك الموقف جيدًا عندما ضحكنا عليه في حصة التاريخ وهو يشرح للأستاذ من خياله الرائع وبغباء يستحق عليه الإعدام ساعتها كيف كان معاوية بن سفيان يدرب كلابه لجعلها شبيهه بالكلاب البوليسيه المعروفة اليوم كي تساعده في حملاته، غزواته ونزواته... وقتها ضحكنا عليه حتى انقسم وسطنا...

- ما استغرب منه هو كيف حصل له هذا التغيير الذي جعله من طالب غبي نضحك عليه إلى أذكى طالب في الإعدادية في السنة التي تلت وكان هو معنا لحسن حظنا!. لقد أصبح فجأة لا يقبل بأقل من مائة بالمائة في كل مادة نمتحن بها حتى أعفي من أداء الامتحانات النهائية إعفاءً عامًا، وها هو اليوم يدرس الطبية في جامعة بغداد!!.

رد آدم وهما مازالا يذرعان رصيف شارع الطالبية سيرًا:

- لقد سألته بنفسي السؤال ذاته عندما كنا ندرس معًا في مادة التحليلية في السنة الأخيرة من الإعدادية، كنت وقتها في غرفته في الطابق الأول، دخلت عليه فوجدته يسمع الموسيقى ويدرس، استغربت تصرفه في بادئ الأمر، قلت له كيف تستطيع التركيز بين الشيئين، سألته كذلك عن سبب التغيير الذي حصل له وذكرته بقصة الكلاب البوليسيه، ضحك، وهو يضحك من بين أسنانه الصفراء قال: المسألة وما فيها هو أن أبي وعدني بهدية كبيرة يهبها لي لو استطعت أن أدخل الطبية.

فعدت وسألته بفضول طائش لا رغبة كبيرة في معرفة الكثير عن أسراره:

- ومتى كان هذا الاتفاق؟

- بعد أن ضحكتم عليّ!، أعني، في نهاية العام ذاته عندما كنا في الرابع الإعدادي، حكيت ما حصل لأبي، فكر قليلاً، سرحت أصابع يده على خده لحظتها، ثم انتبه إلى نفسه ووعدني بالهدية!، وأضاف واصفًا حسناته:

- مازلت أتذكر وقفة أبي جيدًا في ذلك اليوم الحاسم، وحركاته التي كان يأتي بها!.

- وما نوع الهدية؟ قلت له ذلك وبدأت أشاركه ضحكه.

- سيارة آخر موديل أختار ماركتها بنفسي!

كمجروح العاطفة عدت فسألته:

- من أجل سيارة استطعت أن تغير حياتك العلمية وتكون فجأة من المتفوقين؟

- نعم، هذا ما حصل... وتابع بتركيز عبقري أذهلني بعد أن نسيت سؤالي الذي وجهته عن الموسيقى. هو لم ينسه، قال:

- لو جربت أن تدرس بوجود الموسيقى سوف تتعود على ذلك وتساعدك على التجدد والنشاط والنبوغ والتركيز، الفراغ الصامت هو سبب كل الجمود والخمود والمصائب... جرّب أن تفعل هذا بنفسك، ستعرف مقدار التقدم...

ثم تابع بذات المرح مكتفيًا بالابتسام هذه المرة:

- عندما يسكر الفكر بالموسيقى يبدع، يخلق أجمل ما يمكنه، الموسيقى غذاء الروح كما هو الكتاب للعقل، ومتى ما صفت الروح واستأنست أبدع العقل!.

بعد أن أنهى آدم كلامه عن صديقهما ناصر نظر إلى جبار هاسًا:

- أي بالله يا صديقي هذا ما قاله لي بالحرف ساعتها... حتى تمادى في اعترافاته وحدثني عن خصوصيات لم يتجرأ من قبل البوح بها، عن علاقاته بالنساء، محاولاته في استقطاب المرأة التي لا يسعى من وراء تجاربه حسب قوله إلا أن يعرف مقدار تقبل الأخيرة له؟ ممتع ناصر صديقنا ولذيذ في نفس الوقت، يجرب بنفسه المرأة ليعرف مقدار تقبلها له؟ ترى لماذا لا نصدق التغيير الذي حصل له من جراء وعد بسيارة، لماذا إذن لا نصدق المؤمن والله يعده بالجنة؟ ناصر وقتها أعاد عندي ترتيب أوراقي في الحياة والناس من جديد...

ثم همَّ بمفاتحة صديقه بما كان قد قرره، دعاه للجلوس في مقهى شعبي متواضع يقع على ناصية ركن يجمع بين طرفي شارع الطالبية وفرع داخل إليه ينتهي بمنطقة حي البنوك التي يسكنها، امتدت المساطب الخشبية العتقية ووزعت على ناصية الرصيفين المتقاطعين بفرشها الإسفنجية الخشنة المغلفة بقماش مطرز استهلكه الزمن والاستعمال التي قابلتها مناضد من نفس النوع ولهن العمر ذاته والتلفزيون كان يصدح بأناشيد وطنية لا تنتهي لم تعدمها العيون تتخللها بيانات عسكرية عن آخر تطورات الجبهة التي لا يقولون فيها الحقائق في أعداد القتلى من الجانب العراقي، يحسبون ذلك من أسرار الحرب لا يجوز التصريح بها على الملأ... ما أن استحلا ركنًا بعيدًا عن الضوضاء لحدٍ ما طلب آدم استكانين (•) شاي أسود ثقيلين

(•) استكانين: قدحين

معطرين بالهيل كالعادة المتعارف عليها في مقاهي بغداد وهو يتهيأ لإخبار شريكه بما عزم عليه.

• • • •

كانت سلوى أخت آدم رسامة من الدرجة الأولى، لكنها لم تأخذ نصيبها العادل في الحياة الفنية ولا في حياتها الاجتماعية، وأسباب تعاستها غالبًا ما كانت من صنع يدها.

لم تقبل بنصيبها في الزواج عندما سنحت لها الفرص الذهبية إن صح وصفها بالذهبية، فقد كانت بالفعل إذا لم يكذبنا الله فرص ذهبية لفتاة في سنها ومن عائلة متوسطة الحال وقتها وأختها كانت قد خرجت عن دينها، هذا وحده يسبب لرجال ملتها الهلع والابتعاد... ومع ذلك كانت ترفض بإصرار لا مثيل له حتى فاتها القطار كما يقال. عندما سنحت لها فرصة الزواج فيما بعد وافقت بسرعة لم يتوقعها أحد ولا هي نفسها، فتزوجت من عماد النجار الذي له حكايات معها تشعل شعر الرأس بالبياض.

جميلة، رقيقة كالنسمة، رفيعة القوام كراقصة بالية، بيضاء البشرة على غير عادة بشرة أفراد أسرتها السمراء، تخرجت من الإعدادية الفرع الأدبي، قارئة جيدة وتجيد الرسم بشكل رائع لا نقاش في روعته وجماله، موهبتها كانت ربانية، ترسم كل شيء، الوجوه، الطبيعة، الرمز والتجريد وكل ما يخطر على بالها بقلم الرصاص، هي التي شجعت أخيها آدم عندما رأت فيه موهبتها التي لم تصقلها الدراسة.

يتذكر آدم جيدًا بأن أول راتب حصلت عليه عندما توظفت في دائرة الإصلاح الزراعي اشترت لأهلها غسالة ملابس كهربائية قدمتها هدية لأمها. موقفها ذاك لا ينسى من قبل أفراد أسرتها، ماكينة كهذه لم تكن معروفة ومنتشرة في العراق ولم يتداول استعمالها في البيوت بداية السبعينيات إلا ما ندر. لذلك ظل آدم يتذكر الحدث ويذكره بقوة على أنه استثناء ولم ينسه.

أفضل أحد الذين تقدموا لخطبتها كان رجلاً غنيًا، مثقفًا من عائلة معروفة على مستوى طائفتها، وفي أول زيارة لعائلتها حضروا بسيارتين شوفرليت لم يرَ آدم مثلهما في شوارع بغداد. قبل خروجهم من بيت أم نصير دعوهم لرد زيارتهم مزيدًا للتعارف وحصل. آدم كان وقتها لا يتجاوز العاشرة، يتذكر جيدًا بيت الخطيب الكبير الجميل النظيف وحديقته الغنّاء وسوره العالي ولم ينس رد أخته البارد بعد مغادرتهم، رد لا يتناسب وقدر الرجل الذي كان يتمنى موافقتها متلهفًا، قالت:

- لا أوافق عليه، له أفكار حزبية لا تتطابق مع ما أؤمن به، كبير في السن، بطيء النطق لا يخرج الحرف من فمه إلا بطلوع الروح، لو تقدم أخيه الأصغر لوافقت عليه من فوري!!. ضاعت فرصتها تلك، تبددت أحلامها كما ينزف الرمل القابع في حفنة اليد، لا يمكن لمّه أو التقاطه وجمعة مرة أخرى بسهولة، تقدمت بالسن وهي مازالت عزباء، تعلقت بحلم بعيد المنال بأن يتقدم ابن عمها جليل لخطبتها ولم يحصل، لقد كان أحد أعضاء زمرة أخيها نصير في اللعب والسهر والشرب والقمار، لم يكن من النوع الذي يلتزم بالعهود والوعود، تقهقرت سلوى عندما لم ترَ منه أي رد فعل إيجابي نحوها، تألمت، لازمتها الكآبة التي دمرت أعصابها، أصبحت فجأة إنسانة أخرى، لا تحب الرسم، ولا تطيق القراءة، ضعيفة كثيرة المرض، حتى تقدم منها عماد النجار من ملتها الذي كان داهية في النصب والتزوير والاحتيال. لم تعرف أم نصير عن عائلته الكثير، سمعت بهم عن بعد، كان أبوه نجارًا حسن السمعه وبنيت أحكامها على هذا الأساس. وافقوا عليه بسرعة مذهله، انتقلت سلوى إلى بيتهم في منطقة البتاويين في غرفة في الطابق الأرضي خافتة الإنارة، وسط عائلة كبيرة العدد لا يهدأ لهم صوت إلا في ساعات الليل المتأخرة، عرفت سلوى فيما بعد بأنه كان متزوجًا وماتت زوجته وهي مازالت في حملها الأول، لم يقل لها عماد بصراحة سبب وفاة زوجته، لكنها اكتشفت الحقيقة بنفسها فيما بعد، الضغط النفسي الذي مورس عليها كان كفيلاً بأن يقتلها، كذب عليها عندما قال لها بأنه يعمل في حماية الكايزر، ظهر بأنه متخلفًا عن الجيش فارًا منه، يتسكع بالشوارع طلبًا للرزق والأمان بعيدًا عن عيون الشرطة، يظل وقتًا طويلاً، أيام وأسابيع بطولها قابعًا في البيت لا شغل له غير مناقرة زوجته في أمور تافهة لا تستاهل النقاش فيها، تراجعت صحتها كثيرًا

في الأشهر القليلة بعد زواجها الرديء الخالي من الحب ومن أي عاطفة كانت تتمناه في الحبيب الموعود، حبلت، زاد تعبها وشقائها، بدأ تعامله معها يزداد سوءًا، النّهر أولاً، ثم السب والشتم وأخيرًا كان الضرب وإشهار السلاح عليها!... هربت في يوم قافلة إلى بيت أهلها، شرحت لهم المأساة التي تعيشها؛ نصحتها الأم بالصبر والتحمل، وأخوها نصير بالوعد والوعيد لعماد. مروان صرخ متشائمًا وقتها:

- سأقتل ذلك الوغد... يشهر السلاح بوجه أختي!. وهكذا ظلت سلوى تتعذب دون أن تجد أو تتوصل إلى حلول جذرية تخلصها من جنون زوجها، انجبت له الابن البكر الذي سماه قيصر؛ كان له شبه كبير بأبيه، لكنه تمتع بذكاء حاد متقد عكسه تمامًا، هذا ما خرجت به سلوى من الحياة. بعد سنوات لم تتعد الثلاث، أعلنت عن رغبتها أمام أهلها بالطلاق من زوجها، رفض عماد في بادئ الأمر الانصياع لرغبتها وطلبهم، زمجر وصرخ وهدد ثم هدأ وقَبل بالأمر الواقع عندما شعر بالخوف تحت تأثير وتهديد نصير ومروان له بأنهما سيكشفان أمره للسلطات لمعرفتهما بفراره من الجيش كنوع من أنواع الضغط إن لم يطلّق أختهما دون شوشرة، وافق على مضض لكنه واظب على تتبع أخبار طليقته وابنه عن بعد حتى سمعوا يومًا بأنه تزوج من أرملة على غير دينه مات زوجها في الحرب، انتقل معها إلى شمال العراق للاختباء والعمل، فانقطعت أخباره عنهم ولم يعودوا يسمعون عنه شيئًا. قبلت سلوى بعد تجربتها المريرة بنصيبها وقسمتها وحظها من الحياة فاستقر رأيها على رعاية ابنها الوحيد والاهتمام به وتكريس جلّ وقتها له. تراجعت صحتها في السنوات التي تلت طلاقها، عجزت عن العمل، أصبحت فجأة ربة بيت مريضة لا تقدر على الاعتناء بنفسها، سمنت بسبب الأدوية التي تتناولها، قلت حركتها، باتت لا تغادر سريرها إلا للضرورة، وابنها يكبر أمام عينيها وهذا كان كل عزاءها، يتفوق السنة بعد الأخرى في دراسته وهما يسكنان في بيت أهلها، أمها لم تنقطع من مساعدتها ولم تهمل رعايتها لها ولابنها الذكي الطموح قيصر.

(١٤)

بعد أن احتسيا شايهما على مهل متذوقين طعمه المهيل الرائع سأل جبار شريكه بلهفة معجونة بالخوف والقلق:

- ها... ما وراءك؟ لقد صبرت عليك طويلاً، لماذا لا تتحدث؟ قلت كل شيء إلا ما يجول في خاطرك!

- الحقيقة، لا أريد إيذاءك، وفي نفس الوقت لابد من مصارحتك!

بنبرة ملاطفة تختبئ وراءها الحيرة:

- إذن صارحني دون أن تفكر بإيذائي!

بحزم:

- لا يمكن.

- قل بسرعة كل ما تريده، فلم تعد أعصابي تتحمل الانتظار.

- عملنا المشترك!

- ما به؟

- سننهيه ونفك الشراكة التي بيننا ولك مطلق الحرية في البقاء وإدارة المتجر بمفردك إن أحببت، أما معي، فذاك زمن وانتهى!

صعقته كلمات آدم المقتضبة الحاسمة. لم يتخيل بأنه سيأتي عليه اليوم الذي يسمع فيه هذا الكلام ومن منْ، أقرب الناس إلى نفسه، من آدم الذي يفديه بروحه، الذي تعلق به تعلق الطفل بأمه كأنها تنوي تركه في أول أيام التحاقه بالمدرسة الابتدائية، نزلت دموعه بسخاء دون إرادة، احمرت عيناه، امتقع لونه، حاول الكلام ولم يسعفه لسانه، ثم بعد تلكؤ ملحوظ وبعاطفة مجروحة طفق:

- كلماتك يا صاحبي سكين تحفر في لحمي، ما هذه القسوة التي تمتلكها؟، لم أتوقعها أن تصدر من قلبك الرءوف الرحيم، وأردف بنفس مقطوع كمن قطع للتو بضعة كيلومترات جريًا:

- لا يمكن لك أن تقرر لنا بمفردك، هذا متجرنا، حلمنا وثمرة جهودنا، لا يمكن أن تبعثر كل هذه الأشياء الجميلة التي صنعناها معًا بكلمة واحدة... وأراد أن يتابع فقاطعه آدم بحرص ودقة:

- أرجوك لا تكمل، انتظر دفاعي أولاً ثم قل ما تريده، وأضاف مستطردًا، مندفعا بصوت خفيض: عزيزي الغالي جبار، كل يوم يمكن للإنسان أن يولد من جديد، وعندنا في العراق الهموم أفضل حافز لتلك الولادات، هي التي تطلقها وتقذفها كحمم بركان نحو الخارج، أجوائنا التي تراها بأم عينيك ما شاء الله عليها، أروع حاضنة تتلقفنا وتحتضننا لنفقس من جديد، لكن ما نوع المولود الآتي؟ علمنا عند واهب النعم، هو الذي يعرف ما سيصير عليه حالنا ونعمة به... نظر حوله برهة قصيرة، ثم شرع بذات الرنة والصوت الخفيض الذي لم يجعله يرتفع ويسمعه بالكاد جليسه:

- لا أحد قطعًا هنا يستطيع أن يفعل ما يريد، قدرنا أكبر قوة راغمة مسيطرة علينا، يجعلنا نعمل كل ما يطلب منا، ليس لدينا أدنى حرية للتعبير أو الاختيار، هل تسمع؟، دون إرادة منا، ولو جربنا ونطحنا رأسينا الآن بهذا الحائط الذي تراه أمامك سوف لن يتنازل مقدار ذرة عن قسوته... وقرار تركي العمل معك وفك شراكتنا هو فرع من فروع تلك السلطة القدرية المتجبرة التي ترسم لنا طريقنا وخطانا دون أن يتاح أو يسمح لنا مناقشتها أو العدول عن قرارها وما اختارته لنا؛ قوة غاشمة لكنها المسيطرة!، هل تفهم؟ هي المسيطرة... لا اعتراض، انتهينا... لكن علينا ألا ننسى من جانب آخر أن قيمة الحياة تكمن عندما نفكر بالآخرين ومستقبلهم، وقتها تهون علينا أيامنا هذه التي تشبه حياة الجرذان الخائفة المذعورة كأن أيامها معدودة مصابة بالطاعون... بعدها نكون قد فزنا بإنسانيتنا وحافظنا عليها، سلوكي هذا معك ترجمة حرفية لحالي وما نويت فعله.

متجهما لا يعرف كيف يسأل أو يرد:

- هل يمكن لك تحديد ذلك بكلمات مقتضبة؟

- سهب آدم طويلاً، عمدّه الصمت والحزن، انتبه على نفسه، وجدها عارية إلا من الوجد والاحتراق، قال كمن يمضخ فشله:

من ليس له مبدأ في الحياة يكون كبنت الهوى تغازل الجميع وتذهب مع من يدفع أكثر وقلبها ساعتها يكون عامر بالمسرات الممزوجة بالحسرات الموجوعة!، أنا لا أريد أن أكون كتلك الفتاة، أنت تعرف ما سببته وفاة أخينا المرحوم سعيد من فراغ مروع داخل الأسرة، نصير استقل في بيته منذ أسابيع وهو الآن راقد في المستشفى، حتى لم تفكر أنت بزيارته، ما علينا قال ذلك بقصد، واستطرد:

- متجرنا في البنوك ظل فارغًا، لم يشغله أحد، مجيد ومروان في الجيش كما تعلم، إيراده ودخله أكبر بكثير مما نحصل عليه هنا، فقرر نصير من أجل كل ذلك أن انسحب من حياتك العملية وأترك المتجر وأتفرغ لدكاننا الذي يدرّ علينا ربحًا جيدًا، هذا الأمر يجب أن أضعه أمام عيني بحكم تواجدي داخل الأسرة والمدني الوحيد في عائلة ثلاثة من أفرادها يخدمون في الجيش والرابع توفي أثناء أداء واجبه العسكري أيضًا، ألا يتطلب مني هذه التضحية من أجل أهلي، أنا أتفهم جيدًا بأنني معك أشعر بالحرية والمتعة واستمتع بوقتي لأنني أعرف بأنك هنا، تساعدني وأنا أغيب وقتًا طويلاً غير مبالٍ لما يدور في الدكان لمعرفتي المسبقة بحرصك وجديتك وأمانتك، في حين هناك في منطقتنا سوف أكون لوحدي الوقت كله، سأحرم من متعة اللف في الشوارع وقياس طولها، هل عرفت الآن كم كان عليّ قرار تركي شراكتك صعبًا؟!

نكّس جبار رأسه خجلاً وتأثرًا، هو يعلم بأنه بمفرده لا يستطيع الاستمرار في تجارة الحلي من بيع وشراء وتصليح، كان معتمدًا على آدم في كل صغيرة وكبيرة، الآن لابد من مواجهة الموقف لوحده، فهل يستطيع؟ هذا السؤال الذي دار في مخيلته ولم ينطق به أمام توأم روحه آدم.

طلب آدم إستكانين(•) جديدين من الشاي تلطيفًا للأجواء التي توترت... هبط الظلام رويدًا، مصابيح الشارع الواقفة على الرصيف كالمشانق كانت تبعث ضوءًا خجولاً، لم يدم جلوسهما بعد ذلك طويلاً، شربا شايهما على عجل وغادرا المقهى مفترقين كلاً نحو داره مثقلين بالهمِّ والأوجاع.

• • • •

(•) استكانين: قدحين

لا يعرف آدم بالضبط الدافع الذي جعله يطرق باب بيتهم بيده دون استعمال الجرس، نقراته على الباب كانت واهنة بالكاد تسمع كضربات قلبه لحظتها، وبعد وقت ليس بالقصير فتحت له أمه الباب، دخل مهمومًا، متعبا لا يشعر برغبة في الحديث مع أي فرد... حياها وعرف من هيئتها بأنها كانت عائدة من عند نصير لتوها، سألها بإحباط ظاهر مجبرًا:

- كيف صحته؟

- بخير يا بني، أراه اليوم أفضل بكثير من البارحة، حدثنا الدكتور بأن إقامته سوف لن تطول، فهو في تحسن ملحوظ.

- من سيكون عنده الليلة؟

- لا حاجة لذلك، وأضافت: هذا ما أكده لنا الدكتور.

- عظيم... وتسحب ببطء وهو يردد: تصبحين على خير يا أمي.

تخطى الممر المفضي للسلم الذي يؤدي إلى الطابق الأول حيث غرفته. جلس على حافة سريره، سمع رنات الهاتف تعلن عن حضورها، لم يبد أي جهد للقيام والتوجه لالتقاط سماعة الهاتف... شعر بوهن وتقهقر، نادته أمه بأن هناك من يطلبه... نزل ببطء جنائزي، رفع السماعة:

- نعم، من هناك؟

- أنا جبار عزيزي آدم، وأردف: أعتذر عن إزعاجك ثم صمت. في الواقع أنه لم يصمت، سمعه آدم بوضوح، كان صديقه ينوح، يبكي بصوت مخنوق، فزاد من كآبته موقف صديقه المهزوز، همس آدم برفق أخوي خالص:

- لا تفعل بنفسك كل هذا، الموضوع كله لا يستاهل ما تفعله، يمكنك لو أحببت أن تجلب لي كل الحلي التي تأتيك لتصليحها هنا، سأقوم بعملي بما يرضيك ويجعلك تستمر بتجارتك إن رغبت طبعًا، لكن قراري بالتخلي عنك وفك شراكتي معك أمر في حكم المنتهي، لا تكن أنانيًا، لم أعرف هذه الخصلة فيك، عائلتي تحتاجني في هذا الوقت، كيف تريد مني أن أتخلى عنها؟

سمع همهمات جبار تأتيه بالكاد كان يفرزنها(•) وكأنها آتية له من بعيد:

- حسنًا يا صديقي، سأحقق لك رغبتك، لن أقف في طريق اخترته، أرجو لك التوفيق، لنلتقي غدًا في المتجر ونتحاسب على كل شيء، سوف أرجع إلى مهنتي التي تركتها ساعة موافقتك للعمل معي وافتتاح متجرنا، سأرجع إلى أصلي، أبيع علك الماء(•) أسرح بدراجتي كما كنت أفعل ذلك قبل شراكتنا...

بهت آدم لما سمع، شعر بالحزن ينهش داخله، قال مشجعًا:

- حسنًا، ألقاك غدًا في المتجر لنصفي كل حساباتنا وكما دخلنا أصدقاء نخرج أصدقاء... وقبل أن يغلق الخط سمع صديقه يسأله:

- متى ستزور أخاك نصير؟

ابتسم رغم حزنه، عرف بأن جبار ينوي زيارة أخيه، قال:

- بعد أن نصفي حساباتنا غدًا وأملأ جيوبي بالنقود نتوجه فورًا إليه، ما رأيك؟

- حسنًا... تصبح على خير. وأغلق الخط.

بعد أن وضع آدم سماعة الهاتف في محلها رنَّ من جديد، هو لم يكن يشعر بالرضا الصافي، لا يستطيع أن يتجاوب مع أي شخص في تلك اللحظات، جعل الهاتف يرن، الساعة قاربت العاشرة والنصف ليلاً، غلبه التعب والإعياء، أراد أن يهرب للنوم، لكنه تراجع فجأة عن قراره رفع سماعة الهاتف، قال بعد جهد:

- نعم!

- مساء الخير يا آدم

عاد له النشاط، سرت في بدنه رجفة قوية كلسعة الكهرباء، قوة لا حيال له عليها رفعته من سحيق الحزن العميق الذي كان منذ دقائق مغروز في قلبه إلى طرف عالي فوق الريح، تعجب من موقفه، فجأة يشعر بطاقة هائلة ترفعه ليكون إيجابيًا، متفائلاً، يستطيع أن يتحدث بسهولة مع العالم أجمع وله رغبة في المواصلة حتى الصباح، قال هامسًا في سرة "ما هذا التغيير الغريب الطارئ الذي حصل لي؟ كيف يستطيع الإنسان أن يكون النقيض في لحظة؟" صاح من فرحته:

(•) يفرزنها: يفك رموزها

(•) علك الماء: علك محلي

- منْ، أنْهُر؟

- خوش. نسيتني بهذه السرعة؟

- أبدًا... لكنني، أقصد، لا عليك، كيف حالك؟ هيا أخبريني، فأنا مشتاق لسماع أخبارك بالتفصيل... آه... كم اشتقت إليكِ، نظر إلى الساعة، تذكر الوقت، العاشرة والنصف وخمس دقائق ليلاً، ترى كيف تستطيع أنْهُر أن تتحدث بحرية في وقت كهذا؟ تعجب، سألها:

- هل أنتِ لوحدك؟

- هل تجرؤ أو تفكر بالمجيء؟، تابعت بحنية خالصة: أهلي مدعوين من قبل أختي سمر، سيرجعون في وقت متأخر من الليل، رفضت الذهاب معهم بغية الاتصال بك وسؤالك إن كنت تسمح!...

- أسمح لك على طول الخط.

- ألا تريد أن تعرف عن ماذا؟

- متأكد من عقلك وأضمن تصرفاتك كلها.

- يا لها من ثقة عمياء واستطردت: سمعت بأن نصير في المستشفى، أرغب بزيارته، هل تسمح؟

- أعطيتك رأيي. موافق من قبل أن أعرف.

- خوش، قالت ذلك وهي تضحك برنة هائمة، ناعمة فيها بحة لا يمكن وصفها بالمفردات التي نعرفها، قالت:

- إذن غدًا الخميس بعد الظهر ما رأيك؟ وتراجعت عن تسرعها فسألته مباغتة: كيف هي محاضراتك ليوم غد؟

- الحقيقة أنا لم أذهب إلى كليتي اليوم بسبب سهري للعناية بنصير الليل كله، لكنني غدًا لا أملك غير محاضرتين عند الصباح بعدها أكون حرًا وأقول لك رافعًا يدي، شبيك لبيك... تذكر موعده مع جبار، أضاف: لكنني مرتبط بموعد مساء الغد عند السادسة مع صديقي وشريك تجارتي الخائبة البائرة جبار لفك عقد التعاون الذي أبرمناه منذ أكثر من سنتين!...

مندهشة:

- لماذا تفك شراكتك مع جبار؟
ببطي لا يتناسب وفرحته بها لحظة سماع صوتها:
- هذه حكاية يطول سردها، سأحكيها لك عندما أراكِ غدًا، وأردف: لكنكِ لم تقولي لي بعد، ماذا عن وقت حصصك ليوم غد؟
- عند الثانية عشر أكون قد انتهيت منها، أحتاج بعدها فقط إلى مسافة الطريق، عليك أن تقدر الوقت والمسافة من الآثوريين حتى الجامعة المستنصرية، عندما تتأكد من حساب الوقت أراك هناك في الانتظار، ثم نوهت: ها... ما رأيك؟
- حسنًا، ستتحسن صحة أخي فور رؤيتك، تنبؤاتي لا تخطئ مثل كلماتي ووعودي لا تنزل الأرض ولا تثنى.
بدلال أكدت:
- أمام بوابة الجامعة المستنصرية، عند محطة الحافلات، لا تتأخر عليّ ولنرى إن كانت زيارتي لنصير ستجعله يتعافى أم يمرض أكثر؟!، ثم بجدية أدركت: عندما أقوم بالزيارة لن أجعلك تتأخر على موعدك مع صديقك، لا تلغِه، ستلحق به بإذن الحي العظيم.
- خوش... قال ذلك مقلدها في كلمتها المشهورة التي لم ينقطع لسانها من ترديدها مسرورًا بعد أن نسى همومه وهام معها في رحاب لم يعرف بُعدها عن الأرض، ثم تحدثوا في أشياء تتعلق بدراستها، خاصة وقد عرف بأنها لم تؤدِ امتحاناتها النهائية فاضطرت لإعادة سنتها الدراسية بسبب أزمتها الأخيرة التي كان طرفًا فيها، وها هما في بداية منتصف شهر أكتوبر وبداية عام دراسي جديد، تمنى لها أن تكون مثابرة كي تتخطى محنتها ووعدته خيرًا وودعته بانتظار غدها... أغلقت الخط دون أن يسألها عن كيفية خروجها لوحدها من البيت أو بعد الانتهاء من دوامها الرسمي المدرسي، شعر بقلق، حاول أن يتصل بها ولم يفعل... لأنه تذكر بأن سؤاله سيؤذي مشاعرها، هو يعرفها جيدًا، لا تُسأل على عمل تريد عمله لأنها تكون قد خططت له بإحكام، ترفض الخوض فيه والسؤال عنه باعتبار ذلك يقلل من هيبتها وقوة شخصيتها ويهبط من معنوياتها، لهذا عدل عن الاتصال، مؤمنًا بذكائها وقدرتها وحسن تصرفها.

(١٥)

في الحادية عشر من صباح اليوم التالي كان آدم قد أكمل المحاضرتين الموجودتين في جدول محاضراته ليوم الخميس. لحظات حتى صار في الشارع ينتظر حافلة تقلّه إلى بغداد وهو يستعجل الوقت كي يصل قبل أنْهُر حسب اتفاقهما الموعود. شعوره كان متضاربًا بين النشوة والقلق، الفرحة والخوف، هو يعرف بأن قلقه وخوفه كانا على أنْهُر من أهلها، المأساة التي عاشاها معًا بسبب لقاءهما الأخير الذي رآهما فيه أخوها كمال غيّر مجرى حياتهما وهو السبب الذي جعل أنْهُر تقدم على الانتحار، لذلك كان شعوره متناقضًا، بين الرفض والقبول... لكن القوة التي تدفعه لا طائل في ردها أو إيقاف سيلها، كانت قوة خفية يشعر بوجودها لكن لا يستطيع التكهن في أصل منبعها... ترك نفسه على سجيتها، تابع سيره نحو محطة الحافلات المواجهة للباب الرئيسي لمدخل الجامعة المستنصرية، عرف بحدسه سبب اختيارها المكان، لزحمة الطلاب والطالبات وعدم تمكن أحد من التعرف عليهما وسط هذا الزحام، ارتاح لنتائجة وللطريقة التي فكرت بها أنْهُر، خاصة وأن المستشفى التي يقيم فيها أخيه لا تبعد كثيرًا عن الجامعة... أخذ ركنًا قصيًا من محطة الحافلات وهو يركز نظره بكل من حوله لعله يرى حلم حياته أمامه على أرض الواقع يتحقق.

• • • •

نظر إلى ساعته، وجدها قاربت الواحدة بعد الظهر وأنْهُر لم تظهر. بدأ التشاؤم يتسلل إلى داخله، قال يسر ذاته "ترى ماذا حصل لها؟ ساعة واحدة كافية لنقلها من منطقة الآثوريين إلى هنا، بل أحتاج ربما إلى أربعين دقيقة لتحقيق ذلك. كيف يمكن لي معرفة أخبارها؟ هل اتصل بها على بيتهم؟" هز رأسه علامة الرفض، لم يقتنع بالفكرة، استبعدها، رآها غبية لا تتناسب ووضعهما المتأزم أصلاً، مسح المحطة بنظرة ثاقبة متفرسًا كل الوجوه التي حوله، مدى نظراته وصلت الأماكن البعيدة

كذلك من الجامعة والمحطة ولم يعثر عليها، قلقه بدأ يزداد ويتورم كلما تقدم به الزمن، اللعنة صاح يكلم نفسه "
الزمن مرة أخرى، هذا المارد الذي لا يرحم ولا يعبئ بأحد. نحسبه، نتأثر به، يسحقنا ولا يجعلنا نراه أو نشعر بوجوده كمادة محسوسة، من أي مادة أنت يا زمن؟ هل أنت موجود فعلاً؟ أم يتخيل لنا وجودك، حتى بتنا نصدق بك ككذبنا المستمر الذي يجعلنا نصدقه كلما زدنا عمقًا بتكراره!" في هذه اللحظة شعر بيد تقف على كتفه وصوت هامس يقول:
- ضبطتك بجرمك!... ماذا تفعل هنا ومنْ تنتظر؟

أدار رأسه فرآها متوهجة ككتلة نار، جمال، فلقة رمان وجمار، أجاب مداعبًا بعد أن استولى السرور على قلبه ورجعت إليه طمأنينته التي فقدها لتوه:
- كنت أتمشى على الكورنيش للنزهة!، ثم بسرعة بديهية أوحى لها ماكرًا بذات اللهجة المداعبة: حتى انظري إلى مجرى النهر هناك حيث الشجر ومهب الريح، وسألها مباغتًا:
- لماذا تأخرتِ؟ كدت أفقد صوابي!.

وهي تضحك برقة وعذوبة:
- سلامتك من كل مكروه، استطردت: غصبًا عني والله، المواصلات كما تعرف واليوم خميس ثم مدت له يدها مرحبة... صافحها بشوق عارم، أبقى يدها في يده، استعمرها وجعلها رهينة دون أن يأخذ رأيها أو يسألها، في أحيان يحتاج المرء إلى أن يؤمن ما داخله يشير إليه، يلبي طلباته دون أن يعير كثير اهتمام للحضارة، ماذا يعني لو رجع الإنسان ولو للحظات إلى أصله؟ إلى الطبيعة التي جاء منها وعلمته أول حروف الإيمان "الصبر والتأمل" ألم يكن الصياد قبل التاريخ يجلس متأملاً، داعيًا، مسترجيا أن تظهر له فريسه تشبع معدته وتسد رمقه؟!. أنْهُر ارتاحت لتصرفه، في مثل هذه اللحظات التي تصدقها، تؤمن بها بعفوية خارقة لا حدود في صدقها إلا إذا اكتشفت العكس، فلو حصل واكتشفت العكس وقتها لن تجد أنْهُر التي تعودتُ على رؤيتها، تكون شخصًا آخر تمامًا، نمرة مجروحة، لا تشعر بالخوف والرهبة ساعتها ولن تقدر على الوقوف أمامها،

هكذا هي أنْهُر عندما تجرح... استقلا أول تاكسي رأياه أمامهما وتوجها حيث مستشفى ابن البيطار.

• • • •

في الطريق سألت آدم إن كان يعرف محل يبيع الورود والزهور، أجابها بالنفي، توجهت لصاحب التاكسي وهي تعيد عليه السؤال ذاته، قال بإسهاب موصول بالرأفة:

- نعم أعرف محل لا يبعد من هنا كثيرًا ولا عن المستشفى، تستطيعين أن تقولين في الطريق الذي أمامنا. ارتاحت للهجة السائق وإسهابه في الوصف وللنتيجة. همست لآدم بأنها ترغب في شراء باقة ورد لتقدمها لنصير، أثنى على فكرتها وهو يشد يدها التي لم يتركها أو يسرحها من سجنها بحرارة، بل العكس، ضغط عليها حتى طقطقت أصابعها وهي تنظر له بفرح غمر كيانها... حرص آدم على أن لا يجعل السائق يرى أيديهما وهما في حالة تناغم لم يتعودا عليها في أوقاتهما التي مضت.

توقف السائق على جانب الشارع وهو يشير لهما بقوله:

- هذا هو المحل الذي على يمينكما. تفضلا اشتريا ما تريدان، سأنتظركما على الرحب والسعة.

خرجا من السيارة، توجهت أنْهُر نحو صاحبة المحل بخفة سير الملائكة في حين ظل آدم ينظر إلى باقات الورود والزهور يتمتع بمنظرها. لم يدرك آدم تمامًا ما كانت أنْهُر تتحدث به مع صاحبة المحل، تحركت الأخيرة التي كانت سيدة في الأربعين، أنيقة، رفيعة وسافرة كمثيلاتها من السيدات البغداديات الآتي كُنَّ يعملن، الحجاب لم يكن الموضة ولم يكن معروفًا في نهاية الثمانينات من القرن المنصرم إلا ما ندر. في وقت ما شعر آدم برغبة في إحصاء المحجبات في القسم الذي يدرس فيه، وجده عدد بسيط لا يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة من مجموع مائة وعشرين... قال يحدث نفسه وقتها "رائع، العراقيات واعيات، يدركن بأن الملابس لا قيمة فكرية لها، القلب والعقل وما يحملان هما يوجهان الإنسان في الحياة،

الإيمان لا يمكن أن يقتصر وجوده أو بيان قوته وتأثيره من الملابس التي يرتديها الشخص، ولو كان هذا هو المقياس لضمنا جميعنا دخول الجنة دون حساب، ثم ردد متمنيًا، أرجو أن يستمررن هكذا دون تغيير في أفكارهن أو مبادئهن أو ملابسهن وتابع في خاطره، من يعلم؟ كل شيء قابل للتأثر والتغير"... قطع خيط تأملاته صوت أنْهُر وهي تقول له طائرة من الفرح:

- ما لك؟ هيا، لقد اشتريت ما أحتاجه، انظر لها، يا لها من باقة رائعة، حاول أن يذهب للسيدة صاحبة المحل لدفع حق باقة الورد، أنْهُر سبقت توجهه قائلة:
- هيا صاحب التاكسي ينتظرنا، لقد دفعت للسيدة وأعطيتها حق الباقة وبقشيشها كذلك، ثم وهي تغمزه: أنْهُر لا تنسى شيئًا، شرعت رافعة باقة الورد عاليًا أمامها:
- ها... ما رأيك فيها؟
- رائع، تابع مغازلاً ناسيًا نفسه والموعد وصاحب سيارة الأجرة الذي لم يكن بعيدًا عنهما:
- هذه الباقة تعبر بلا كلام عن طبيعة أنْهُر ببساطة شديدة وهو يشير إلى باقة الورد، هذه أنتِ بروعتها وجمالها وعطرها الفواح الذي يشبه عطر الرازقي في ليلة صيف بغدادية، ودلالاتها ومعناها في الحياة. ضحكت بهمس، وضعت راحة يدها على فمها كعادتها، سحبته من يده وتوجها إلى التاكسي الذي صاحبه لم يقتنع بالجلوس في سيارته أثناء انتظاره، بل راح يدخن سيجارته بوقفته الجانبية المواجهة غير البعيدة عن محل الزهور متمتعًا بالمنظر الذي يراه أمامه!... رمى عقب سيجارته على الأرض، سحقه بقدمه، رأته أنْهُر بدقه ولم يعجبها تصرفه، لكنها لم تبد أي تعليق أو اهتمام، كانت بصحبة حبيبها، وقتها أثمن وأغلى من كل مجوهرات العالم مجتمعة... استوقفها آدم فجأة وهو يشير لطرف الطريق قبل أن يصعدا التاكسي:
- انظري إلى هناك يا أنْهُر.

تتلفت حولها، لم تعرف ما كان يعني، سألته مستفهمة:

- أين؟
- هناك... حيث الطرف الآخر من الطريق.

- أنا لا أرى غير طفلة بصحبة امرأة وعلى الأرجح تكون أمها.
- أتمنى أن لا تكبر تلك الطفلة، تابع بحسرة منوهًا برمزية:
- سينتظرها مصيرنا، وحصيلتها لن تكون أكثر من القهر والعذاب والحرمان والتهميش، أتوقع أن تسيء الأمور وتصبح الحياة هنا في عراقنا الحبيب لا تطاق خاصة للمرأة... يا ويحنا لو تنتقل هذه العدوى التي أراها ماثلة أمامي كأنها حقيقة من حقائق اليوم وليس المستقبل إلى باقي قارات العالم العربي، سيضحك علينا الجاهل قبل المتنور، المصيبة التي لا نعي عليها هي إننا قوم نحمي وندافع ونتمسك بالأعراف أكثر من أي شيء آخر في حياتنا وكأن أعرافنا أخلاقنا والعياذ بالله... قاطعته متعجلة صائحة:
- آدم، أرجوك اخفض صوتك. لا تتمادى في قولك، نحن في الشارع هل نسيت نفسك؟!
- لا، لم أنس نفسي ولا أريد أن أتقارش معهم(•)، أنا لست ضد أحد، بل ضد الذين يفكرون ويعملون ضد منطق الأشياء، أعني، أنا مع منطق الحياة في أي زمان ومكان من هذا العالم، قلت ما أفكر به بصوت عالٍ فقط، أتنبئ للمستقبل، أتخيل حالنا بعد عدة سنوات، أحاول أن أنوه عن مصائب ستقع، هل هذا النوع من التفكير ومحاولة طرحه هو الآخر ممنوع؟ طفق متهكمًا:
- كنت أتصور بأن الذي منع هو الحديث عن الماضي والحاضر فقط، لم أكن أعرف بأن المستقبل بات من المحرمات التي تستحق السحق؟!... ثم متندرًا:
- يقول حنا مينه في هذا الصدد صادقًا "المجتمع يريد الكل على شاكلته، بابه مشرع وعريض للمنافقين واللامباليين الذين يتسلقون قاطرة الحياة دون تذكره، المجتمع متسامح مع الجميع إلا الذين يتمردون عليه"... يا خوفي يا أنْهُر أن يأتي يوم علينا نطرد فيه من وطننا وتنبش عظام موتانا من قبورها ويحرقونها لأننا على غير أعرافهم رغم عراقيتنا، ولو حصل ما أخاف منه سنهزم، فالإنسان يُهزم أولاً من داخله قبل أن يهزمه عدوه، ولو هزمنا أمام أنفسنا سيكتب علينا السلام، أرجو ألا

(•) أتقارش معهم: أحتك معهم ، أو أنازلهم

يحدث ذلك... وصلتهما قهقهة السائق، تنحنح وهو يقترب منهما معلقًا بثقة راسخة كما شيد بطرس كنيسته على صخرة:

- لا تخافي عليه، شاب شجاع، لم يقل غير الحق، أنا من رأيه، انظري سيدتي، أنا جندي مكلف أحارب في الجبهة، حصلت على إجازة بعد أن خرجت روحي من فمي، لم أرَ أسرتي منذ شهرين، هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟ وعندما رجعت إلى بغداد للتمتع في إجازتي مع أسرتي وجدت صاروخًا كان قد وقع بالقرب من بيتنا، طالتنا شظاياه، كسرت الزجاج وصدّعت الأبواب، الأدهى والأفظع من كل ما ذكرته كانت أسرتي جائعة لا تملك ما تأكله، فأجبرت مرغمًا أن أعمل للحصول على بعض المال الذي سأبقي جزء منه عند زوجتي بغيابي، أنه أمر مؤسف دون شك، لكنه واقع حال كذلك.

استمعا له دون أن يعلقا، كان الرجل صريحًا وصادقًا في قوله، العراقي في أوقات معينة ينسى نفسه، يصبح أسدًا لا يهمه من يكون أمامه، هكذا عرف عن العراقي في الأوقات الحرجة، شهمًا، شجاعًا وكريما، وقت الجد تظهر المواهب، ينقلب نسرًا وهو يدافع عن الحق في الساعات العصيبة، أعناق العراقيين ليست حبالاً كي تلوى بسهولة... صعدا التاكسي، طلبا منه بود أن يسرع، اتجها صوب المستشفى الذي لم يكذب بوصفه صاحب سيارة الأجرة، فقد كانت بالفعل قريبة جدًا من محل الزهور... أثناء الطريق سألت آدم همسًا:

- لماذا قلت ما قلته عندما كنا على الرصيف؟

- لا تشغلي بالك، تكهنت في المستقبل فقط، هذا كل ما حدث، ثم استدرك:

- هناك من أثبت بأن المستقبل موجودًا كالحاضر لكننا لا نصل إليه إلا بسُرعات وأوقات مختلفة، اسمعي، لو فكرنا الانطلاق من هذه النقطة بوقت واحد ولكن بوسائل مختلفة ووجهتنا تكون مثلاً مدينة البصرة، تستقلين أنتِ سيارة، وأنا أذهب إلى الهدف قائدًا دراجة هوائية، من سيصل أولاً؟

بهتت من سؤاله الواضح ثم ردت ببساطة:

- أنا طبعًا.

- عظيم، يعني ستصلين إلى الهدف قبلي لأنك استعملتِ وسيلة أسرع من وسيلتي، وبذلك وصلتِ إلى البصرة التي تعتبر لنا المستقبل في حالتنا هذه لأننا ننتظر رؤيتها معًا بعد أن انطلقنا في وقت واحد من نقطة واحدة... قاطعته:

- بدأت أصل إلى ما تريد قوله، تفسير مذهل ومنطقي.

- كي تعرفي بأنني مع منطق الحياة في تطورها وتجددها، لا أن نسلّم بالأمور التي يصنعها الإنسان بيده ثم نؤمن بها على علاتها كأنها منزلة من السماء عن طريق وحي... هذا ما أردت قوله عندما كنا واقفين على الرصيف قبل قليل... في هذه الأثناء وصلتهما كلمات السائق وهو يعلن عن وصولهم... صعدا من فورهما إلى الغرفة التي يقيم فيها نصير وباقة الورد الفواحة بعطرها تتقدمهما.

تورد وجه نصير بعد أن رأى أنْهُر، أنبهر بجمالها الأخاذ الساحر، سلّمت عليه بحرارة صادقة، تمنت له السلامة والخروج من المستشفى سريعًا معافى، ارتبك من حرارة ترحابها وحركتها وعطرها ولباقتها في الحديث، انتشرت في الغرفة فرحة كالنسمة الرقيقة لم يتوقعها، تمتم نصير محاولاً الكلام فمنعته برنة صعقته وهي تردد:

- أرجوك لا تتعب نفسك بالكلام، ما جئت إلى هنا إلا بدافع الواجب. نظر لها بعينين مجهدتين، غمغم:
- اعترف بأني كنت مخطئًا بحقك وحق آدم، ثم بجدية نادرة الحدوث في حياته: لم أتوقع أن تكوني بهذا اللطف، ثم مجهدًا: صحيح من قال "من لا يعرفك يجهلك" أدركت لتوي لماذا كان آدم مصرًا على الاستمرار في علاقته معك... ستسمعين في القريب العاجل أخبارًا تسرك، أعدك بذلك، أنتِ إنسانة رائعة جديرة بالحب والاحترام والتقدير، بلع ريقه، أضاف بصوت خافت أدركه الوهن:
- هناك من كنت أعتقد بأنهم من الصحاب والأحباب لم يفكروا حتى بالاتصال بي والسؤال عن صحتي كعاصم زوج أختك مثلاً وجليل ابن عمي... أراد أن يتابع فقاطعته أنْهُر بسؤالها وهي تبتسم باحترام مصحوب بالخجل:
- أين يمكن لي أن أحصل على مزهرية(•) أضع فيها باقة الورد هذه؟

تدخل آدم قائلاً:

- في الممر على يمينك ستجدين كل ما تبحثين عنه.

ثم اقترب من نصير وقبلّه من جبينه المفصد بالعرق وهو يردد:

- ما شاء الله، تحسنت صحتك كثيرًا، لم تعد تحتاج لرعايتي وعنايتي، هذا يعني سأنام اليوم في بيتي مرتاحًا، مبكرًا دون سهر أو أرق أو حتى أن أتشبع برائحة

(•) مزهرية: زُهرية

الدواء الكريهة التي لا أطيقها... قضيا وقتًا ممتعًا وهما يشعران بسعادة لا عهد لهما بها من قبل. في الطريق أثنى على فكرتها، قال لها مباركًا:

- لقد جاءت زيارتك بنتائج باهرة لم أكن أتصور بأن الأمور ستكون أو تسير بهذا الشكل.

- كي تعرف من هي أنْهُر!

- أعرف، جمال على حكمة. ضحكت، أمسك يدها، طوال الوقت كان يلامس يدها ويحضنها، لم يتركها، سألته مستفهمة:

- تحاول أن تنسيني ما أريد التأكد منه؟

- أنا أحاول أن أنسيك!، كيف؟

- لماذا تريد ترك عملك مع صديقك جبار؟

- آه... فهمت الآن، إذن براءة والحمد لله، استطرد بحسم:

- لأنني لا أستطيع، اسمعي، كما تعلمين عندنا متجرنا في منطقتنا، بعد وفاة المرحوم أخي سعيد الذي كان يديره أصبح فجأة شاغرًا، ما جمعناه في سنوات من علاقات وزبائن تبدد، مجيد ومروان لا وقت لهما، نصير يدير محلنا القريب من شارع المتنبي في إجازاته وبعد الظهر متى ما سنحت له الفرص، المسؤولية واقعة عليّ، هذا جزاء من يبقى مدني في أسرته، عليّ أن أدرس وأدير محل نصير وفي المساء أكون متواجدًا في دكاننا في منطقتنا بعد اليوم، دكاننا في الحقيقة كان يدر ربحًا رائعًا، أهلي بحاجة إلى المال، هل تعرفين من كان ومازال يعينهم طوال فترة الحرب؟ أجاب على سؤاله متعجلاً: أنا... رغم انشغالي بدراستي الجامعية، قد تسمينه عقاب، لكنه واقع حال، تجارتي مع جبار صديقي لا تدر عليّ إلا فتاتًا قليلاً من المال لا يذكر بالطيبة، أعرف بأني سأكون غريبًا في منطقتنا، لم أتعود العمل فيها، طوال الوقت كان رحمه الله سعيدًا متواجدًا والناس يعرفونه ويحبونه، فقاطعته بغيرة نسائية طبيعية:

- ستكون بعيدًا عن إخلاص أليس كذلك؟، عدّلت سؤالها، قالت: ألا يضايقك هذا؟

نظر لها بدافع الفضول ليجس مدى غيرتها عليه، شرع:

- فكرتِ فيما يخصكِ، ثم معقبًا: تركتها كما تعلمين، ليس لي علاقة بها منذ أشهر، منذ كنا في منتجع الحبانية، حكيت لكِ ذلك وقتها وانتهى الأمر... استوقفته في الاسترسال برقة:

- أردت أن أعرف مقدار غربتك عنها وجديتك معي.

- أما زلتِ لا تعرفين؟

- بلى، وتابعت: الاحتياط واجب كما يقال، أليس أنت من نسل جدنا آدم يا آدم؟...

- والآن... ماذا تقولين؟، هل ضمنت حقوقك؟

مازحة:

- الرجال لا يأتمنون تمامًا.

- متى نتخلص من هذه اللعنة، معذرةً، أعني، من هذه التهمة؟

- لن تتخلصون منها إلا بإثباتكم العكس دائمًا وأبدًا... ضحكت. شاركها الضحك. تحولت الضحكات الهامسة إلى قهقهات... باغتته:

- بعد الذي سمعناه من نصير قبل ساعة يجعلنا نفكر بجديه خالصة، نخطط لمستقبلنا بشكل سريع أكثر فاعلية، ما رأيك؟

- عندكِ حق. لابد من التحرك السريع.

- هل تظن الوقت الآن مناسب لكَ؟

- لماذا لا تقولين مناسب لنا؟... قال ذلك وهو مازال يستعمر يدها.

- هذا صحيح، تابعت: أبدأ أنت من جانبك وأنا من ناحيتي سأهي الأجواء عندنا في البيت، ثم عرجت:

- لا أريد بعد الزواج أن أجلس في البيت، سأكمل دراستي، المرأة لابد أن تكون عاملة ومفكرة، لا أريد أن أذكرك بما تحمله من مبادئ، عدني بأنك ستساعدني بهذا الشأن وتجعلني ناجحة مثلك.

- أعدك. رفع يدها، لثمها بحنية، احمرت وجنتاها، بان خجلها، فضحها، نوهت بدلال فطري هامسة:

- يكفي هذا، السائق!... ثم تحدثوا بأمور تتعلق بالدراسة حتى وصلا منطقة الآثوريين، في الشارع الذي يسبق شارعهم حيث تسكن توقفت سيارة الأجرة بطلب منها، ودّعها وهو مازال في السيارة لم يترجل طلبًا لسلامتها من العيون والألسنة، أنْهُر لم تكن راغبة في النزول، أرادت أن تبقى معه اليوم كله، بل الحياة بطولها، قالت هامسة بحنية، شعر بلذتها وسحرها وعذوبتها وعذابها في وقت واحد:
- لا أريد الترجل وتركك...

قبّل يدها ثم تركها وتمنى لها أوقات سعيدة حتى لقاءها مجددًا، لحقته كلماتها: سكب الله أفراح الدنيا كلها في قلبك وأودعها فيه ما حييت... ترنم داخله بما سمعه نشوة، استمر في طريقه بعد أن طلب من صاحب التاكسي أن يقله إلى حي جميلة عند ساحتها الجرداء غير الخضراء متوجهًا إلى متجره للمرة الأخيرة لتصفية حسابه مع شريكه... وظل الطريق كله عازف عن الكلام صامتًا.

• • • •

على الرغم من وصوله قبل موعده بنصف ساعة لكنه وجد جبار في انتظاره، كان الأخير مشغولاً بتجميع ايصالات المحل ومحاولة ضبّها في ملف مفتوح أمامه، في جانب آخر ينظر منهكًا مهمومًا إلى بعض الأوراق والأغراض المبعثرة على الطاولة الخشبية الصغيرة يجلس خلفها التي نجرها لهما صديقهما أمجد من قبل وقدمها لهما كهدية رغم عدم احتمال الأخير لتصرفات جبار ولم يكن يحمل له الودَّ الصادق خلافًا لآدم الذي أحبه بصدق وفضّله على الكثير من أصدقائه المقربين.
رحب جبار بصديقه. أعاد عليه كمحاولة يائسة أخيرة السؤال الذي طرحه ليلة البارحة ذاته إن كان جادًا في قراره، آدم لم يجبه، فضّل السكوت أخذ بتجميع الحلي ووضعها في الميزان كل حسب عيارها، ثم أتى بالفضة التي كانت تملئ واجهة المتجر، سجل وزنها كما فعل مع الحلي الذهبية، مضت ساعة ونصف حتى كانا قد جردا كل ما موجود في دكانهما من أموال ومصوغات، خرجا بنتيجة لم يتوقعانها مذهلة الأرباح بعد عمل سنتين ونيف معًا، في هذه اللحظة سأل آدم صديقه:

- ماذا سنفعل بالدكان؟ هل نرجعه لصاحبه أم نجد له مؤجرًا ربما يدفع لنا شيئًا كما دفعنا من قبل؟، ثم سأله مباشرةً:
- هل تذكر كم دفعنا للعجوز صاحب المكسرات وقتها كي يتركه لنا؟
- خمسمائة دينار، وتابع بكلمة مقتضبة حاسمًا النقاش:
- سأحتفظ به، ليلة البارحة لم أنم دقيقة واحدة، كنت أفكر بما سأفعله فيما بعد، أفكاري كلها تجمعت في نتيجة واحدة، أن استمر في عملي بالدكان بمفردي مع تغير الصنعة، إذ سأتاجر بالملابس ولعب الأطفال، مهنتك لا أقدر عليها، لا أجيدها، وكما يقال، رحم الله من عرف قدر نفسه، ثم مباغتًا:
- كم تريد وتترك لي الدكان بعد أن نتحاسب طبعًا على العينيات كلها ونقتسم سعرها الأصلي والأرباح التي جنيناها طوال الوقت الفائت؟!

دون تفكير طويل:

- لا شيء. لا أريد منك أي شيء عزيزي جبار غير نصف سعر البضاعة المتبقية ونصف الأرباح التي حصلنا عليها وعدة الصياغة التي أحضرتها معي لأنها لا تخصني لوحدي، بل هي إرث من أبي لا أستطيع التخلي عنها... ما عدا ذلك يكون من حصتك بلا مقابل.

ترك جبار ما في يده، انهمرت دموعه كما حدث له في يومه السابق عندما أبلغه آدم بقراره، تعثر لسانه وتعذر عليه النطق، انحشرت الكلمات في حلقه ولم يستطع قذفها، اقترب من صديقه، حضنه، ارتفع نشيجه الصامت وهو يدمدم بكلمات مثل الحشرجة:

- لو سألوني من تحب أكثر محمد أخي أم آدم؟ سأجيب دون تردد: الاثنان بنفس المقدار... واجه آدم كلامه بابتسامة متألمًا للموقف، قلبه لا يتحمل كل هذه العواطف الجياشة دفعة واحدة، في نظر نفسه هو لم يفعل إلا الواجب مع أعز أصدقائه، جبار كان له الناصح، الغيور، الطيب، والوفي في زمن قلَّ مثيله، آدم يعلم ذلك جيدًا، الأمان للإنسان في ثمانينيات القرن المنصرم من أصعب الأشياء التي تمل في البحث عنها ولن تجدها، لكنه وجدها عند جبار الذي كان مثال الصدق والأمانة، خاصة وهو يعرف إمكانية صديقه المادية الضعيفة التي لا تذكر بالحسنى، طبطب على كتفه، قال:

- ما هذا؟ الفصل الأخير من مسرحية العملاق؟

ارتبك جبار، مسح دموعه بقفى يده، ابتسم سائلاً:

- ماذا قلت، مسرحية العملاق؟ لم أقرأها، لمن هذه؟

- لي؟ كتبتها من فصل واحد وأراد أن يستمر فقاطعه دخول شاب طويل ببذلة صفراء فاتحة عتيقة، له وجه منمش، حليق الشاربين، شعر رأسه طويل، سرح ومليء بالقشرة وهو يتجه نحو آدم مباشرةً ويسأله بعد أن رفع يده محييًا:

- ألم تعرفني؟

تفرس في وجهه للحظات ثم عادت له ذاكرته، صاح مرحبًا:

- منصور... نعم، منصور، لا تقل بأني أخطأت، منصور الذي يقارعني وينافسني في قرض الكتب عندما كنا في الابتدائية!!.

- آه... كما أنت لم تتغير، نعم أنا منصور زميلك ورفيق جلوسك على رحلة (•) واحدة منذ الرابع ولغاية حصولنا على البكالوريا في السادس الابتدائي... تعانقا بحرارة، قدم آدم زميله السابق إلى صديقه جبار، وسأله عما يفعله:

- في السنة الثالثة من كلية الحقوق.

صاح آدم برفق:

- عظيم، ستكون محامٍ ناجح، بالتأكيد ستدافع عني وقت اللزوم أليس كذلك؟، ثم عرّفه إلى صديقه جبار بإسهاب:

- هذا جبار من أعز أصدقائي، في السنة الثالثة من كلية الزراعة قسم البستنة، قاطعه منصور سائلاً:

- وأنت، ماذا تدرس؟

- أدرس الحيوان الذي فضلته قسرًا على الإنسان!

باسمًا:

- ماذا تقصد؟

(•) رحلة: طاولة الجلوس الخشبية في الصف المدرسي

- سنة ثالثة كلية الطب البيطري جامعة بغداد، ثم رأى في يد صديقه الطويل ذو الشعر المسبل الأسود كيسًا أبيضًا عتيقًا مترّبًا، مجعدًا ومدعكا من البلاستك، سأله بلا تردد:

- أقطع يدي من هنا وهو يشير إلى كتفه إن لم تحمل كتبًا فيه، وتابع نابرًا: أرني إياه... ارتبك منصور من الموقف، كان يعرف آدم جيدًا ولا يخاف منه، بل تردده وخوفه كان من جبار الذي تعرف عليه لتوه، خبَّأ الكيس ورائه كاذبًا:

- فيه أشياء خاصة تتعلق بزوجتي!

- يا ماكر، تدرس القانون وتريد أن تضحك علينا؟ آه فهمت الآن... بحدسه فهم آدم ما يرنو له منصور ويفكر به، أشار بجدية بعد أن هدأ:

- أنت لا تأتمن لجبار، نظراتك تقول هذا، من حقك، زمننا أغبر لا يؤتمن، أصبح فجأة المختار وزيرًا، كيف، لا تعرف، لكنني أطمئنك يا عزيزي، تستطيع أن تعتبر هذا الصنديد السمين الأسمر القصير الواقف معنا صديقًا وفيًا، تعتمد عليه في كل شيء حتى أسرارك... أرتاح منصور لهذا التنويه، تردد للحظة ثم شرع:

- أؤمن بك من قبل وأثق بتصرفاتك يا آدم، وعليه أرحب بصديقنا جبار وأعتبره واحد مننا، وهو يتحدث كان قد فتح كيس البلاستك وأخرج منه رزمة من الكتب، سلمها لآدم من تحت سترته بحذر راجيًا:

- أخفيها بسرعة، أنها لكارل ماركس، وأحد هذه الكتب نادر التداول في العراق، أنه رأس المال. انبهر آدم لشجاعة زميله القديم، قدرَّ ثقته وخوفه في نفس الوقت، هو لا يرغب باصطناع المشاكل لنفسه، ظروفه مكركبة ومربكة بما فيها الكفاية، صحيح يقرأ كل شيء وكل ما يقع تحت يديه، لكنه يعاف السلامة في زمن لا يرحم العقلاء ولا المجانين على حدٍ سواء، يعرف قانون بلده وحكم الكايزر وتعسفه وعنجهيته وأزلامه وقسوتهم ورعونتهم وعدائيتهم، في تلك اللحظة بالذات تذكر الموقف الذي لم ينساه، كان حاضرًا معه في كل لحظة يحياها كنبض قلبه عندما انتصف النهار وبدا المكان خاويًا كأنه سوق مغلق الأبواب، قاتمًا، حزينًا وكئيبًا إليه... في ذلك اليوم الذي انقلبت فيه أيامه التي تلت الحادث رأسًا على عقب، كأن مكان تواجده في تلك اللحظة في سنته الأولى من دراسته بجامعته أظلم ككهف لا تشرق عليه شمس. لكن من هذا الذي يستطيع أن يلين

القدر ويسخره؟! قبوله في كلية الطب البيطري وانتسابه لذلك الكادر الذي لا ينتمي إليه ولا يقدره... ظل هذا الهاجس جاثمًا على نفسه ثقيلاً كالحجر أرهقه وجعله صريع أفكار غريبة شبه عدائية لمحيطه الذي حمّله الذنب كله، وصب عذابه في وعاء لا ينضح منه سوى الكره لهذا الاختصاص ولمواده العلمية الجافة العقيمة حسب رأيه، خاصة في بداية حياته الجامعية التي سرعان ما كشف أهميتها ولذتها وهو يتعامل مع الحيوان دون الإنسان. لذلك عمل بجد مثابرًا لقلب نظام الحياة الجامعية وحيثما استطاع، ليبرز مواهبه الأدبية من جهة وليعيق الدراسة من جهة أخرى؛ ففي أغلب الأحيان يفحم الأساتذة أثناء المحاضرات بأسئلة لا تتعلق بالمادة العلمية بغية إحراجهم ولتأخير وعرقلة سير الدرس وقد نجح في ذلك كثيرًا، باتت سمعته في القسم الذي يدرس فيه على كل لسان... بل انحدر الموقف نحو الاستهتار عند بقية الطلبة أيضًا عندما أصبحوا يطلبون منه أن يجادل الأساتذة في آراء ونظريات وأفكار فلاسفة ومشاهير في عالم الأدب المتمكن من علمه... تم له ما أراد بثقافة لا تقهر ولا تقارع، وهم في النهاية الخاسرون.

"فما أن أنهى امتحانه الأخير في سنته الجامعية الأولى بمادة الثقافة القومية عند منتصف ذلك النهار الذي لا ينشق له غبار... خرج من قاعة الامتحان وهو يشعر بأنه سيعيش حياة العطلة الصيفية كما يحلو له ويشاء، دون حيوانات وهو مازال يسير في نهاية الممر الذي يوصله إلى خارج ردهة القاعات الدراسية... سمع صوت نسائي مرتجف، متعثر بخوفه يناديه كالهمس:

- لقد رأوك!... اهرب يا آدم من هنا حالاً، توارى عن الأنظار... هيا لا تتردد أو تتأخر... ثم سمع صوتا رجاليا خشنا يحثه هو الآخر على الهرب أو الاختفاء، يهتف به بشجاعة كاذبة وبصوت خفيض:
- أطلق ساقيك للريح ولا تنظر وراءك، لقد رآك رئيس اتحاد الطلبة بنفسه، أنا واثق مما أقول وأنت كما لا يخفى عليك من يكون ذاك وماذا يمكن أن يفعل؟! ثم أضاف مقتضبًا: لا أريد أن أصرح أكثر، اهرب.

لم يفهم آدم الموقف الذي يدور حوله، لم يسعفه ذكاؤه في تلك اللحظة من استيعاب التهديد والخطورة التي تنتظره؛ بقي ساهيًا، متفكرًا ومحتارا كأنه يمثل دور الأسير

المرتبك المغلوب على أمره، وعى على نفسه، حاول أن يسأل الطالبة فضاء التي حذرته بصوتها الناعم، الهامس، أستوقفها:

- ما الذي يدور، ولماذا أهرب؟! ثمَ تابع أسئلته دون أن يتلقى الجواب: ما الذي فعلته؟! لقد خرجت للتو من قاعة الامتحان وأنا لا أنوي سوى مغادرة الجامعة متوجهًا لمنزلنا.

نظرت له فضاء بعين الرأفة والشفقة، قالت بصوت مخنوق، ضعيف لا يكاد يسمع:

- صورة الكايزر كانت في أول صفحة من الكتاب... أنت يجب أن تعرف الباقي!، فرت هاربة بذعر حقيقي لا يوصف، كأنها تبتعد مسرعة من نار مستعرة لحريق هائل لا تحب أن يلتهمها.

نظر إلى زميله الآخر الذي نبّهه... وجده كان قد أصبح بعيدًا عن مرمى نظره ليبدو كالشبح في حلم ضبابي... استغفر ربه، صرخ بغضب مبتهلاً كأنه ضحية شيطان:

- يا رب أجعل القادم خيرًا... فأنا لم أقترف جرمًا ولم آت بذنب، تلفت حوله كأعمى يتلمس طريقه بعصاه وفر هاربًا نحو داره.

وصل بيتهم والهم راكبه، مرتجف الأطراف، هاذي اللسان، قلق النفس، شارد الفكر، غائب العقل، متوتر الأعصاب، ومن الخوف في نهايته؛ دخل غرفته المربعة الأضلاع وتوسطها واقفًا، ساكنًا، كالتمثال... دخلت عليه سلوى أخته التي رجعت تسكن مع أهلها بصحبة ابنها قيصر بعد طلاقها من زوجها، ارتعبت متراجعة إلى الوراء وهي تصفع خدها دون وعي من منظره الشارد الغريب الذي يدعو إلى الرهبة ويغالب الذعر في سطوته... نادته بصوت قلق مبحوح وبشجاعة زائفة، بحكمة لا تعود لها:

- آدم... أخي... ماذا وراءك؟! لماذا تقف هكذا كالصنم؟!

لم يسمع حرفًا مما نطقت، ظل في سكونه غارقًا كجذع شجرة منتصب. كررت قولها:

- أرجوك... رد عليّ، ما الذي يشغلك لهذا الحد؟!، قل ما في نفسك...

انتبه إلى نفسه، وإذا به يخجل من منظره، حيث كان قد بدء بفتح أزرار قميصه ولم يكملها، أدار لها ظهره وهو يغلق أزرار قميصه بارتباك وسرعة وبأيدٍ مرتجفة، سألها:

- منذ متى وأنتِ هنا؟

- منذ لحظات يا عزيزي، استطردت: قلت لنفسي، لأذهبّنّ إليه وأبارك له نهاية امتحاناته ولأدعوه لتناول الغداء معي... ثم صمتت كأنها تذكرت قلقها عليه... بادرها بالقول مطمئنًا:

- يا فلذة كبدي... لا تقلقي عليّ، أنا بخير، أنهيت امتحاناتي، سأستمتع بعطلتي الصيفية كما أشاء... ثم تذكر الأصوات التي نادته في الكلية بعد خروجه من قاعة الامتحان، قطب حاجبيه، تغيرت سحنته، امتعض، همس مترددًا: هناك... أقصد، مشكلة، بحلق جاف تابع:

- أعني... لقد حصل شيء قد لا تكون عواقبه سليمة، هذا ما فهمته منهما... واصل: قالا... تردد، ثم استطرد:

- قالا بأن صورة الكايزر كانت في أول صفحة من الكتاب!، أشارا لي بالهروب والفرار... لأن... لأن أحدهم قد شاهدني وأنا... سكت وكأنه قد فارق الحياة.

- لم أفهم شيئًا مما قلته والله. أجابته بصدق وهي تنظر له نظرة خوف، كخوف الطفل الذي يهاب المشي كيلا يسقط.

- يا نبض قلبي، صدقيني وثقي بي وبما أقوله:

- أنا لم أفعل شيئا، لم أقترف إثمًا أو جريمة يحاسب عليها القانون، بل لم أع حينها ولم أفقه في تلك اللحظة الغبية الطائشة بأن الأمور يمكن أن تصل إلى هذا الحد الذي يجعلني مهددًا، خائفًا، هاربًا ولا أنوي سوى الاختباء... ضرب رأسه بقبضة يده وهو منهار القوى والأعصاب، يردد بانفعال وبصوت متهدج:

- تبًا لي... غبي وأحمق.

أجلسته قبالتها، لعبت بشعره الطويل بلطف ورقة، مواسية:

- آدم... انتبه إلى نفسك، لكل مشكلة حل، ثم بعطف حقيقي: قص عليّ ما حدث بالضبط، بهدوء وروية، سنجد بالتأكيد حلاً يخرجنا من هذا الموقف الذي يبدو لك جريمة، ولعله لا يكون ولا يستحق منك كل هذا الخوف أو الغضب.

رفع رأسه إليها، أشرق وجهه مجددًا بعد أن تشجع بكلماتها الإيجابية، ثم حكى لها دون تردد:

- خرجت من قاعة الامتحان والفرحة والسرور يغمرانني بسحرهما... انتشيت كالمخمور مترنمًا، حالمًا بالأيام التي سأقضيها بعيدًا عن دروس الحيوان، قلت لنفسي سأتفرغ لقراءة الأدب الذي أعشقه، أنت تعلمين ذلك جيدًا... ثم انتبهت على نفسي فجأة، وإذا بكتاب الثقافة القومية مازال في يدي أحمله ككتاب مقدس ففزعت كأنني أحمل قنبلة موقوتة أو دليل إدانة لجريمة اقترفتها، لم أفكر لحظتها أو أتردد بإبعاده عني، ركلته بقدمي بعيدًا كالكرة... هذا ما فعلته بالضبط. صمت قليلاً كأنه يريد أن يعرف وقع كلامه عليها، ثم شرع بنفس الحماس والصدق والجدية: لم انتبه إلا وصوت زميلة تناديني، وصوت زميل آخر يحثني على الفرار والهروب لأن أحدهم قد رآني ممن يعملون في الحزب... وصورة الكايزر كانت في أول صفحة من الكتاب...

وعى على نفسه، قال سارًا ذاته "يا له من موقف مثار، وقتها حمدت الله لأنه لم يحصل ما كنت خائف منه، لم يعتقلونني. رفع رأسه، رأى منصور مازال واقفًا بطوله الجميل، خبئ الكتب على عجل وهو يعده بأنه سيقرأها جميعها ويعطي رأيه فيها، ثم كتب له عنوانه الجديد الذي سيعمل فيه وتصافحا بحرارة كما أثناء دخوله... جبار ظل يراقبهما مذهولاً لا يريد أن يصدق ما يسمع ويرى حتى غادرهما منصور. قبل أن يغلقا دكانهما أتت الزبونة التي كانت قد أعطتهما خاتم زوجها لتصليحه، تحاسبا معها، ثم غادرا متوجهان لزيارة نصير في المستشفى كما خططا له والساعة كانت قد قاربت التاسعة إلا ربع مساءً وجبار ما انقطع من شكر آدم وتقبيله على كرمه في تركه للدكان دون مقابل.

(١٧)

لم يمضِ على آدم في عمله الجديد في دكان الأسرة بمنطقتهم في حي البنوك غير أيام قليلة حتى دخلت عليه إخلاص كالقدر المحتوم في مساء كانت نجومه تشعُّ بريقًا خافتًا وهو في جلسته المعتادة خلف طاولة البيع الزرقاء اللامعة التي تفنن بنجرها قبل أكثر من سبع سنوات جارهم الذي يسكن ويعمل في نفس المكان. تفاجأ آدم بدخولها دون إخطار مسبق، نهض والدهشة تملأ عينيه، رحب بها ببرود طفيف مكتفيًا بمصافحتها. دعاها للجلوس...

تعرَّف آدم على إخلاص بالصدفة التي عجز العلماء من تفسير حدوثها في فترة عصيبة من حياته قبل عامين تقريبًا بعد وفاة أخيه سعيد بأسابيع معدودة ظهرت له فجأة. إذ كان كثيرًا ما يتغيب عن دراسته وعمله، حاول صديقه الوفي جبار أن يخرجه من أزمته فأقنعه في يوم أن يرجع إلى عمله، أن يهتم بنفسه وبدراسته، الحياة مهما يجد ويحصل فيها تبقى مستمرة، لن تتوقف، آدم يعرف ذلك جيدًا، هو استوعب الدرس، بل وقف مجابهًا أهله بأن يخلعوا عنهم الثياب السوداء وقتها ونجح في مسعاه.

القدر وبذلك الوقت بالذات وضع إخلاص أمامه، رآها في متجرهما عند أحد العصاري وجبار ملتهي بخدمتها التي لا يجيدها لأنها ليست صنعته، هو يعرف أن يسرح بدراجته الهوائية لبيع العلكة، لكن، لبيع الحلي الأمر يختلف، حضر آدم ورأى صديقه متورطًا لا يعرف كيف ينقذ نفسه، تدخل بسحر وخفة بين إخلاص وبينه، في تلك اللحظة قال لها كلمة كانت سبب علاقة قادمة متينة استمرت عامين كاملين: من يراكِ يقف مذهولاً يتلبسه ألف شيطان ويقول... ثم تعمد الصمت ولم يتم كلامه!

في تلك العصرية تعرف إلى إخلاص، شعرت بأن الفرح يسطو عليها، ينهبها، لم تقاوم شعورها، بل العكس، تمردت، قالت: ليفعل بي ما يشاء، فغمزته قائلة: أنا لا أملك مزيدًا من الوقت الآن، أرجو بعد أن تتم تصليح حليتي أن تجلبها لي لو سمحت إلى مكان عملي!!

آدم لم يفته ذلك، قال: تريدني أن أختلي بها بعيدًا عن جبار، سألها صادقًا: لكنني لا أعرف أين تشتغلين؟

نبر جبار متعجلاً، متدخلاً نابصًا:

- أنا أعرف!

ابتسم آدم عنوة، خرجت إبتسامته شاحبة لا لون لها وتكاد تكون ميته، أجابها:

- ليكن، في مساء الغد آتي إليكِ بصحبة صديقنا الملهم جبار وأسلمك قطعتكِ.

إبتسمت بعذوبة قائلة:

- أرجو أن لا تنسَ أن تقول لي ماذا يقول ذلك الشخص الذي يتلبسه ألف شيطان حين يتوقف أمامي؟.. سمعها وهي تردد حرف الراء بشكل واضح كما ينطقه الهنود.. قال يسر ذاته: هي تريد أن تسمع مني مزيدًا من كلمات الإطراء والإغراء، من حقها، جمالها أخاذ يأسر القلوب، تضعها على كل الجروح فتتعافى، لها رائحة تسكر، عيناها العسليتان الكبيرتان استعمرتا جزءًا كبيرًا من وجهها، بياضها طاغٍ يرعب الأرواح المؤمنة المستكنة، يا إلهي.. ارحمني لا أريد أن أموت على يديها أو على صدرها هذا الناهد... خرجت من المتجر وهي تترنح بمشيتها وعطرها وزرقة تنورتها القصيرة التي كانت ترتديها وقميصها السمائي بلا أكمام جعلت جو المتجر يسبح بفرح هائم لايستكين.. لا قرار له.

استمرت علاقتهما عامين، وفي نفس الليلة التي رأى أنه فيها انهى علاقته بها لأنها ليست على دينه، هو لم يكذب عليها أو يخدعها، قال لها ذلك من أول لقاء بينهما. وافقت إخلاص على شرطه، أن تكون معه دون شرط الإرتباط، آدم لم يمسها، حافظ عليها كما يحافظ على بؤبؤ عينيه، لذلك، تعلقت به وأحبته بإخلاص منقطع النظير، هذي هي حكايتها مع آدم. وزيارتها هذا المساء كان آخر عهد اللقاء بينهما ولم يتكرر بعد ولم يشاهدها قط مرة أخرى في حياته.

جلست كما تجلس الملكة على عرشها، ببطء وهي تكفكف تنورتها اللوزية اللون القصيرة تحت فخذيها، غرَّدت مبتسمة بإغراء جمعت فيه كل فنون حواء ودفعته مرة واحدة بلا رحمة مصطنعة الدلال الذي يقهر:

- تهرب دون أن تعطيني خبرًا ولا حتى تودعني بقبلة؟، وأضافت بتملق: هانت عليك العشرة!، ثم صدحت ببيت من الشعر الشعبي كانت تردده باستمرار للشاعر العراقي قيس السهيلي:

ما عدنه كل انصاف لمن نعادي حتى النعبدة يهون نوخره غادي(•)

هربت من الشعر لتعرج إلى الغناء، وأي غناء، كان مقطعًا لأغنية تركية غالبًا ما كانت ترطن بها يقول مطلعها:

أمان دكتور، جانم شقتي دكتور، دردما بير شاره(•)

أحمرت وجنتاه، شعر بالخجل يسحقه، زبائن المحل كانوا خلف الواجهة الزجاجية الكبيرة ينظرون إلى معروضاته من الحلي، الرصيف مزدحم بالمارة والمتسوقين، وإخلاص تناجيه بكلمات لها فحيح الأفعى المتمكنة التي تعرف قوتها وسطوتها، أجابها بحلق جففه هول المفاجأة متنهدًا بطريقة آلية لا يقصد منها غير الرد بأي شكل بعد أن باغتته بدخولها ونظرتها وحرارة جسمها الذي يشع عطر وشهوة نزقة:

- آه يا إخلاص كما عهدتك، فتاة رائعة تستحق الاحترام، وتابع بعد أن بلع ريقه الناشف: في الحقيقة ظروفي ليست على ما يرام، وفاة أخي سعيد قلب كياننا، أنا شخصيًا لم أكن أعتقد ولو للحظة بأن للموت كل هذا الجبروت، ليس الموت لذاته، بل للفراغ الذي يتركه بعد أن يرحل عنا من نحب، هذا ما حدث معي بالتحديد، فقط ترتبت عليّ واجبات ومسؤوليات لم تكن من اختصاصي، فجأة وجدت نفسي مسؤولاً عن أسرة كبيرة، أدير أكثر من متجر في آن... وعليّ كما تعرفين أن أدرس وانجح كي أحمي جلدي من الدبغ!، فلولا دراستي الجامعية لكنت اليوم في الجبهة، أخدم في الجيش أسوةً بإخواني ولظلت عائلتي تشحذ الخبز... تركت العمل مع جبار مرغمًا، تألم الأخير، بكى، لكنني لا أملك من أمري شيئًا، وباغتها بسؤال على غير انتظار، لم تتوقعه:

(•) شرح البيت: لا نكون منصفين عندما نعادي، حتى الإله نستطيع أن نعطيه ظهرنا لو عاديناه

(•) ترجمة المقطع الغنائي: آه أيها الدكتور ، ألا دواء لعلتي

- ترى هل نملك شيئًا من أنفسنا يا إخلاص؟، هل نستطيع أن نواجه أقدارنا ونتحكم في قراراتنا؟، قاطعته بعد أن شعرت بعطف يمتلكها نحوه:

- أريدك أن تضمني، تضمني فقط...

- ماذا؟ أضمكِ، هنا في الدكان وأمام الزبائن؟

بوجة أحمر كالشبق نبرت:

- إذن قبلني، قبلة واحدة، خطف، لن نتأخر في تبادلها.

- مستحيل. وتابع بصرامة خلت من الخشونة: أعقلي يا إخلاص.

دخلت زبونة في هذه اللحظة وهي تشير لآدم عن وجود خاتم ذهب ترغب بتجريبه وربما شرائه، نقذته، أخمد دخول الزبونة جمرة النزوة المتقدة داخل إخلاص، بردت نوازعها التي كانت منذ هنيه ملتهبة، انزعجت، شعرت بالحرج والضيق، آدم حاول أن يستعجل لإتمام الصفقة والتفرغ لها، خرجت الزبونه دون أن تشتري، تنفست إخلاص بارتياح حقيقي، تورد خديها، عدلت عن طلبها بعد أن هدأت، قالت وهي تزرّه بنظرة ثاقبة:

- لا أريد أن أسبب لك الحزن أو المشاكل، أعتذر عن مجيئ المفاجأ دون موعد، اشتقت لرؤيتك، سألت جبار عنك بعد أن ذهبت إليه في دكانه، أخبرني بأنك قد تركت العمل، لم تعد شريكه وأعطاني عنوانك.

- حسنًا فعل. وهو يبتسم: جبار صاحب مواقف رائعة يحسد عليها يستحق الإعدام حرقًا.

ضحكت إخلاص من قلبها، أحسّ آدم بطيبتها، نوه:

- أتمنى أن تكوني على ما يرام ودراستك كذلك؟

- سأتزوج عما قريب!

- خبر مذهل. يجعلني مطمئن عليك.

- لكنني لا أحبه رغم قربه منا.

- العِشرة والتفاهم في حالتك أهم من الحب... صدقيني.

- أصدقك.

- رائع... هكذا أكون مرتاح الضمير.

- لابد من الذهاب، تأخرت، أتيتك سيرًا على الأقدام

- ماذا؟ سيرًا على الأقدام؟

- وحياتك، أضافت: من أجلك أذبح نفسي وأقدمها قربانًا. استغرب فعلتها، المسافة بين بيتهم والمتجر تصل عدة كيلومترات. باغتته مجددًا برغبة أخرى:

- هل لك أن توصلني؟

- والمحل!

- لن تتاخر كثيرًا، ثم بإلحاح:

- حتى ساحة جميلة!

- حتى طرف الشارع. وأردف: انتظري، سأغلق المحل وأوصلك حتى طرف الشارع الرئيسي.

- لا... أريدك أن توصلني حتى ساحة جميلة!

- لا يمكن... في ذلك مغامرة قد لا تحمد عقباها، هناك من يعرفني وربما يعرفك، تابع وهو يغمزها:

- أنتِ كما قلتِ للتو على أبواب زواج.

- موافقة، رضاك كل ما أتمناه.

- ما أجملك عندما تسمعين الكلام.

- ما أروعك وأنت ستتمشى معي يدٍ بيد.

- لم نتفق على هذا.

ضحكت بغندج وهي تقول:

- أمزح معك... أم تظن هذا حرام هو الآخر؟!

- هذه آخر مرة أقوم بهذه المهمة... خاصة وأنا الآن مسؤول عن أسرة عليّ إطعامهم.

- لن ترى وجهي بعد اليوم... ثم أضافت بنشوة مفتونة: دعني الآن استمتع بحضورك أرجوك... وسبقته إلى خارج الدكان تنظر له بنهم غريزي لا يعرفه غير المحبوس الجائع منذ سنوات وسط أربعة جدران منفردًا.

• • • •

بعد أن أوصل إخلاص حتى طرف الشارع وهو يعيد عليها ما قاله بأنها المرة الأخيرة التي يفعل فيها ذلك؛ وبعد أن أغلق الدكان في نهاية جولته في البيع والشراء لذلك المساء رجع إلى البيت وجد الأسرة مجتمعة على غير عادتها تتوسطهم لمياء زوجة أخيه المرحوم سعيد وولديها في حضنها منذر وأياد تهزهما بتوتر ملحوظ كأنها مرجل متقد في أي لحظة يمكن له أن ينفجر. منذر مازال دون الرابعة، له شبه كبير من أبيه كنسخة طبق الأصل، وأخيه أياد الذي ولد في ليلة موت أبيه منذ سنة وثمانية أشهر يشبه جدته خيرية، وعلى الرغم من صغر سنه كان يعطي انطباعا لمن حوله بأنه سيكون شرسًا عندما يكبر، مشاكسًا ومغامرًا، يمتلك قدرة تخريبية هائلة لو لم يُستجب لطلباته... يبدأ أولاً بالصراخ ثم يكسر كل ما تقع عليه عيناه، يخرّب نظام البيت، يرش الماء بغير اعتبار ولا يخاف أو يهاب من أحد عكس طبيعة أخيه المسالمة الوادعة كبنت البيت.

رأى آدم بدخوله أخاه نصير ممددًا على سرير إسفنجي فرش على الأرض كي لا يتعبه الجلوس وهو الخارج قبل يومين من المستشفى تاركًا آلامه التي كان يعاني منها هناك، رأسه مرفوع بعد أن دست وسن ابنة أخته وسادتين خلفه. رحب بهم واتخذ مكانًا غير بعيد من لمياء وجلس صامتًا ينتظر رحمة الله وكلام زوجة أخيه التي كانت تضمره وتود التصريح به، هذا ما ظنه آدم بحدسه، ترقب الموقف وما سيؤول عنه.

غرفة المعيشة التي استحلوها بجلستهم كانت كبيرة عكس غرفة الضيوف التي تجاورها، مستطيلة الشكل، في أحد أركانها انغرزت خزانة ملابس تعود ملكية الملابس إلى الأم ووسن وسلوى ابنتها بعد أن تركت زوجها، يتوسط الغرفة جهاز تلفاز ضخم قديم، ما حوله على الجانبين انتشرت الكراسي الخشبية والمقاعد المطعمة بالفرش البلدي ذات الألوان الفاقعة. توسط الغرفة شباك حديدي أبيض

الطلاء مواجه للحديقة، يخرج من إحدى فتحاته جهاز تبريد متوسط الحجم، لا يضخ من البروده إلا النزر البسيط، قوته لا تتناسب مع حجم الغرفة الكبير.

تنحنحت لمياء قبل أن تبدأ بالكلام ثم استرسلت لابكة كعادتها مقرقشة كقرشقة حبات العنب تحت الأسنان:

- لا أريدكم أن تنزعجوا مما سأقوله، أحببت المرحوم سعيد أكثر من نفسي، عشت معه أجمل أيام حياتي، خطفه القدر الظالم دون أن يحسب حساب لولديه وزوجته وما ستكون حياتهم من دونه، أبعده عنا قسرًا، انهمرت من عينيها دموع غزيرة دون أن تدرك كماء من مرزيب في جو ماطر وهي تتحدث، غلبنا القدر كما في كل مرة، قبلنا الأمر مرغمين، لكن، جلوسي في البيت دون عمل لم أعد أطيقه، الفراغ ينهب كل قواي، أكاد أفقد أعصابي، أشعر بأنني سأجنّ إن بقيت هكذا دون شغل، تحدثت مع أمي، وجدت لي عملاً في صالون للحلاقة بقربهم، أقصد، هم سينتقلون إلى المنطقة التي جاءوا منها، أنتم تعرفونها "البتاويين"، هناك يوجد محل للحلاقة تديره أرملة، اُستشهد زوجها في الحرب وتعيل أسرتها، تبحث عمن يساعدها... قاطعها نصير بعد أن لم يتحمل كلامها بصوت خفيض أشبه بالأنين:
- ماذا تريدين بالضبط يا لمياء؟ قولي كل ما عندك دفعة واحدة، ثم بخبث كأنه يكلم ابنة إبليس:
- نحن نفهم عليكِ جيدًا!.

عدّلت من جلستها، انزلت ولديها، أمرتهما بالذهاب إلى غرفتهما، رفض ابنها الصغير إياد الرضوخ لأمرها، أبقته في حضنها، ذهب الآخر ملبيًا، غمغمت بارتباك ظاهر وعمتها أم نصير تزرها بنظرات لا ترحم غير موافقة على ما سمعته من زوجة ابنها المرحوم.

- فكرت كثيرًا ولم أجد حلاً آخر. تدخلت عمتها نابرة وهي تثقبها بنظرات كادت تخترق جلدها:
- وما هو الحل إن شاء الله؟!
- أن أعيش عند أهلي وهناك أعمل أيضًا كما نوهت. صرخت أم نصير في وجهها مولولة، ناحبة كعادتها عندما تريد أن تستأثر بعطف ممن حولها لكسب جولتها:

- على جثتي، بعد أن يأخذ الله أمانته يمكنكِ أن تفعلي ما تشائين، لا تحرميني من رائحة المرحوم التي أشمها في ولديه، ثم خففت من لهجتها وجعلتها أقرب إلى التوسل والمناجاة:

- أنتِ أم وتشعرين بما أحسّه وتعرفين ما أعني فلا تقهرينني أكثر!.

- عمتي الغالية، أتفهم وضعكِ تمامًا، لكنني أشعر بأنني أموت وأنا في الحياة وهذا لا ترضينه لي، بتُّ حساسة جدًا، عصبية لا أتحمل الكلمة، وضعي سيء جدًا، العمل والشغل ونبذ الفراغ والخروج إلى المجتمع ربما ينسيني محنتي ويجعل مصيبتي أخفّ وطأة مما هي عليه دون عمل والجلوس في نفس الغرفة التي ضمتني بسعيد، ففي كثير من الأوقات أجد نفسي وأنا على السرير الذي احتوانا أبدأ بالتحدث معه وأهذي بخبل كالمجنونة... ولم تكمل ما كانت تنوي قوله، انهارت، صرخت، عوت وهي تلبك باكية: سأجن يا عمتي، سأجن... حرام، والله العظيم حرام، ما يحدث كفر لن يرضى به سبحانه، هرعت راكضة إلى الحمام مسترجعة ما كان يدور في معدتها... تركتهم في وضع لا يحسدون عليه، علا السكون والصمت المكان، تحولوا إلى تماثيل صماء كأنهم في غيبوبة جاهلين مسبب الأحداث، لماذا وضعوا في مثل هذه المحنة؟ لماذا رحل سعيد في نفس الليلة التي ولدت زوجته فيها؟ لماذا رجع أصلاً من المعسكر الذي كان عليه أن يكون هناك متواجدًا بسبب نوبته في الحراسة؟ من الذي حسب المسافة وقاسها بالسنتيمتر وبالثانية التي جعلته يكون على جسر القناة القريب من منطقة الطالبية قادمًا من معسكر الرشيد في اللحظة التي التقت سيارة زميله الذي يوصله بسيارة ضابط لم يتوقف عند الإشارة الحمراء فصدم سيارتهما ليموت هو من أثرها ويعيش زميله الذي كان يقود سيارته؟! أمر لا يمكن أن يحدث بهذه الدقة دون تدبير محكم. منْ الذي فكر وخطط ورسم ونفذ؟ لابد من قوى خارج نطاق فهم وإدراك طاقة الإنسان هي التي قامت بهذا الفعل الذي لا يمكن تصور حدوثه إلا في الخيال والأحلام والقصص والروايات والأفلام. في حين سرح خيال آدم بعيدًا وهو يتذكر ما حدث له مع أبي جعفر صاحب المطعم الذي لقي حتفه بسبب المسبحة عندما تدخل لفك شجارًا كان سيحدث ولم يكن يعلم بأن الأمر سيتطور بموت الرجل يوم زاره طيفه في المنام وهو يحاكيه بود لا يود منه الانتقام:

"إذ لم تمضِ إلا أيام قليلة، كعمر السعادة على الأرض، في ليل كانَ يبتلع الظلام فيه كلّ ما هو كائن، تغوص في جوفه كلَّ الأشياء بخنوع عجيب دونَ مقاومة، لتقبع دونَ حراك لحين بزوغ اعتي قوى الكون... الفجر الذي يدنو بخطى بطيئة ليعلن عن بدء الحياة من جديد... لتدور دورتها والبشر هنا اصغر وأضعف كائنات الحياة تسير معَ السائرين دونَ إرادة راضخون لواقعهم حتى وإن تفاخروا بالعلم غرورًا وتباهوا في الدين رمزًا للأخلاق... ظهرَ له غفلة من عالمه الجديد، باسمًا ووجهه يشع نورًا غريبًا، كأن عمره قد عاد عشرين عامًا إلى الوراء وهو الذي لم يفارق سكان الأرض إلا أيامًا معدودة، ليواجه آدمَ وجهًا لوجه كانعكاس الجسد بالمرآة عندما كانَ الأخير يغطُ في نوم متقطع مليء بالمشاهد المزعجة المرعبة التي باتت منذ صعود روح أبي جعفر إلى عالم الأنوار لا يرى في منامه إلا صور الموت وحبال المشانق ورصاص البنادق وهي تدق عنق الزبون الذي قتل أبي جعفر.

نهضَ آدم من سريره كالمصعوق مذهولاً من المفاجأة... أرادَ أن يصرخ، خذله صوته:

- منْ؟ أبي جعفر؟، ثمَ أردف وهو يمص شفتيه اليابستين وجسمه ينزُّف عرقًا من هول الموقف: ما الذي جاءَ بك إلى هنا؟ كيف خرجت من قبرك؟! ما لي أراك صغيرًا كالصبي؟ وما هذه الابتسامة التي تعلوا محياك؟ استطرد بصعوبة كأنَ الكلمات أبت أن تخرج من فمه: إنها بالتأكيد ليست لكَ، أقصد إنك شخصٌ آخر... تهاوى على الأرض باكيًا، بذهول قاسٍ كأنه يتجرع شيئًا يجهله سيموت بسببه: أرجوك أصدقني القول... من تكون؟

تقدمَ أبو جعفر منه بهيئته الجديدة النظيفة التي يحسد عليها، بهدوء وروية وهو يضع يده على رأس آدم ويقول بصوت ملائكي ناعم كصوت النساء:

- انهض يا آدم... انهض... أنا لا أحب أن أراك هكذا منهارًا كأنك اقترفت جريمة، ثمَ أردف بسكينة عجيبة: مالي أراك هكذا متعب الضمير؟ على الرغم من أني لا أرى أي سبب يستدعي ذلك، واستطردَ برنة جميلة ساحرة: إنك لم تقترف ذنبًا، فلماذا كل هذا العذاب الذي تحيط به نفسك؟

حاول آدم النهوض فلم تسعفه قوته، متثاقلاً همس:

- كيفَ لم أقترف ذنبًا؟ ألم أجعلك تُقْتَلْ نتيجة نصيحتي الرعناء تلك؟... متألمًا، راكعًا: اقترفت جريمتين في آنٍ واحد، جعلتك تقتل، والآخر قاتلاً... وأنت تتساءل باستغراب، لِمَ أراك متعب الضمير؟، حاول النهوض منعه صاحب المطعم برقة كلمسة الفراشة للزهرة، أشار:

- أنا لم آتِ إلا لأدعوك لأن تأتي معي حيث عالمي الجديد، عالم لا يسكنه إلا الخير والصدق والطمأنينة؛ لا يعرف الخطيئة، أو الخيانة، أو الغش والكذب، أو المنافسة والحسد، أو الزنا والفسق، أو البخل أو حتى الدكتاتورية الأسطورية التي ولدت وهرمت في عالمنا الشرقي المتهالك، ثمَ بجلال رهيب كأنه الوحي: هناك في عالمي لا وجود للبغضاء أو للحقد مكان، ليس هناك ثمة أمر يجعلك تعيسًا أو متضايقًا، وفوق كل هذا أننا من عالمنا نراكم جيدًا وبوضوح خارق كأنكم تحت مجهرنا... ننظر إليكم ونتأسف على حياتنا التي قضيناها بينكم على الأرض، فمثلاً رأيت قبل يوم داعيًا دينيًا يصلي الفجر مع الناس ويسكر عند المساء في داره، وآخر أمينًا للسر يبيع أسراره ببخس عجيب كما يبيع السارق مسروقاته، حتى غمرني الأسف والضحك على الإنسان وهو يقول الشيء ويفعل نقيضه، سوف لن أحدثك عن رؤساء القارات الشرقية... رأيتهم بأم عيني، يقيمون الصلاة، يقدمون الزكاة أمام الملأ، ثم يهزون بطونهم وصدورهم في قصورهم عند أقدام جواريهم، الغريب في الأمر هو عندما يجنّ الليل يتذكرون الله... فيدعون أفضل ما عندهم من واعظين يجعلونهم يغرقون في دموعهم حبًا وحرقة استغفارًا لذنوبهم التي اقترفوها لتوهم حتى يصل هيامهم بالله حد الإغماء كما كان يحدث لهارون الرشيد!. بينما في عالمنا النوراني لا وجود لمثل هذه الأفعال إطلاقًا. نستمتع بهدوء وسكينة وكل شيء متوفر إلا الشر، وهذا ما لا نحتاجه. هناك لا نجوع ولا نعطش أبدًا، ولك أن تعلم أي هناء نحيا ونستمتع به، ثمَ أردف وهو ينظر إلى آدم بوجل: ألم يقتلني الزبون قبلَ أيام بسبب طمعي في المسبحة وما ستدر عليّ من ثروة؟! ألم يقتلني هو لنفس السبب؟! فلماذا تعذّب نفسك وأنا أراك أصيلاً، ذا أخلاق وسريرة رائعة متفتحة ومهذبة من الشرور... لذلك، اتخذت قراري بزيارتك لأدعوك أن تأتي معي حيث عالم الأمان والسلام، عالم

خالٍ من الخطيئة والآثام... وكما يقال، حياتكم على الأرض كذنب الحمار لا يزيد ولا ينقص...

نظرَ إليه آدم باستغراب شديد وهو يغمغم:

- ولكن لماذا تطلب مني أن ارحل من عالمي هذا إلى عالمك الجديد؟، مازلت في مقتبل العمر، لي أحلام لم أحققها بعد، رسالة لم انته من كتابتها، أحلم أن أكون كاتبًا يشار له بالبنان، رغم ما قدمته من دعوة مليئة بالصفاء والنقاء. نحن سكان الأرض نجهل كلَّ الجهل حياتكم هناك، لا نعلم شيئًا عن ماهيتكم وأنتم في عداد الموتى، كل الذي نقوم به هو البكاء والنوح عليكم ومن ثم الحزن لبضعة أيام عندها تتدخل إرادة الله فتجعل عقولنا وقلوبنا جائعة للنسيان... فيعود المرء منا إلى حياته ثانيةً وكأنَ شيئًا لم يكن.

على عاصفة تساؤلاته بكل رقه أجابه:

- إن كنت ترفض المجيء معي فهذا شأنك، سأجيبك على تساؤلاتك، أدعو من كلَّ قلبي المحب لكَ أن تغّير رأيك في حياة الأرض التي تشقون وتجهدون أنفسكم فيها بلا جدوى، أردف بصدق لا ينقصه الحزم: الإنسان منذ نشأته وهو يهاب الموت ويخافه، ولكن صدقني يا آدم، لحظة تسليم الروح هي من أرق اللحظات التي تنتاب الإنسان وهو يودع فيها الحياة، إنها رعشة لا يشعر المرء فيها بالألم أبدًا، الغريب في الأمر الذي يجهله سكان الأرض هو إنَ الإنسان المحتضر يرى حياتنا وعالمنا قبل أن يصلنا. هناك رابط خفيَّ يجعل المحتضر يشاهد ويسمع أشخاصا ليسَ من كوكبكم ولا يتكلمون لغتكم، لقد رأيت في تلك اللحظة أنبياء ديني وطيف الله الذي تعذر عليكم رؤيته حتى هذه الساعة، هل تصدق ما أقول؟!، ثمَ أنسحبَ بصمت كالظل كما أتى، ليترك آدم بينَ النوم واليقظة، وذكرى لم تنشف دمعتها بعد".

انتبه آدم إلى نفسه، مازال يتوسط العائلة ويجالسها، نظرَ إلى لمياء زوجة أخيه نظرة رثاء وإكبار، همس في سره "من هنا رغم أحقيتها في طلبها ستبدأ رحلة النسيان بعد أن طوت ذكرياتها مع عذابها وألمها وستشهد لها الحياة بالنجاة. من حقها، هذا هو عرف الحياة وسنّتها".

(١٨)

بعد أن انفضَّ اجتماعهم بالموافقة على طلب كنتهم على مضض ساءت حالة أمهم، غلبها الهم وهجمت عليها الذكريات الأليمة التي تذكرها بتكية بستانها كما كان يحلو لها أن تسميه؛ ظلت لأيام متواصلة تنوح وتبكي وتندب حظها الذي جعلها أرملة وهي في الثلاثين ومن ثم وقبل عامين امتدت يد القدر لتخطف منها حبيب قلبها سعيد. الفراغ الذي خلفته أسرة ابنها كان مروعًا، أبنيها كانا لهما دور كبير وربما عوضا غياب أبيهما لحدٍ ما، ابنها الصغير كان حركًا، لعوبًا لا يستقر له مكان، رغم عفرتته ومشاكسته لأهل البيت ظل محبوبًا ومهتمًا به لما لولادته من ظروف استثنائية لا يصدقها العقل ولا يقبل بحدوثها المنطق، بدت الأيام لأم نصير موحشة كأنها تعيش في كهف مهجور لوحدها، لم تستطع أن تتقبل الواقع على أنه الحياة، رفضته ورفضت الحياة بهذه الطريقة القاسية التي لا ترحم حسب فهمها للحياة. وعت الأسرة لحال أمهم المتردي، خافوا عليها جدًا من المتاهات التي وضعت نفسها بها كمتاهات شخص ضلَّ طريقه في مجاهل الصحراء، وعى إليها آدم أولاً، ثم مروان...

فجأة أصبحت الغرفة في الطابق الأرضي التي كانت تستحلها لمياء فارغة بعد أن هجرتهم وذهبت تسكن مع ولديها عند أهلها؛ تحررت من قيودهم، فرح أهلها بقرارها ورحبت أمها بها وهي تعرف بأنها ستكون مع ولديها اللذين سيملأان عليها حياتها شبه الفارغة بوجودهما. لمياء اتجهت كما وضحت للعمل عند صالون الحلاقة لصاحبته المرأة الأرملة وهي تشعر بالسعادة التي بدأت تعمر قلبها ببطئ لهذا التحويل الذي تراه مهمًا في حياتها القادمة دون رجل. في حين لم يعر أبوها أدنى اهتمام لها، بل لم يشعر بالارتياح لوجودها، لم يصرح ما كان داخله يصرخ به.

ما حدث من تطورات جعل مروان ينشط في تفكيره وعمله، فكر في تقديم موعد عرسه ثلاثة أشهر، منها يدخل السعادة والفرحة إلى قلب أمه التي رآها تتعذب في الأيام التي تلت رحيل لمياء وولديها، ومنها يستقر ويكبّر عائلته وينجب أطفالاً

يملئون على والدته والبيت ضجة وفرحة، فتلتهي بعنايتهم وتخرجها من حفرة الذكريات الأليمة التي أسقطها القدر فيها. هكذا خطط مروان. وبما أن الغرفة التي كان نصير يستعمرها هي الأخرى قد فرغت بعد شرائه للبيت وانتقاله مع عائلته، قرر في مساء كانت عائلته مجتمعة في غرفة المعيشة عند العشاء فأعلن عن رغبته في تقديم موعد زواجه، اقترح على آدم أن يبقى في غرفته في الطابق الأول، لمعرفته وتفهمه لعلاقته بأنْهُر ومدى احتياجه للغرفة في المستقبل القريب، وفضّل لمجيد السكن في الغرفة التي كانت تشغلها لمياء مع طفليها، وهو يتزوج بالغرفة الكبيرة التي كانت عائلة نصير تستحلها المجاورة للغرفة التي أصبحت من حصة آدم. بهذا قدّم عرض جميل له ولأسرته واعتبر آدم هذا التحول في حياة وأفكار وقرارات مروان شيء إيجابي تفاعل به، ومقدمة من مقدمات الخير لهذه الأسرة المعذبة بالحزن... لم ينس مروان أخته سلوى فاقترح عليها هي الأخرى أن تسكن في غرفة الضيوف مع ابنها قيصر للهدوء والنظافة ووفرة الأثاث الجميل التي تتمتع به، وافقت بسرور منقطع النظير. شكرته على كرمه ونبل أخلاقه، فبقيت الأم ووسن يسكنان في غرفة المعيشة المهيأة لاجتماع الأسرة عند الظهر والمساء وللنوم في الليل... وهكذا بدأت الأسرة كلها تشتغل بهمة كبيرة مندفعة بعواطف جميلة تهيئ لمروان لوازم عرسه بعد موت وحزن وعذاب وبكاء ونواح طال سنتين.

• • • •

أشرقت الشمس صباح السبت رغم أن الفصل كان خريفًا متوهجة حمراء عند الأفق، نيران لا ترى لها ألسنة لهيب، ساحرة الطلوع لا يضاهيها في جمالها إلا سطوع القمر في تمامه. توجه آدم إلى كليته وهو يشعر براحة داخلية لما آلت إليه ظروف أسرته من استقرار نسبي وانهماكها في تهيئة ما يحتاجه مروان في عرسه، تلك التحركات كانت تعطي طاقة إيجابية مفرحة للجميع حتى دون أن يشعروا بها، خاصة لآدم بعد أن وعد أخيه بأنه سيأخذ على عاتقه الاهتمام بطباعة كروت العرس وتوزيعها والعناية بأمرها، هذا بحد ذاته أمر لا يستهان به عند العائلات العراقية عامة، وعائلات طائفته التي ينتمي إليها خاصة كي لا ينسى أحدًا... وإلا سيكونون عرضة للقيل والقال، يعني في عرفهم العامي علكة في حلوقهم، وربما يقولون عنهم

بخلاء لا يريدون أن يصرفوا على ابنهم حتى في عُرسه، لذلك كان أمر الكروت غاية في الأهمية. هو يعرف مع من يتعامل في هذا الشأن، هناك، يعرف محل طباعة صاحبها قريبهم، غالبًا ما كان يعطي كتبه التي يشتريها لتجليدها، تلك التي تحتاج إلى عناية خاصة كي تبقى على قيد الحياة كما كان يقول مازحًا؛ في ذلك النهار قرر أن يذهب إليه للتحدث معه بشأن الكروت بعد رجوعه من كليته وقبل أن يفتح دكان أخيه نصير.

المطبعة لا تبعد كثيرًا عن سوق السراي، كانت داخل سوق عتيق ملتوي كالأمعاء أظلم، يدخل إليه المرء ما أن يعرج من شارع المتنبي يمينًا والمتجه نحو حفنة من البيوت القديمة ذات الشناشيل الخشبية التي تطل حافاتها غير النظيفة التي أكلها السوس متلصصة على رصيف الحي الغارق بالقمامة وبقايا الورق التي يلعب فيها الريح، ما أن وقف على باب المطبعة حتى صاح به قريبه الذي ينحدر من عائلة أمه يدعى أبا وسام، كان الرجل في الخمسين تقريبًا، أبيض البشرة، بشوش ويحب النكتة، يرتاح له آدم كثيرًا، رحب به وصوت المكائن وآلات الطابعة ترعد محدثة زعيق لا يطاق مما جعلهما يتحدثان بأصوات عالية، أراه بعض النماذج. استقر رأيه على أفضل ثلاثة أعجبته. اتفق معه بأن يأخذها للتباحث بشأنها مع أهله ليختاروا واحدة. غادر المطبعة التي صكت أصواتها أذنيه طالبا من الله الرحمة. عند عودته اشترى لغدائه كبة الموصل، التهمها بسرعة على ناصية رصيف المحل الذي صاحبه يصنعها ويبيعها، ثم توجه إلى متجرهم مرتاح الخاطر والبدن.

• • • •

غادر ميل الساعة رقم أربعة في ذلك النهار وآدم يبيع ويشتري بشكل جيد، حتى دخل عليه زبون يتكلم العربية بشكل سيء، عرف من فوره بأنه كردي. فرح بوجوده. غرَّر به الزبون موحيًا بأنه تاجر كبير من مدينة السليمانية، ينوي شراء كمية كبيرة من المصوغات الذهبية لأنه لا يستطيع المجيء إلى بغداد إلا في فترات متباعدة، أشار بأنه يرغب بتلك وبهذه وهناك وهو يتحدث معه بلغة عربية منهارة، مكسرة تضحك وآدم يزن له البضاعة ويضعها في أكياس صغيرة خاصة لهذا الغرض، يدون عليها المعلومات التي تتعلق بالبضاعة التي يضبها، ويرجع ما لا

يرغبه الزبون وألتهى معه أكثر من ساعة مشغولاً بالوزن والتدوين وإرجاع البضاعة وتقديم الجديد منها حتى أتى وقت الحساب قال له الزبون ماكرًا:

- أملك في سيارتي كيلوجرام من التيزاب(•) انتظرني حتى آتي به وأتحاسب معك، ثم أردف متعجلاً:

- من أجل الأمان لم أجلبه معي. انتظر وما هي إلا لحظات حتى أدفع لك حق البضاعة وآخذ ما انتقيته. ارتبك آدم قليلاً، خبرته لم تكن مثل خبرة أخيه نصير في البيع والشراء، امتعض وامتقع، قال يسر ذاته "ماذا يعني، بضاعتي عندي حتى لو لم يرجع". رد عليه وهو يمسحه بنظرة كأنه يقيسه:

- حسنًا، اذهب وأتي بالذهب لنغيره من التيزاب إلى عيار ١٨ ونتحاسب على أجور العمل نقدًا.

- هل تعرف أن تغير وتتعامل وتحسب التيزاب ليكون عيار ١٨ ؟

- بالتأكيد. وإلا ما كنت هنا!.

ابتسم الكردي وفرّ من أمامه وهو يعرف بأنه لن يعود. انتظر آدم حتى المساء والزبون لم يحضر. أغلق دكانه متوجهًا إلى بيته، قبل أن يدخل فضّل زيارة أخيه نصير في بيته. رحب به الأخير، سأله آدم عن صحته، أجابة:

- جيدة، وأضاف: سأفتح دكاني غدًا بعون الله، مازلت اتمتع بإجازة مرضية لمدة أسبوع، يمكن لي تمديدها ببضعة غرامات من الذهب، تعودنا على هذا، ماذا نفعل؟ قدرنا ولابد لنا من الرضوخ لحكمه. في البداية تردد آدم البوح لما حصل له مع الزبون الذي انتظره ولم يرجع، ثم قرر مفاتحته، قال مصرحًا:

- الحقيقة حصل معي قبل ساعتين أمرٌ لم أتوقع حدوثه!

(•) التيزاب: الذهب الخالص ، ذات العيار ٢٤ ويكون على نوعين: الأول على شكل لوح، والثاني على شكل كرة رملية صلبة تتشكل بعد تصفية الذهب ذات العيارات المختلفة عبر مروره بمراحل متعددة وتعامله بحامض الكبريتيك المركز الذي يدعى ماء الذهب ، فيستخرج من الناتج الحاصل بعد التصفية الفضة الخالصة وتكون على شكل كرة من جهة والذهب الخالص الرملي على شكل كرة أيضًا من جهة أخرى يدعى التيزاب.

نشط ذكاء نصير متحفزًا، خبرته في الحياة كانت تسعفه كثيرًا وتجعله متميزًا في استقبال أمور كهذه:

- قل ما وراءك؟. شرح له آدم بالتفصيل ما حصل معه، وبعد أن أنهى سرده... ضحك نصيرًا معلقًا كداهية من الدهات:

- لقد سرقك دون شك. لا تتعب نفسك أكثر. ما حدث قد حدث.

متجهمًا:

- كيف يمكن لك أن تعرف وأنت لم تكن معنا؟!

ببرود الواثق من نفسه:

- مثل هذه الأمور لا تحتاج إلى كثير من النباهة. انتظر وسترى.

غادره آدم. لم يذهب إلى بيتهم، توجه من فوره إلى دكان العائلة في منطقتهم على خلاف عادته مهمومًا بخطى وئيدة كخطى الأسير والكدر يركبه. القدر أرعن وغبي، قال آدم ذلك يكلم نفسه أثناء الطريق متوجهًا لمتجرهم وتابع: كنت سعيدًا عند الصباح، وقت الفجر وشروق الشمس تفاءلت، رأيت جمالها الأخاذ وحدثت نفسي بنشاط غير معهود، قلت أن الحزن والكرب سيغادرنا ولو لأيام، لكنه لم يقبل، تركني ساعة وبعض ساعة أفرح وأكون مرتاحًا حتى وضع أمامي ذلك الزبون الذي ضحك عليّ وسرقني كمعتوه لا أعلم من أمري شيئًا. انتهى يومه بنوم قلق اخترقته الكوابيس المزعجة حتى صياح الديكة.

(١٩)

لم ينم آدم من ليلته ساعة على بعضها، نهض مرغمًا من فراشه متجهًا إلى كليته، لم يكمل كل محاضراته التي يتوجب حضورها، الساعة مازالت لم تعلن عن نفسها العاشرة. خرج متوجهًا إلى شارع الرشيد القريب من شارع المتنبي حيث سوق الصاغة "الياهودنگور" وجد نصير قد سبقه إلى الدكان، رآه يزن ويحسب ويرجع البضاعة التي كان أخوه قد وضعها في أكياس منتظرًا الزبون يوم أمس الذي لم يكن سوى سارقًا محترفًا، من الطبيعي أنه لا يرجع، لقد أتمَّ سرقته باحتراف متقنًا دور الزبون وانتهى الأمر، لماذا يرجع؟!. ما أن جلس آدم متعبًا مهمومًا وأخذ نفسًا، سمع نصير يكلّمه بلهجة مؤنبة:

- كي لا تثق بالناس في المستقبل كثيرًا!، هذه تجربة لابد من التعلم منها، درس تحذر الوقوع فيه مجددًا، من ينوي الشراء يشتري، تراه جادًا، لا يضع أكياس الذهب هكذا وعلى كثرتها ومن ثم يقول سآتي. لا تصدقهم بسرعة، لا تضع أمامهم غير نوع واحد، كمية قليلة جدًا، وبعد أن تتحاسب معهم عليها، أعرض عليهم غيرها وهكذا، اسمع، هناك نقص كبير في البضاعة، لكن لا تهتم، مهنتنا معرضة لهكذا حوادث وسرقات، الشاطر من يتعلم من مثل هذه الدروس ويكون أكثر حذرًا.
- نعم، هذا ما سيحصل، أضاف: شاهدته وهو يلتقط كارت المحل من على الطاولة ويضعه في جيبه، هل سيفيدنا هذا بشيء؟
- ربما، أقصد، هناك احتمال ضعيف ربما يفيدنا في مصيبتنا، لكنه يبقى مجرد احتمال...

قاطعه آدم مستفهمًا:

- كيف؟
- أن يُمسك من قبل رجال الشرطة وعند تفتيشه يجدون كارت محلنا وفيه كل المعلومات التي تؤكد أنه زارنا وشرب الشاي عندنا وبعدها سرقنا.

كطفل غاضب مقطبًا:

ـ فهمت الآن ما عنيته.

بحزن مقرون بالحماسة سأله عن مواصفات السارق:

ـ من فضلك، أرسمه لي رسمًا، سأقوم من فوري وأبلغ كل أصدقائنا وأقربائنا وأعطيهم مواصفاته كي يتجنبون التعامل معه أو على الأقل يخبرونا لو ظهر ثانية في السوق، خبرتي تقول بأنه سيحاول مع أحدهم ثم يغيب ويختفي كالدخان، لكن ليس قبل أن يشعل النار عند أحدهم!.

• • • •

حدس نصير كان صحيحًا مائة بالمائة، لم يخطئ في تصوراته، ما قاله لأخيه وقع. علت صيحة أحد الصاغة في الممر الفرعي من السوق نحو جهة اليمين من دكان نصير وهو يولول:

ـ سرقني ابن الكلب، سرقني دون أن أشعر، جعلني أحلم بربح وفير لم أرَ منه غير محاولاته في الشراء دون أن يدفع، قال، سأذهب وأتيك بالذهب، أنه في السيارة، ولدواعي أمنية تركته هناك، انتظر وسأعود حالاً، اختفى ولم يعد... ثم ناح: بضاعتي نقصت كثيرًا، سرقني الذي لا يخاف الله وهرب... كان يعبئ ردن قميصه بالمصوغات لحظة معاينتها دون أن أدرك، ثم يقول: اجلب لي هذه وتلك ويلهيني عما أمامي، وإذا بابن المسلوقة كان يسرقني عيني عينك(•).

ولم تمض على تلك الحادثتين إلا أيام قلائل حتى دعي نصير إلى دائرة الأمن وسط بغداد، بعد أن حضر مخبر يبلغ آدم عندما كان كعادته لوحده في المتجر قائلا:

ـ أمسكنا بمجرم سارق في حوزته مصوغات ذهبية كثيرة ومن ضمن الأشياء التي وجدناها كارت محلكم وفيه عنوانكم، لذلك يتوجب على أخيك نصير أن يحضر ليتعرف على مصوغاته من غيرها.

شكره آدم، فرح للنتيجة، قال يكلم نفسه "سيعود الحق لأصحابه". لكنه وبعد أن تحدث مع أخيه رفض نصير بحزم وإصرار الذهاب إلى دائرة الأمن. الحق لم يعد

(•) عيني عينك: جهرًا بلا خجل أو خوف

ولم يطالب به أحد. في بلد مثل العراق وتحت حكم كحكم الكايزر من الطبيعي أن لا يعود الحق لأصحابه وأن لا يطالب صاحبه به لخوفه. طلب آدم منه في ذات المساء الذي جاءه المخبر طالبًا التوجه إلى دائرة الأمن، رفض أخوه رفضًا قاطعًا التوجه إلى هناك بمحض إرادته!، قال:

- لا يمكن. عندما أجن ربما أفكر بعدها بالذهاب وأطلب معاينة مصوغاتنا، ثم صاح مرتعد الفرائص: يذهب الذهب إلى الجحيم، دائرة الأمن لن تطأها قدماي برغبتي وبمحض إرادتي ما دمت حيًا، تابع بمرارة: يكفي ما لقيته يوم استوقفوني في الشارع مساء أحد الأيام وأجبروني على الترجل من سيارتي دون أن يفصحوا عن رغبتهم أو حتى يجيبونني على تساؤلاتي: لماذا؟ ما الذي فعلته؟ إلى أين تأخذونني؟ كانوا كالصخور الصماء، جرجروني إلى مكان لا أعرف أين، هناك بدأوا يستجوبونني عن أمور لا علم لي بها، مثل، لماذا ولمن كنت تعطي تبرعاتك؟ من هو مسؤولك المباشر في الخلية؟ منذ متى تعرفت عليهم؟ أين كنتم تجتمعون؟ ما هي خططم، مطالبيكم، توجهاتكم، نهجكم، وأهدافكم؟ وبعد أن أشبعوني ضربًا وسلخوا جلدي اعتذروا!، قالوا: أخطأنا، هناك من يشبهك!. يمكنك المغادرة!!، بكيت، نعم بكيت، فالذعر الذي كنت فيه جرّدني من كل هيبة، لم أشعر وقتها بأني نصير الذي يحدثك الآن أو أخوك الذي تعرفه، بكيت متوسلاً، حدود كرامة الإنسان لم أكن أعرفها، عرفتها هناك ساعتها، هي طاقة الواحد منا على الاحتمال والصبر، عندما ينهار الجسد تنهار الإرادة، لحظتها انهارت قواي ولم أعد أشعر بأنني رجل صاحب إرادة يستطيع الثبات، لذلك بكيت مقهورًا، محطمًا ورجوتهم من كل قلبي النازف بالمذلة أن يوصلونني إلى سيارتي التي أجهل مكانها عندما أخذوني، كنت قريبًا من باب الشرقي وقتها. استجابوا لدموعي بعد تردد طويل... ثم ناح بعد وقفة مكتئبًا: وتريدني اليوم أن أذهب إليهم بنفسي؟ لا يمكن.

هكذا ترك نصير حلاله من ذهب خوفًا على حياته ولم يطالبهم به حتى وقتنا هذا، بذلك انطوت صفحة السرقة، لم يعودا لذكرها، كسرقة دريد لنقودهم التي انتهت على لا شيء.

(٢٠)

انجز آدم عملاً يستحق الثناء والتقدير؛ فقد انشغل وعاش أيامه التي تلت السرقة برسم اللوحات التي يحب رسمها الواحدة تلو الأخرى بغية المشاركة في معرض متميز جديد للرسم في كليته غير المعرضين اللذين أقامهما من قبل، قال يخاطب نفسه في جلسته وهو يرتب لوحاته ويعدها بعد أن طابت نفسه "أنْهُر ستكون هذه المرة موجودة، بل على شرف حضورها سأقيم المعرض". اتفق مع زميل يدرس معه وكان يدعى مازن الذي يتمتع بموهبة فنية جميلة على مشاركته لإقامة المعرض، وافق الأخير بروح سمحة محبة للفن والخير، كان والحقيقة تقال، شاب رائع متزن في تصرفاته وكلامه، مثقف من الدرجة الأولى، أعجب بآدم رغم معرفته بأنه على غير دينه، كان لا يؤمن بهذا المنطق الذي يقسم البشر حسب اختلاف أديانهم، يرى الاختلاف بالعمل لا بالبشرة والجنس والدين واللغة، تعلق به آدم كذلك وأحبه، أدخله بيته، دعاه مازن إلى بيته كذلك، جعله يرى مرسمه، عرّفه على أخته التي كانت تدرس في معهد المعلمات حينها، خرج معهما أكثر من مرة لزيارة معارض الرسم التي كانت تقيمها وزارة الثقافة والفنون في مركز الكايزر وسط بغداد، حضروا معًا الكثير من المسرحيات الملتزمة التي تعرض على خشبة مسرح بغداد... وها هو آدم قد أنجز أكثر من عشرين لوحة جاهزة للعرض وكلها مخططة بقلم الرصاص دون ألوان تمامًا كما كانت سلوى أخته ترسم.

• • • •

إحدى لوحاته التي رسمها كانت تحاكي قصة عاشها عندما كان طفلاً، خططها بقلمه ولونها بمشاعره وأحاسيسه، كان يضحك كلما يتذكرها... إذ وفي يوم:

دعاه محمد صديقه وزميل رحلته وقصته مع الحاجة أم علوان صاحبة الأبقار، الغشاشة. محمد الذي يشاركه الصف في المدرسة بعد أن أنهيا واجباتهما المدرسية على أكمل وجه؛ رحب آدم بالعرض المقدم له وقبل الدعوة، خاصة بعد أن اعتدل الجو وانخفضت الحرارة ساعتها قليلاً.

شكره محمد بابتسامة صادقة لمجيئه وهو يقول: هيا لنستمتع بوقتنا، لنلعب كما نشاء، هذه فرصتنا، الدار كما ترى ليس فيها سوانا وأختي سمر التي تراها أمامك.
لم يلق آدم بالاً لأخته، ركز جلّ اهتمامه باللعب مع صديقه الحميم، سرعان ما نسيا أنفسهما تحت وطأة سحر اللهو الطفولي البريء الرائع، وهما اللذان لم تتجاوز أعمارهما الثانية عشر بعد.

توسطت سمر التي تجاوزت الرابعة عشر من عمرها باحة الدار وهي في كامل زينتها البراقة بعد أن جلست على كرسي خشبي عريض، يسع لشخصين على الأقل واضعة رجلاً على رجل كرجل جالس في مقهى، لم يكن لها من همٍّ أو شاغل سوى قصف صديق أخيها بنظرات إغراء ذات مغزى واضح، بقيت هكذا لا يزوغ نظرها ولا يهن حتى دخل عليهم أخيها الكبير علاوي كالأسد وهو يزمجر بأعلى صوته، بأقصى قوة تملكها حنجرته:

- ما هذا الذي أراه أمامي؟! لتأخذكم مصيبة ولتلتهمكم العفاريت الزرق التي لا ترحم... اغربوا عن وجهي... هيا... وهو يقذف بكيس الفاكهة الذي كان يحمله بيده نحو أخته والشتائم تطفر من فمه كالرذاذ.

جفل آدم من منظر علاوي الغريب، جعله يتراجع إلى الوراء خائفًا وأطرافه ترتجف، وإذا به ينسحب بهدوء كالسارق من دار صديقه دون أن يودعه، أطلق ساقيه للريح، هرب دون أن يأتي بجناية أو يفهم الموقف، ليبدو كالأعمى الذي لا يرى ما بين يديه. عندما كبر ووعى على نفسه ويتذكر ما حصل معه... يضحك ملء فمه ما كان يعنيه علاوي وما الذي جعله يغضب حينها كالثور الهائج المجروح، ولماذا كانت أخته تجلس كالتمثال ساعتها وهي في كامل زينتها التي لم تثر فيه وقتها أي شعور أو رغبه نحو الجنس الآخر وهو يلعب مع صديقه محمد ببراءة في ذلك العمر. لم تكن اللوحة إلا عبارة عن طفلين ملتهيان باللعب وسط حوش لبيت قديم وفتاة جميلة في مقتبل العمر تراقبهما بجلستها المغرية عن كثب وفي عينيها نظرة نحو أحد الطفلين تقطر منها شهوة وألف رجاء.

• • • •

اشتد حماسهما، علقا إعلانات في كل مكان من الجامعة، في نادي الطلبة، على لوحة الإعلانات الموجودة في كل ردهة من ردهات قاعات الدراسة، حرص آدم على أن يدعو عميد الكلية بنفسه ويسلمه الدعوة شخصيًا، رحب به العميد، قام وصافحه، شكره على مشاركته والحرص على هكذا مشاهد رغم بعدها عن اختصاصه، وعده بالحضور، كما لم ينس صديقه المفضل مسجل الكلية الدكتور "ج. ح" الذي كان تربطه به علاقة إنسانية رائعة جمعت بينهما، ودعى بعض الأصدقاء والمقربين له من كليات أخرى وأولهم كان جبار.

عندما سمعت أنْهُر بالخبر طارت من الفرح، قالت له في إحدى المكالمات التي حصلت بينهما بأنها ستحضر، بل هي التي ستشرف على تنظيم وتوزيع وتعليق اللوحات في صالة العرض التي كانت واجهة قاعة الاحتفالات الرئيسية بالكلية. عندما جاء يوم العرض لم ينم ليلته جيدًا، كان قد اتفق مع زميله مازن على نقل اللوحات من منزلهما مبكرًا بمساعدة زميل ثالث لهما يمتلك سيارة تويوتا من نوع "بيك أب".

في الصباح وداخل صالة العرض لم يرتح له بال، ظلّ مشغولاً، مرتبكًا موزع الخاطر، يقفز من هنا، يذهب إلى هناك، يكلم هذا ويجيب على آخر، الوقت يمضي وأنْهُر مازالت لم تظهر، ينظر إلى باب القاعة كل ثانية علّه يراها، الساعة قاربت الثامنة والنصف ولم تحضر، اللوحات مازالت مبعثرة، قسم منها مركونٌ على حائط جانبي، زميله مازن بدأ بتعليق لوحاته، كان يتوجب عليهما افتتاح المعرض عند العاشرة، مازالت هناك ساعتين، لكنه حريص على أن ينهي كل شيء قبل الإفتتاح بنصف ساعة على الأقل كي يضع بصماته الأخيرة هنا وهناك لو لزم الأمر، فجأة رأى أنْهُر متوردة وهي تحمل باقة زهور ورزمة من الأوراق، بقميص أزرق وتنورة كحلية اللون وصلت حد ركبتيها، انبهر بجمالها وروعة صفاء عينيها الخضراوين، صافحها بحرارة، قال لها:

- قلقت عليك وعلى معرضي!

- لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام، هيا، وراءنا عمل كثير ينتظرنا، سألته:

- أين لوحاتك؟. هناك. خوش، تابعت:

- قرّبها، هذه الواجهة هي الأجمل وهي تشير إلى يمينها حيث الممر الذي يؤدي إلى قاعة الاحتفالات، همست: أين المسامير؟، هاتها... وبدءا يعملان بجد ونشاط... هي تعيد ترتيب اللوحات وتنظيمها حسب الحجم والفكرة والرموز التي تعنيها... لم تمض إلا ثلاث أرباع الساعة حتى كانا قد علقا كل اللوحات، أرتاح آدم للنتيجة، سبقه في العمل زميله الذي أحضر لأنْهُر ولآدم قدحين من الشاي، عرّفه على أنْهُر، قائلاً:

- لم أعرفك عليها عندما حضرت بشكل جيد، هذه أنْهُر من أقربائنا. صافحها مازن مرة أخرى، قال لها متأثرًا:

- ما أجملك، لابد من رسمك. ووجه الكلام بعدها لآدم: ها... ماذا تقول أنت؟

- أقول خليك بحالك أحسن واترك أمر رسمها لي!. ضحكوا. شعروا بالراحة، تحدثوا عن بعض اللوحات ومعناها، تقدم الضجيج قبل أن يخطوا عميد الكلية صالة العرض، كان رجلاً طويلاً برنة صوت مميزة صادحة، مهيب الطلعة ويصلح أن يكون عميدًا دون منافس، يرتدي البذلة الزيتونية تعاطفًا مع أجواء الحرب وتماشيًا معها، ألم يرتدي الكايزر نفس البذلة طول وقت الحرب؟ فلماذا يفعل هو غير ذلك؟! ربما كان العميد بلبسه الزيتوني يعتبره نوع من أنواع المجهود الحربي؟!... حوله تجمهر بعض الأساتذة والمحاضرين ومجموعة من الطلبة، ثم حضر دكتور "ج. ح"، أشادوا بعملهما، أثنى عميد الكلية على جهودهما، قال بوقفته وهو يوجه خطابه لمازن وآدم:

- سنخصص مبلغ خمسمائة دينار لمن يرسم للجامعة جدارية تجسد الكايزر؟، وأضاف: اعملا اتصالاتكما مع رئيس اتحاد الطلبة... آدم خزر زميله بنظرات ذات مغزى كنظرات من استفاق من سكره على حادث مروع، إنه يعرف مازن وتوجهاته كما يعرف نفسه، لا رغبة لهما بالشروع في عمل كهذا، حتى أن اللوحة التي دار حولها الجدال الذي أثاره رئيس الاتحاد مع آدم قبل تعليق اللوحات بشأن لوحة صوّر فيها جزمتين عسكريتين من تلك التي يستخدمها الجنود ذات الأعناق الطويلة وفوقهما جلست بيرية (•) وتحتهم أرض جدباء

(•) بيرية: قبعة الجندي التي تخرمها في واجهتها الأمامية علامة النسر العراقي

مشققة، رفض رئيس الاتحاد من تعليق اللوحة والمشاركة بها أسوةً بباقي اللوحات، آدم فهم ما كان يرنوا إليه، أراد أن يقول بأن تلك اللوحة تصور الحرب وحياة الجندي العراقي والعراق الذي لم يعد إلا أرضًا جدباء يقف عليها المقاتل العراقي، أجابه آدم دون أن يسأله عن السبب بحركة من قلمه، غيّر إشارة النسر الواقفة على مقدمة البيرية وعوضها بإشارة دائرية تمثل ألوان العلم الإيراني وقال مناورًا: انظر، ما قصدته هنا هو المقاتل الإيراني والأرض الإيرانية وليست العراقية... وعلق اللوحة دون أن ينتظر جواب من رئيس الاتحاد.

تحرك رئيس الاتحاد من مكانه الذي كان يقف غير بعيد من العميد بعد أن سمع توجيهات الأخير ورغبته، اقترب منهم أكثر حتى لاصقهم مقاطعًا:

- سأتولى الأمر بنفسي يا دكتور، لا تقلق، ستكون جدارية كبيرة، رائعة تستحل مقدمة بوابة الكلية، سأهتم بالموضوع، اعتمد، خلال أيام قليلة سترى ذلك بنفسك... وفي هذه اللحظة نطّ(•) وسطهم بجسارة ممقته وبشكل حشري لا يطاق طالبًا رفيع القوام، ملفوف بالملابس كرأس البصل، أسمر البشرة يشبه الهنود في هيئتهم وشكلهم إلى حدٍ كبير، بشاربين مسترخيين على شفتيه بأريحية ملعونة وهو يطقطق أصابعه محركًا رأسه ذات اليمين وذات الشمال مطفقًا موجهًا حديثه إلى العميد:

- أنا يا دكتور لم أشترك في هذا المعرض، لكنني رسام تمرس في رسم جداريات كبيرة لكايزرنا، لذلك يشرفني ويسعدني أن أقوم بهذه المهمة، ثم أنهى جولته الخطابية برفع يده على رأسه ثم أنزلها على صدره ممتنًا... وبذلك ودون أن يعلم أنقذ آدم وزميله اللذين لم يكونا يعرفان كيفا يتخلصان من الورطة التي وضعهما فيها العميد... فهمَّ الأخير شاكرًا:

- عفارم عليكم؛ أنتم الطليعة، العراق بخير طالما عندنا أمثالكم، ثم ودَّعهم وخرج مع جوقته التي أتت معه. استمر المعرض حتى بعد الظهر. التهى آدم بشرح اللوحات للطلبة، هناك من كتب تعليقه في دفتر جاءت به أنْهُر، كانت تراقب كل شيء، تسد النقص أينما يكون، داخلها كان يهدهد: "هذا معرضي، يومي الذي

(•) نطّ: قفز

انتظرته، نجاح آدم نجاحي "، تضحك وتبتسم وتنشر الفرحة في الأجواء وهي ترى حبيبها سعيدًا بما قام به. عند الحادية عشر والنصف اعتذرت منه بقولها:

- لابد من مغادرتك الآن.
- لماذا؟ ثم تذكر بأنه لم يسألها عن الكيفية أو الحُجة التي أتت بها، فهمت من سرحانه بأنه يفكر بهذه النقطة، قالت:
- تريد أن تعرف كيف تركت المدرسة وأتيت؟، ضحك، أعُجب بذكائها الحاد، هزَّ رأسه علامة الإيجاب، تابعت وهي تبتسم: لقد أخذت إجازة بحجة زيارة العيادة الخارجية لكلية طب الأسنان لالتهاب مفاجأ ألمَّ بلثة أسناني... في هذه الحالة لا يطالبونني بورقة تثبت زيارتي للعيادة وتلقي العلاج. لو قلت لهم أريد زيارة الدكتور، فهم سيقولون بلا تردد، بعد الدوام يمكن لكِ مراجعة الدكتور، لكنني وفي حالتي هذه وأنا أعرف بأن عيادة طب الأسنان لا تفتح أبوابها إلا في الصباح وتغلقها عند الظهر ضمنت موافقتهم. في ذات الوقت لا أريد أن أخبر أمي بأني كنت في عيادة كلية طب الأسنان لأنني سوف لن أخلص من استجوابها وتحقيقها، سأرجع فورًا لأضمن وصولي وكأنني رجعت بعد نهاية دوامي المدرسي... واصلت مازحة: كما يقال "لا من شاف ولا من دري(•)".

أخرجها من صالة العرض، وقف معها عند حافة الطريق المؤدي إلى خارج الكلية، منعته من الاستمرار لتوصليها حتى خارج أسوار الجامعة، قالت راجية بعد غمرت روحها الفرحة:

- لا تترك لوحاتك ومتابعيك، أرجع لهم... أرجوك، تابعت وفي عينيها الخضراوين لمعة وبريق كبريق البرق وقت العاصفة: يكفي إلى هنا، أعرف طريقي وكما أتيت أرجع... رفع يدها، قبلّها، قال:
- خذي بالكِ من نفسك، أشكركِ على مجيئك وتكلفكِ كل هذا العناء والمغامرة... أسكتته، وضعت يدها على فمه، همست:
- لا تكمل، ما فعلته واجب اتجاه نفسي قبل أن يكون اتجاهك، لماذا لا تريد أن تصدق؟. غادرته وهي لا تتمنى لحظتها غير سعادته وتألقه ونجاحه...

(•) لا من شاف ولا من درى: لم يرني أحد ولا عرف بما فعلت

بعد الظهر جاء وقت تنزيل وضبّ اللوحات، اجتمع بعض الطلبة حولهما، يودون التوقيع على بعض اللوحات للاحتفاظ بها، هنا تذكر آدم موقف حصل للروائي العالمي ماركيز، كان يسير على رصيف جسر، رأى صبيًا جالسًا على الأرض يبيع الجرائد وبعض الكتب، من بينها وجد كتبه، سأله عن ثمنها، أجابه، ثلاثة سنتات، انقهر الروائي وانهضم، رواياته معروضة على رصيف الجسر يعلوها الغبار وتباع بسعرٍ لا يذكر، نقده ثمنها وأخذ كتبه، بعد أن اشتهر ونال نوبل للآداب دفعت سيدة لقاء توقيع إحدى رواياته ثلاثمائة دولار فقط!. مازن رفض بيع أو إهداء أي لوحة من لوحاته، آدم كان سهلاً وأكثر انشراحًا من زميله، قال:

- لن أرجع بأي لوحة، من يحب الاحتفاظ بأي واحدة ما عليه إلا أن يصرح بذلك.

تجمع الطلبة حوله وأصواتهم ودمدمتهم لا تنقطع تسمع عن بعد كالصدى... خاصة بعد أن احتدَّ النقاش والصراع حول لوحة كانت عبارة عن فتاة لم يظهر من وجهها إلا جانبًا منه وغطى شعرها الذي تحاول رفعه بيدها اليمنى وهي جالسة بقهر على جذع شجرة مكبلة الأقدام بسلاسل حديدية ضخمة مطأطأة الرأس بحزن لا تقدر الكلمات على وصفه... كل طالب كان يريد الاحتفاظ بها حتى نجحت طالبة فلسطينية ذات شعر طويل أسود من الفحم من الحصول عليها بعد أن استبسلت، فنالت مبتغاها. لقد كانت فعلاً لوحة رائعة في رأي آدم وجمهور المتفرجين على حدٍ سواء، رسمها بعد أن أقنع وسن ابنة أخته بأن تكون موديل له، أجلسها على حافة كرسي في غرفة المعيشة وطلب منها أن لا تتحرك حتى أنهى رسمه لها. ثم كتب بخط يده وبقلم الرصاص طبعًا وعلى شكل دوائر حول جذع الشجرة "الأعراف، التقاليد، المجتمع، الناس، والدين". أنزلت الطالبة الفلسطينية تلك اللوحة من على الحائط، كتبت بدفتر الزوار التي أتت به أنْهُر تعليقها عن المعرض سريعًا، ثم فرت هاربة باللوحة التي اعتبرتها هدية من السماء...

بعدها بدقائق قليلة كانت اللوحات كلها قد اختفت من مكانها، ظهر الحائط عاريًا مرة أخرى كما كان وهو يشعر بسعادة حقيقية لا يسعها قلبه الصغير. عند عودته من كليته وأثناء الطريق حصلت لهم حادثة سير نجا منها بأعجوبة.

• • • •

في نهاية الخريف وبداية فصل الشتاء الأجواء لا تؤتمن كأجواء شهر نسيان، يمكننا مشاهدة الفصول الأربعة كلها في آنٍ واحد، تغيرت سحنة السماء وتلبدت بالغيوم فجأة، هبت عاصفة قوية، تطايرت أغصان الأشجار التي تحطمت بقوة الريح وارتفعت عاليًا، هوى بعضها على الأرض، ارتطمت فيها وارتفعت مجددًا بعيدًا، برقت السماء ثم غسلت الأرض برشقة ساحقة فجائية من الأمطار التي لم يتوقع آدم هطولها بهذه القوة والغزارة، أحدثت زخات المطر الغاضبة، الساقطة، المندفعة أصوتًا قوية، صاخبة، ناقمة، مفرقعة كالتي تسمعها من ناقوس لدير قريب، تبقى ترن في أذنيك حتى بعد انفلاقها، تهدر لحظة ارتطامها بالأرض، تتطشر القطرات، تموت بعدها، تنساح في تجاويف وأخاديد الأرض التي تبتلعها، ثم تولد غيرها وبسرعة كطبيعة الأشياء الأخرى في الحياة والموت والحياة مجددًا... خلت ممرات وطرق الجامعة من سائريها، حمى آدم نفسه تحت المظلة الخشبية التي كانت أمام الكلية على ناصية الرصيف المحاذي للشارع بوقفته وهو ينتظر حافلة تقله إلى بغداد، وقتها شكر الله كثيرًا، لأن أنْهُر غادرته مبكرًا قبل هبوب الريح وهطول المطر. توقفت أمام المحطة التي ينتظر فيها حافلة صغيرة من نوع "كوستر" زرقاء بخطوط بيضاء، صعد بسرعة اتقاء زخات المطر التي كانت تنزل وكأنها رماح مسننة، الرعد يقصف والبرق يبرق، يلمع، يخطف الأبصار ثم يختفي بسرعة كما ظهر. اتخذ مكان خلف السائق مباشرةً، جلس يسرح شعره بيده وينكث الماء من على بذلته، سمع صوت المسجلة وهي تصدح بأغنية مصرية لمحمد منير "الليلة... الليلة يا سمارة... الليلة" والسائق يترنح هائمًا بالموسيقى ويردد كلمات الأغنية مع المطرب بصوت أجش، عرف آدم بأنه مصري، لم يعر له أهمية حتى باتت الرؤيا شبه مستحيلة أمامه، ينظر عبر زجاجة الحافلة الأمامية لكنه لا يشعر بأن السائق يعير أدنى اهتمام، ظلَّ يقود بسرعة مغالى فيها لا تتناسب والأجواء المرعبة، فخاطبه آدم بحذر:

- سائقنا. نظر السائق له عبر المرآة التي أمامه المعلقة على الزجاجة، قال بلهجة مصرية:

- نعم يا أستاذ هل تحتاج إلى شيء؟

نظر إلى من كان يجلس معه في الحافلة، رآهم خائفون، منكمشون على أنفسهم، غالبيتهم من الطلبة وبعض الجنود، أجابه مقتضبًا:

- ألا ترى؟ أصلاً أنت لا ترى ما أمامك، خفف من السرعة، ستقتلنا، كيف هذا.

متبجحًا:

- قل لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ثم ضحك بتهتك... ولم ينه ضحكته، ترنحت الحافلة بسرعة لم يتوقعها أحد ولا حتى السائق الذي كان غارقًا في اللهو والأغنية مسيطرة عليه، عرّت الملعون بالمقود بشكل مثير للإعجاب، حضنه بقوة رهيبة، لم يجعله يدور كما يشاء، ومع ذلك هربت الحافلة من الشارع الذي كانت تسير عليه لتنتقل إلى الجانب الآخر باتجاه أبي غريب حيث كانوا... ثم رجعت إلى جزرة وسطية طينية زادت من تزحلق إطارات الحافلة فزفرتها بعيدًا وهي تدور حول نفسها لا يعلم ركابها أين أصبحوا أو بأي اتجاه هم وأغراضهم وكتبتهم وأشيائهم تطايرت وتساقطت على رؤوسهم وانتشرت في الحافلة، عمت الفوضى واللغط والصياح، ثم استقرت على طرف الشارع المتجه إلى بغداد بشكل عرضي بعد أن توقف محركها من الدوران... هرع من كان قريبًا ومتواجدًا في الشارع لنجدتهم مسرعين...

نزلوا الركاب متأثرين بما حدث لهم، رؤوسهم تدور مثل عيونهم، حاول الناس الذين هرعوا لنجدتهم أن يطمئنونهم بأنهم بخير، الحافلة لم تنقلب رغم خروجها عن خط سيرها، ثم رجوعها لنفس الاتجاه، يرجع الفضل في ذلك إلى السائق، بقي معرتًا بالمقود قدر طاقته، صعدوا مرة أخرى، بحثوا عن أشيائهم التي تبعثرت، أخذوا أماكنهم، الصمت ظل مخيمًا عليهم، قاد السائق الحافلة بسكوت يشبه سكوت القبر حتى وصلوا جراج العلاوي وسط بغداد ثم تسربوا من الحافلة لا يلوون على شيء سوى مغادرتها وهم يثقبون السائق بنظرات غضب حارقة، يدمدمون بكلمات لم يسمعها غير مطلقها. وصل آدم البيت وهو غاية في التعب، لم يحدثهم عما حصل له وبقي الأمر سرًا إلا على أنْهُر. روى لها فيما بعد سر الحادثة وهو يضحك لعنجهية وغرور وشجاعة وبطولة السائق المصري الذي تسبب في الحادث وأنقذهم منه في ذات الوقت.

(٢١)

رفض نصير رفضًا قاطعًا كعادته أن يقيم أخوه مروان عرسًا كبيرًا، قال حاسمًا النقاش في جملة واحدة وهم مجتمعون في بيت أهله:

- لم يفت على وفاة المرحوم أخينا عامين ونقيم عرسًا كبيرًا!، لا يمكن، ثم أضاف بعد أن خفف من قسوة لهجته: يمكننا أن نحتفل في البيت وبشكل عائلي ونفرح دون أن نجلب لأنفسنا الكلام. لم يتجرأ أحد على مناقشته، من جانب شعروا أهله بصدق دفاعه عن ذكرى رحيل ابنهم غير البعيدة، لذلك، اتفقوا بأن لا يحجزوا قاعة لإقامة حفلة الزفاف مكتفين بدعوة المقربين من الأهل والأصدقاء والاكتفاء بذلك احترامًا لذكرى المرحوم. فتدخل آدم مجاريًا الأحداث، قائلاً:
- إذن سأبدأ منذ يوم غد بالشروع في طباعة كروت العرس لو حددنا التاريخ الآن، ثم واصل: كنت قد عرضت على مروان ثلاثة نماذج منها اختار واحدة هي التي سأطبعها.

نبر مروان بشعور متناقض بين الحزن والفرح:

- رائع يا آدم، بالفعل... هذا ما اتفقنا عليه، مسح الحضور بنظرة وتابع: اليوم نحن في نهاية اكتوبر، نهاية الشهر القادم أجده مناسبًا، ليكن آخر سبت من الشهر والأحد نقطع المهر في المندي [•] وسألهم كمن ينادي على أحدهم: ها... ما رأيكم؟.

وافقوا على مقترحه، لم يكن لأحد الرغبة في المعارضة، خاصة وهم اقتصروا واختصروا العُرس ليكون عائليًا دون فرقة موسيقية، أو حجز قاعة والسهر والشرب طوال الليل كما حدث مع ابنة عمهم يوم تمت سرقتهم من قبل دريد، وكما هو المعتاد، قدموا له التبريكات، هنئوه مقدما، قبّله آدم بصدق حميمي أخوي خالص، أمه لم تفتها الفرصه، قامت وقبلته من رأسه وهي تتمنى له كل الخير

(•) المندي: بيت العبادة

والسعادة مع ظفر، تلك الفتاة النحيفة الملهوجة التي ستذيقهم من العذاب أقساه وأول العذاب صوتها العالي المدمر، المقلق، والمثير للأعصاب.

بعد أن حددوا موعد زواج ابنهم بدأت الهمة في التحضيرات للعرس عالية، اتصلت الأم بابنتها الكبيرة قمر وطلبت مساعدتها، سلوى اهتمت بظفر تذهب وتأتي معها في شراء لوازمها من ملابس ومكياج وأشياء أخرى كانت ضرورية لعروس سيختصر عرسها على خاصة الخاصة بسبب ظروفهم العائلية، تفهمت عائلتها الأسباب التي دعت أهل مروان أن يفعلوا ذلك وتقبلوا الأمر بروح سمحة تحب الخير والسعادة لابنتهم، كان موقفهم ذاك محل تقدير أم نصير، وكثيرًا ما حكته وأتت به مثالاً في كل مناسبة تجدها ملائمة.

نصير لم يقصّر في دعوة أقاربه وأصدقائه، وعندما حانت ليلة الزفاف كان البرد قد سيطر على الأجواء، الريح الباردة القارصة كانت تدخل إلى العظام وتجعلها تصطك وتئن. فتحت غرفة الضيوف من خلال بابها ثلاثي الأضلاع على غرفة المعيشة، فأصبح المكان واسعًا، فرشت الأرضية بشكل جعل المدعوين يفضلون الجلوس على الأرض أكثر من المقاعد والكراسي التي وزعت في أنحاء الغرفتين، وما نقصهم جاءوا به من بيت نصير، مقبولة زوجته رحبت بلسانها فقط، لكن، قلبها كان يعتصر وعقلها يردد شيئًا آخر، هي لم ترغب بأن تعير أهل زوجها أشيائها الخاصة، ومع ذلك لم تستطع أن تعارض رغبة عمتها، قبلت على مضض، أوصت من يحملها ويجلبها بتوخي الحذر، بالحنية والحرص وعدم الاستهتار بأغراضها!. ساد الحفل الغناء الذي لعلع فيه صوت نصير وشاركه المدعوون خاصة بعد أن سلطن الشرب وسيطر على عقولهم ثم لسحها.

نصبوا العشاء في ساعة متأخرة من الليل، بعدها غادر من غادر وبقي من بقى، وما أن أعلنت الساعة الثامنة صباحًا حتى كان المتواجدين وأهل البيت يتحضرون للذهاب إلى منديهم لإتمام مراسيم التعميد هناك بعدها فقط يسمح لظفر أن تكون زوجة شرعية لمروان.

• • • •

في أخر شهر من السنة السابعة من عصر الحرب المدمرة بين العراق وإيران حدثت أشياء لم يتوقعها أحد في عائلة أنْهُر، فقد تقدم أحد المهندسين من طائفتهم لخطبة سارة ابنتهم. كان لهذا الحدث صوت مجلجل داخل العائلة، من جهة حسدت نداء أختها من كل قلبها، ومن جهة أخرى ازدادت سارة غرورًا، أصبحت إنسانة لا تطاق، لا يمكن الحديث معها، أو سؤالها في أمر ما. بينما الوضع اختلف عند أنْهُر، فرحت لأختها ووعدتها بأن تلبي كل رغباتها وتساعدها في كل ما يطلب منها. لم يكن يعرف أحدًا بأن الخطيب المهندس لم يكن مهندسًا، بل رجل خائب، رسب في امتحاناته في سنته الأخيرة بالإعدادية ككمال شقيق أنْهُر واضطر للالتحاق بالخدمة العسكرية، هو لم يصرح بذلك إلا بعد أن تزوج من سارة. وقتها اشتعلت حياة سارة بالغضب، صرخت به عندما صارحها بوضعه الدراسي وتحصيله العلمي، قالت :

- سأنفصل عنك. هو ومن الظاهر لم يعرف سارة جيدًا، حدث مثل هذا يعني لها الكثير، خذ حياتها ولا تأخذ قطرة من غرورها وتكبرها، عنادها ساعتها كان كبيرًا كعناد صخرة على التفتت، حاول مصالحتها عندما رجعت إلى بيت أهلها بعد زواجها بفترة قصيرة ولم ترض حتى قدم لها مغريات مالية رائعة لم تقدر على رفضها فرجعت إلى بيته، ابيه كان رجلاً غنيًا معروف عنه بالعبوس وكثرة المال، غير محبوب من قبل معارفه وأصدقائه وأبناء طائفته، ماله سبب عبوسه. هناك من يعاقر المال فيصعب سبر أغوار نفسه، تغرب عنه الضحكة وتصاب ابتسامته بالشلل، هذا ما حدث لعقيل والد هشام زوج سارة بالضبط. انسته نقوده بساطته وإنسانيته، تحول إلى رجل لا يعرف في حياته غير العبوس والتوتر والنفور من الناس حتى أقرب الناس إليه، فهو لم يستطع أن يكوّن علاقة طبيعية مع أهل سارة، لم يزرهم يومًا، ظل يتعذر بالأعذار حتى ملوه ويأسوا منه، تركوه ولم يعودوا يدعونه في مناسباتهم. كان عجوزًا متعجرفًا، بوجهٍ جافٍ كحبة زيتون أحرقها البرد، يتدلى على شفتيه شاربان أحمران سمينان كثّان طويلان كذيل القطة، جسمه نحيف لا يزيد طوله عن ستة أقدام. أخذ منه ابنه هشام الذي تزوج من سارة شكله وطبعه واحمرار بشرته وزادها اعوجاج نطقه، فلم يكن المسكين ينطق الحروف بشكلها الصحيح، يبترها قبل أن يطلقها دون إرادة.

حفل العرس الذي أقامه عقيل والد هشام ظل يحكى به من حيث اختيارهم لنادي عريق السمعة في بغداد وجاء اختيارهم مقصود لإبعاد الشبهه عن ابنهم، نادي المهندسين، بقاعته الكبيرة الجميلة المزينة، وخشبة مسرحة العريض وصوت "الدي جي" الذي يقف خلفها شاب من مصر له باع طويل في الموسيقى، يستطيع أن يضع الأسطوانة الملائمة في الوقت الملائم، كان فنانًا بحق، تعددت الفرق الموسيقية التي أحييت الحفل، كثرة المدعوين، ومع ذلك وقف لآدم ومجيد ووسن كالند وهو يطالبهم بإظهار بطاقة الدعوة عندما حضروا لمشاركتهم العرس بعد أن دعت أنْهُر آدم، الأخير طلب من أخيه مجيد وابنة أخته وسن أن يصطحباه، عقيل مترنمًا كمن يتفوه بعبارة نابية عن قصد يقف قبالتهم ويسد الطريق عليهم رافضًا دخولهم قبل إشهار بطاقة الدعوة!. كان موقفًا لا يحسدون عليه.

ارتبك آدم، شعر بالحرج، غرق في بحر خجله كالحجر، مجيد أراد أن يقول شيئًا فلم يستطع، ظهرت أنْهُر بحلتها وفرحتها وبهجتها كطقس من طقوس السعادة ورائحتها الزكية العطرة تنتشر حولها، تسبقها، تسبق خطواتها، لم تلتفت إلى عقيل نسبيهم الجديد والد زوج أختها سارة، لم تتقصد ذلك، بل فرحت بوجود آدم ووسن وأخيه مجيد، رحبت بهم، قالت ببراءة شقت عقيل نصفين الواقف الصامت المتفاجئ من تصرفات أنْهُر:

- ماذا تنتظرون؟ هيا... لقد حجزت لكم طاولة قريبة من طاولتنا... تعقدت الأمور أكثر، آدم لا يعرف بماذا يجيب، عقيل لبسته المفاجأة، ظل ساهمًا وهم لا يعرفون كيف يتصرفون، هل يذهبون معها؟، أم ينتظرون أذن من صاحب الحفل؟، أم يولوا الجميع ظهورهم ويختفون من حيث أتوا؟... الرجل والد العريس أفاق من محنته، قال بلا رغبة وهو يخزر أنْهُر:
- هل تعرفينهم؟
- ماذا تقول يا عمي؟ بالتأكيد أعرفهم، أنا التي دعوتهم وطلبت حضورهم، إنهم من عائلة أم نصير أقاربنا ولم تتباطأ، تناوشت يد آدم بجرأة خاف الأخير عليها وهي تقول:
- هيا... اتبعوني.

مجيد برطم وغندب(•)؛ لم يعجبه تصرف والد العريس، رآه متعجرفًا، متكبرًا لا يعرف يساره من يمينه، ظل متحفزا للخروج في أي لحظة مواتية. آدم لم يخبر أنْهُر بتصرف نسيبهم، فضّل عدم حشرها في الموضوع، أراد أن يبعد عنها في ليلة كهذه كل الهموم، هو حضر من أجلها، من أجل رؤيتها، وربما يفوز بمراقصتها للحظات، كان هذا حلم لطالما راوده في صحوته ومنامه، ربما يحقق ما كان يصبو إليه، تركتهم وذهبت تمشي بخطوات كعادتها كالعصفورة لا تلامس الأرض إلا عندما تقف أو تقفز، كانت ترتدي فستانًا بلون السماء مطرز بدانتيل في أسفله له لون النهار، شعرها معتنى به بشكل لا يوصف، تسريحة جميلة ومكياج بسيط جدًا على الوجه يكاد لا يرى، هي لا تحب التبرج حتى في مناسبة كهذه، في قدميها حذاء أبيض بكعب عالٍ جعلها تقارب آدم في طوله، والأخير لم تبارحه نظراته لها، ظل يبحث عنها بجلسته السعيدة المعذبة، مجيد يلوب ووسن تضحك وتصفق وتغني مع المطرب الذي كان منهمكًا في إسعاد الجميع قدر طاقته، الفنان لا شغل له غير إسعاد من حوله من خلال فنه، الفن للحياة وليس لذاته، الفن فرحة، شربة ماء بعد فترة قحط، لقمة لجائع يسكن قارعة الطريق، قطرة حليب لطفل ماتت أمه بعد ولادته، حب في زمن المرض والحرب والطاعون، الفن هو كل هذا وأكثر.

وقفت أنْهُر على رأسهم فجأة، كانت بصحبة النادل، وضع على الطاولة ما كان يحمله من صحون ملونة ملئية بالمزات والسلاطات والمكسرات، سألت مجيد بالتحديد عما يعجبه أن يشرب، قال:

- أفضل المشروبات الغازية، أضاف صادقًا: في مناسبات كهذه لا أقرّب الكحول.

- حسنًا، وأنت يا آدم وهي تغمزه؟. كانت تعرف بأن آدم لا يشرب الخمرة، ووسن في حفل خاص كهذا وبوجود عائلات من ملتها سوف لن يتاح لها كما أتاحت لها الفرصة في الحبانية عندما كانوا يحتفلون بعيد الخليقة قبل أشهر وقتما تعرفت أنْهُر عليها هناك كانت تشرب البيرة. أشارت للنادل بأن يخدمهم حسب ما سمع وقدمت يدها لآدم وقالت هل تسمح:

(•) برطم وغندب: زمَّ شفتيه وانزعج

- ومن هذا الذي يرفض طلب أميرة الحفل؟! هيا... نهض والسعادة تكاد تقضي على قلبه... راقصها، وضع يده على كتفها، على خصرها، شم رائحتها، عبّ من رائحتها، سكر بخمرتها، ترنح من الفرح، قال هامسًا:
- أنتِ نسمة الجبل.

أجابته بوداعة:

- أنت اللامبالاة.

- أنتِ زهرة... كلا، أنتِ رحيقها... بل الاثنان معًا.

بعذوبة:

- أنت حلمي وواقعي.

- انظري إلى أهلك... ينظرون لنا وكأنهم ينوون التهامنا.

- لا تعبأ بأحد الآن، لا تنظر نحوهم، دعني أعيش لحظاتي معك... بعدها يستطيعون صلبي كيسوع ولن أعارض... سأكون راضية وكأني قد عشت حياتي كلها... يدوران حول نفسهما، الموسيقى لم تكن صاخبة، جميلة، هادئة، هي اختارت مراقصته عندما عزفت الفرقة لحن هادئ أرادت أن تكون قريبة منه جدًا، تلامسه، تضع يدها على كتفه، تشمه كما يشمها، يكونان روحًا واحدة. لم يجلس آدم بعد انتهاء المقطوعة الموسيقية التي راقص أثناءها أنْهُر حتى طلب مجيد منه أن يغادرون الحفل!، سأله بامتعاض:
- لماذا؟ وتابع: نحن لم نجلس إلا نصف ساعة.
- هذا المعتوه والد العريس جاء وحاول مضايقتنا، قال كلامًا ما كنت سأسمح له بترديده أمامي لو كانت الظروف غير هذه، لا أستطيع أن أرده والعرس عرسهم والحفل حفلهم... لقد أخطأنا بقرار مجينا، جئت من أجلك فقط، أنا كما قلت لك في البيت لا رغبة لي بالحضور، لكن إصرارك كان أكبر من رفضي، هيا، رأيت أنْهُر وراقصتها ولا نريد أن تحدث مشكلة في وقت كهذا بسببنا...
انهضم آدم، شعر بالمرارة وهو يستمع لكلمات أخيه، لعن والد العريس في سرِّه، قال يخاطب نفسه كما في كل مرة يقف فيها موقف كهذا "القدر، القدر يقف لي ولأنْهُر بالمرصاد كأنه يعرفنا ولنا معه حكاية أو ثأر لم ننته منه أو نسدد حسابه،

الفقير يقول الكلام ذاته، يقول أنا لا أملك خبزًا ويمرض أحد أفراد أسرتي؟ العدالة، أين هي؟ لماذا الظلم؟" وعى على نفسه، ثم ببطء كأنه يصنع الكلمات صنعًا وهو يضحك هازئًا كضحكة الأمواج الساخرة التي لا تعبأ بالكون، قال:
- هيا لنخرج دون أن نودع أحد ولا حتى أنْهُر، لو عرفت لانهارت، لنتسلل بهدوء كالحرامية... وغادروا الحفل مقهورين.

• • • •

تفاجأت أنْهُر من عدم وجودهم. انتفض قلبها داخل صدرها. غامت عينيها. حزنت. انطفأ توهجها. بردت، شعرت برعشة تستولي على جسدها. قال حدسها "العجوز الأحمر سبب رحيلهم المبكر". صدق إحساسها. لم تسأل آدم فيما بعد ولم تعاتبه على مغادرته دون توديعها. ظلت طوال الوقت أثناء الحفل تجامل، تبتسم، تضحك، ترقص، وداخلها يحتضر.

(٢٢)

انتقلت ظفر إلى بيت عمتها أم نصير بعد أن أصبحت زوجة ابنها مروان. رنات ضحكتها كانت تصدح في أرجاء البيت. صوتها المجلجل، شهقتها المعتادة أثناء الحديث كمن يشرق بالماء. قلبت كيان البيت الهادئ وجعلته يهتز بضوضائها المستمر دون انقطاع، وزوجها مروان سعيد بهذه الطقوس التي تمارسها زوجته... لم تمض حياة مروان البهيجة على هذا النحو إلا أيام حتى شعر في البداية بوخزة في خاصرته ثم تحولت إلى مغص لا يحتمل نقل على أثرها إلى مستشفى الرشيد العسكري بصحبة أخيه آدم في ليل كان أسود من المعتاد... وكانت لسفرتهما من بيتهما حتى وصولهما المستشفى العسكري حكاية مذهلة لابد من الوقوف عندها:

شقت سيارة نصير الزرقاء من نوع "تويوتا كراون" طريقها ذات المواصفات الخاصة جدًا والتي اقتناها من تاجر من الكويت، أحضرها له عديله الميكانيكي زوج فضاء أخت زوجته مقبولة بعد أن غيّر جنسية أوراقها من الكويتية إلى العراقية يقودها آدم بسرعة جنونية كأنها غزال هارب؛... لم يفكر حينها إلا في أخيه مروان الذي كانَ يعاني من لآلام مبرحة في البطن كأنه يعاني تسممًا، الغائص في المقعد الخلفي، لف ببطانية ليبدو مثل صرة ملابس... يئن بصوت حاد أو شيء كالعواء يحث أخيه على السرعة كي يصل المستشفى العسكري التي ينتسب إليها.

مضت السيارة مسرعة كالريح وسط طريق عارٍ بلا مارة، أظلم وكئيب كمسرح لكابوس؛ لا أحد يعنيه في ذلك الليل الحالك الظلام من أمر آدم وعواء أخيه شيء. الجميع نائمون كالموتى إلا من فوانيس الطريق الخافتة التي تعبّر عن تعبها وإرهاقها هي الأخرى تشع حزنًا أكثر من أن يكون نورًا، لِم لا وهي واقفة كأنها تماثيل في طريق حزين كأعمدة المشانق.

فجأة أضاء طريقهما بغتة نور ساطع كالنار الملتهبة، اقترب الضوء الساطع من سيارتهما. تسمّرَ آدم في مكانه. لم يكن يرى غير الضوء الذي يعمي البصر كمن ينظر لقرص الشمس بتعدي وهو يقرأ دعاء كان قد حفظه عن أمه عندما تشتد

الشدائد... كرر الدعاء بسرعة دون أن يبلع ريقه، كاد يشرق ملتفتًا نحو أخيه الذي مازال يئن من تحت الغطاء بارتباك يسأله:

- مروان... ضوء ساطع لا أستطيع التأكد من هويته يلاحقنا حينًا ويتقدمنا حينًا آخر منذ دقائق، ما رأيك هل نتوقف أم ماذا؟

دون وعي صارخًا:

- ماذا تقول... نتوقف؟، أرجوك قل كلام آخر، اسرع يا آدم ولا تبالي، ثم متفلسفًا رغم الألم: حياتنا كلها واقفة على كف عفريت... ماذا سيكون أو سيحدث أكثر مما رأينا؟، أمره بحزم: استمر فالآلام تقطع أوصالي كالسكاكين الحادة، أرجوك سأموت أن توقفت، غمغم بانكسار وبصوت خافت كالمخنوق: ماذا عساه أن يكون؟ تراه مجرد وهم لا أكثر... وحثه على القيادة بسرعة. السيارة بدت تهتز ومحركها يعرعر وهي تشق طريقها بقوة كالإعصار.

في قلب الليل الساكن خُدش حياء الصمت صوت إنذار يعبر عن الشؤم والمتاعب، انتشرت الأضواء بسرعة رهيبة وبألوان عدة وصراخ الإنذار لا ينقطع كأنه النذير أو ساعة القيامة. أجبر آدم على التوقف بعد أن شعر بحرج الموقف وهوله. توقف. فُتح باب السيارة عليه دونَ استئذان وصوت مجلجل كالهدير آمرًا:

- ترجل من السيارة. حافظ على هدوئك إذا أردت أن تبقى على قيد الحياة. ارفع يديك إلى الأعلى وانتظر إشارتنا.

في هذه اللحظة الشاردة تجمدت الروح في جسد مروان القابع في الخلف، الغارق تحت البطانية يلوب من الألم، ظل دون حراك بعد أن فقد السيطرة على النطق والأنين... علت أصوات الشرطة عالية في الهواء تستجوب آدم بقسوة كأنه مجرم:

- اجب ولا تفكر باختلاق الأعذار، نحن نعرفك جيدًا، لقد كنا نبحث عنك منذ أسبوعين، أتعبتنا يا حقير. لحظات قليلة بانت كالدهر... دمدم مرتجفًا:

- أرجوكم اتركونا نتابع سيرنا إلى المستشفى، أخي مروان مريض جدًا، يعاني من آلام مبرحة، قاتلة في بطنه وأن لم نصل إلى المستشفى في الوقت المناسب قد يفارق الحياة... قاطعة ضابط الشرطة ناعقًا ورائحته كانت لعينة كتلك التي تهرب، أو تتسرب من خم الدجاج:

- ما هذا الذي تحمله في المقعد الخلفي؟ وهو يطالب زميله بالابتعاد بعد أن سحبوا آدم معهم مبتعدين عن السيارة ويطلق صوتًا كعواء الذئب، ستنفجر السيارة حتمًا، آمرًا زميله الاتصال بالدورية القريبة منهم لأجل المساعدة.

بهت آدم وهو ينظر نحو أخيه الغائص تحت الغطاء لا يتحرك. علا صوته فجأة يكاد يبكي:

- يمكن التأكد بأنفسكم، أنه أخي المريض ولا أحد غيره في السيارة، تشجع صوته، اكتسى قوة عجيبة كأن الحالة ألهمته الشجاعة: لكم أن تسعفوه أو أن تطلبوا له سيارة الإسعاف، هو جندي، أي، ينتسب إلى قوات الجيش العراقي، ولن يعالج إلا في المستشفى العسكري وأنتم تعلمون، ثم تغيرت لهجته أصبحت متوسلة: أرجوكم، أحلفكم بالله أن تقدروا موقفنا ولا داعي لهدر الوقت هكذا في أوهام لا وجود لها.

صك الضابط على قبضة يده وأسنانه، صرخ بهوس كالمخمور:

- ستقتلنا يا مجرم، انتظر في مكانك حتى تأتينا قوة مساعدة...

ظل آدم يتابع نظرات الضابط الزائغة وصوته الأبح بغيظ مكتوم. في حين استمر الضابط يتحدث بعنف كأنه في معركة:

- أنا أعلم بأن هذه الليلة سوف لن تنتهي إلا بموت أحدنا أو جميعنا، بصقَ بقوة وبتقزز على الأرض كأنما يتقيأ دون خجل... تفوه... وبدنه يهتز.

وصلت سيارة شرطة أخرى، ترجل منها أربعة رجال قساة المنظر كطبيعة الصخور، هائلين الضخامة وطولهم كعرضهم، نظراتهم غريبة تبعث الرعشة والرعب في قلب كل من يراهم تنذر بالشقاء، يرفعون أسلحتهم عاليًا في الهواء، علا صوت أحدهم له أنف كبير كأذن الحمار، يدمدم بنبرة لا تخلو من سخرية وثقة عالية في النفس كمن يدارى هزيمته بضحكة زائفة:

- فتشوا السيارة بحذر شديد... ثم شدّ من حماسهم متابعًا: الله سيكون معكم يا أبطال، استطرد بعنجهية متعالية: هذا أمر... وهو ينظر إلى آدم نظرة متحرشة، متحدية... هرب لها قلبه الصغير.

توجه رجال الشرطة بأمر آمرهم إلى السيارة مترددون والخوف يأكل وجوههم الغليظة كأنهم أمام لغم أو قنبلة موقوتة. فتح أحدهم صندوق السيارة بتردد ورهبة

مثل الذي يحاول فتح صندوق مدفون في كهف لقرون وهو يكاد يموت بالسكتة فلم يجد شيئًا، مما جعله يتشجع لتكملة الحملة التفتيشية... توجه نحو المقعد الخلفي الذي كان مروان يرقد فيه مغطى، كان منحنيًا كترس السلحفاة، رفع عنه الغطاء بحذر وهو يصيح: ابق دون حركة، المكان كله محاصر... إذا به يفاجأ بجسم آدمي مكور، جامد كالثلج، وضع يده الخشنة التي تبدو كيد تمساح على رقبته لجس نبضه... وجده كقطعة خشب، يكاد يكون بلا نبض.

رجع مسرعًا إلى آمره وهو يدمدم كالمعتوه بكلمات بدت غير مفهومة:

- سيدي... هناك... أقصد، رجل ميت، لا لم يكن ميتًا تمامًا، ثمَ أردف بخبث الحاقد: لا نعلم لماذا يريد هذا الرجل وهو يشير بإصبعه نحو آدم دفن الميت بهذه الطريقة الغريبة وفي جنح الظلام كأنه هو القاتل!، استمر كمحامٍ: رأيي يا سيدي أن نتحقق من الموضوع بكل روية وإناء، فقد تكون هناك فعلاً جريمة قد اقترفت ونحن لا نعلم؟!

هزّ الضابط رأسه كحصان هرم بارتياح، تنفس الصعداء، بهدوء نبر:

- عفارم عليك (•)، استدعوا سيارة الإسعاف لنقل الميت، خذوا السائق معكم لاستجوابه، حرّزوا على السيارة لحين استكمال التحقيق وهو يفرك أنفه الحماري بقوه ويعطس كالرعد كأنه شَمَّ رائحة مومياء في مقبرة فرعونية لتوه وردد بعزم غير حقيقي:
- هدفنا نبيل وسام، في أحيان كثيرة يكون أنبل من الشرف ذاته. قهقه بعنف كأنه يضرب أحدًا متقصدًا، ثمَ مستدركًا:
- آه... كم جميل أن نسهر نحن وينام المواطن مرتاحا!.

طوق الحزن آدم كخشب التابوت، صامتًا، خاشعًا يستغفر ربه بصمت لمعرفته بأن أخيه مازال على قيد الحياة. بعد أن تأكدوا، تركوه يقود سيارته دون اعتذار عن التأخير الذي سببوه بلا داعٍ لولا غباؤهم.

• • • •

(•) عفارم عليك: أحسنت صنعًا

ما أن تأكد آدم من أن مروان سيكون تحت رعاية الأطباء في المستشفى رجع قافلاً إلى بيتهم واعدًا أخيه الحضور عند الصباح بعد أن يرتاح وينام ساعتين.

مكث المسكين دون علاج تلك الليلة، لم يمر عليه أحد. ما قاله الدكتور الخفر للممرض وقت ما أحضره آدم بأن يعطيه العلاج اللازم ولم يفعل، ذهب لينام وبقي مروان يصيح الليل كله متألمًا دون أن يسمعه أحد غير زملائه المرضى في الردهة التي كانت ملئى بالجرحى والمصابين في الحرب. ظل أسبوعين دون أن يعرفوا سبب تلك الآلام المبرحة التي واجهها، خرج من المستشفى كم دخل.

في تلك الفترة التي كان فيها مروان بعيدًا عن زوجته الجديدة، كانت تلوب وتندب حظها لأنها لم تتمتع بشهر عسلها. حاول آدم أن يهدأ من روعها ومواساتها، جلس معها المساءات الكثيرة للتخفيف عن محنتها دون فائدة. غالبًا ما كانت تحكي وتبكي، ثم تشهق وتشرق. غادرتها الضحكة لكن صوتها المجلجل لم يغادرها، ظل يرن ويصدح في آفاق وأرجاء البيت، تهتز منه أركانه الوقت كله.

• • • •

بعد أن استقرت أحوال مروان الصحية والزوجية قرر آدم مفاتحة أهله من جديد في موضوعه المتعلق بأنْهُر. بدأ بأمه، بل هي التي فاتحته في الموضوع بعد أن رأته مهمومًا في مساء كانت نجومه تلمع وهي تغمز الأرض بضوئها حيثما كان جالسًا في ذلك المساء من بداية شهر آذار على حافة الممر الفاصل بين البيت والحديقة سارحًا، متأملاً ولأنْهُر مشتاقا.

فات على آذار الذي سبق عامًا كاملاً وقتما تعرف على أنْهُر في منتجع الحبانية بتاريخ لا يمكن نسيانه، الثالث والعشرين منه، أول يوم من أيام عيد الخليقة، حفر في ذاكرته وطبع كالوشم، شاهدها ليلتها بالصدفة، سحرته عذوبتها ورقتها، صدقها وحركاتها وطيبتها كما ذابت في رحمته وحكمته، اتزانه وجديته وموهبته. تدخلت إرادة القدر فانقسمت الروح بينهما، وها هو اليوم يجلس هائمًا في وصالها، يرغب قربها.

تقربت منه أمه بخفة تسأله:

- ما بكَ يا آدم؟

- أفكر.

- بأنْهُر أليس كذلك؟

- نعم يا أمي. وأضاف: لقد طال عذابنا، نتوق أن يلتئم شملنا ونعيش معًا كما نحب ونرغب.

وعدته خيرًا، قالت:

- سيكون لكما ما تريدان، بل لا يشغل بالي هذه الأيام غير وضعكما أنت وأنْهُر، أعطني فرصة كي أفتح الموضوع مع أخيك نصير وأقنعه، أنا عن نفسي لا مانع عندي، بل العكس، أراك رجلاً أهلاً لهذه الزيجة وأنْهُر فتاة رائعة تستحق التقدير، لكن عليك أن تعدني؟

- أعدكِ بماذا؟

- أن تنتبه إلى صحتك ودراستك، أن تتحلى بالصبر حتى تفوز بما تريد.

قام وقبّلها من جبينها. أمه امرأة رائعة، هو يعرف هذا جيدًا، عندما كان يحضر مع إخلاص ليشربا شيئًا في بيتهم لم تكن تعارض رغم أميتها، بشرط أن يكونا تحت أنظارها، لا يختلي بها منفردًا، في عرفها إخلاص حتى لو كانت على غير دينها مثل ابنتها، سمعتها كسمعة وسن ابنة ابنتها الكبيرة قمر، هكذا هي أم نصير، وما وعدت به آدم نفذته.

لبست عباءتها السوداء، ترجلت ماشية حيث بيت ابنها نصير. هي تعرف كيف تكون حازمة في الأوقات التي يتطلب منها الحسم والحزم. دخلت بيته، توجهت إلى غرفة المعيشة مباشرةً، طلبت من ابنها أن يخفض صوت التلفاز ويترك ما بين يديه ويأتي بقربها.

بدأت حديثها التي خمرته بداخلها جيدًا قبل وصولها:

- اسمع، ما جئت لآخذ رأيك، بل لأقول ما يجب أن نفعله حيال أخيك آدم.

- ما به؟

- يريد أن يتقدم لخطوبة أنْهُر.

- أعطيت رأيي من قبل لكنني غيّرته بعد أن زارتني في المستشفى!، رفضتها في البداية عن جهل والجهل مصيبة المصائب كالفقر، بلا وعي، أو إدراك، أو معرفة حقيقية بأخلاقها وصفاتها؛... وما أن وعيت على هذه الأمور حتى وافقت وتصالحت مع نفسي ومعها وداخلي يردد "أنْهُر أصلح فتاة تفيد وتلائم طبع آدم"، توقف لبرهة، نظر لأمه بإعجاب لم تفهم منه سببه وهو يحرك رمشيه بسرعة، ثم تابع من جديد بحرارة غير متوقعه:

- علمتني أنْهُر يا أمي، هذه الفتاة الجميلة شديدة الحساسية التي تشبه الفراشة في رقتها وحركاتها بأن الإنسان منا عليه أن لا يتعجل في قرارات حكمه، أن يعطي وقتًا لنفسه قبل أن يقول هذا صح وهذا خطأ، هذا حلال وهذا حرام، علمتني ذلك دون أن تتفوه بكلمة، علمتني بذكائها، بحنكتها، بطيبتها، برحمتها دون حاجتها إلى وسيط وهي اللغة، قالت لي قف، فكر أولاً ثم انطق، أنْهُر فتاة رائعة تستحق كل الخير وهي كما قلت ستجعل آدم سعيدًا وناجحًا في حياته... أثبتت لي بمقدرة فاقت فيها الذكاء الذي نعرفه بأنها فتاة تستطيع أن تبني حياتها مع آدم دون أن تجعلنا نخاف عليهما، حتى إني فكرت بمفاتحتكِ بالموضوع قبل هذا الوقت لولا دخول مروان المستشفى. لكن بعد أن اطمأننا عليه واستقرت حالته لا أجد ما يبرر التأخير، على بركة الله يا أمي.

- جميل جدًا ما أسمعه، تابعت بحرص صادقة: يا بني، آدم أنت تعرفه، شاب مثقف، موهوب، حساس ومتفوق في دراسته، سيتخرج طبيبًا قريبًا، والفتاة جميلة ومتعلمة وهما متحابان، ثم أنهت خطبتها: إذن سأتصل بأختي أم كمال وأحدد معها موعدًا لطلب يد ابنتها... ثم نبرت واقفة:

- بالإذن.

- إلى أين؟ يمكنكِ العشاء معنا؟ وأضاف: حتى إنكِ لم تشربِ شيئًا... ثم غازلها مناورًا مماحكًا كعادته: الكلب الذي عضكِ قتلناه!.

بلا تردد مقتضبة:

- شكرًا، عشائي جاهز في بيتي. غادرته مسرعة وقلبها يزعجها لقوة ضرباته الخافقة بالفرحة، خرجت من بيته وهي تشعر بأنها تريد أن تقفز رغم سنها الكبير من الغبطة.

(٢٣)

ما أن فتحت أم نصير باب بيتها حتى صُدمت بوجود آدم ابنها بوقفته الرخامية ينتظرها. سألها دون أن يعطيها لحظة لأخذ نفسها ملهوجا:

- ها يا أمي... ما الذي حصل؟

- كل خير... وهي تدخل بيتها مندفعة بالغبطة التي تلتهم قلبها. ركض وراءها وسألها مجددًا:

- أرجوكِ، قولي لي ما حصل؟. لعلعت ضحكتها، بانت أسنانها الصفراء بلون الذرة وهي لا تستطيع كبح سرورها، نبرت:

- لقد قلت لك، كل خير، وأضافت آمرة: اتصل بهم واعطني سماعة الهاتف!

- اتصل بهم؟

- كما سمعت، هيا لا تتأخر، سأحدد معهم يوم لنزورهم فيه ونطلب يدها... لم يجعلها تكمل جملتها، حضنها، قبّلها من رأسها، صاح بهوس:

- هكذا يجب أن تكون الأم. لقد قلتها ولم تصدقني أم نصير، أنتِ أم مكسيم جوركي في كتابه العظيم، مكافحة، معطاءة، مناضلة من أجل الحياة... سمعت حوارهما وسن، فهمت ما كان يدور حولها، الفتاة الشرقية لها حاسة فريدة في شم ومعرفة نتائج الأخبار من هذا النوع، ركضت نحو آدم، قبّلته وهي تهمهم وترطن بكلمات التهاني غير المتناسقة، فرحت لخالها ولأنْهُر، هي تحبهما أكثر من نفسها، وسن فتاة طيبة، أرادت أن تطلق الزغاريد فخجلت من جدتها احترامًا لذكرى المرحوم سعيد خالها، باركت:

- سيكونان زوجان رائعان، يكوّنان أسرة لا مثيل لها، أنْهُر وأعرفها، حكيمة ورحيمة كآدم، ثم نظرت إلى الأخير فوجدته منشغلاً بالهاتف يدير الأرقام بأصابع مرتعشة من شدة الفرحة بغية الاتصال بأهل كمال.

• • • •

لم ينم آدم ليلتها. يجهل شيطان الأرق الذي جعله يتقلب على سريره مثل سيخ اللحم في المنقل أثناء شيه. تذكر دون سابق إنذار أستاذه الذي يرهبه ويخافه سلمان أرتوش مدرس مادة الإنجليزية في سنته الثالثة للمتوسطة. كيف خطر على باله شريط ذكرياته تلك لا يعرف"

كان مدرس الإنجليزي سلمان بن أرتوش مسيحيًا من عائلة غنية، يملك فندقًا ضخمًا سمعوا به الطلاب ولم يروه. يتمختر بمشية دقيقة جدًا تحسب بالمليمتر لا بالسنتمتر. لا يرتدي إلا البذل الكاملة القيافة بربطات عنق تتغير حسب لون القميص والحذاء كل يوم. أشقر الشعر، قصير الجثة، وفي وجنته من اليمين شامة كبيرة أعطت لوجهه الوسيم حسن إضافي جعله أشبه برجال السينما. يحب اللغة الإنجليزية حبًا لا يوصف، يقول، بأنه تعلمها في وقت فراغه عندما كان يخدم في الجيش؛ عصبي المزاج حاد الطبع يخافه الطلاب أكثر من ذويهم. وآدم لم يكن في منحى عن هذا الخوف، فقد كان يحسب له حسابه ويرهب من طبعه الحاد ذاك ولا يطيق حضور درسه لولا القوانين المدرسية الصارمة التي تجبره على الحضور والانصياع. وفي يوم كان قد كلفهم في الدرس الماضي من كتابة إنشاء عن أهوار العراق، دخل عليهم في تلك الحصة حتى طلب منهم أن يرى دفاترهم، وحدث ما لم يتوقعه أحد.

ظل ينظر بدفاتر الطلاب ويرميها في إحدى زوايا الصف حيث سهلة المهملات وتجمع القاذورات، لا أحد يعلم أو يفهم تصرف أرتوش وهم من أمره حيرى... يأخذ الدفتر من أحدهم، ينظر فيه للحظة قصيرة جدًا حيث نص الإنشاء الذي طلبه في الحصة الماضية ثم يقذف به إلى ذلك الركن الذي امتلأ فجأة بدفاتر الطلاب وهي ممزقة الأغلفة نتيجة القذف العشوائي وتطايرت من بعضها الأوراق البيضاء التي لم يفك عذريتها الحبر بعد والسوداء الملطخة بعار الإنشاء. الطلاب يدمدمون يجهلون تصرف أستاذهم حتى أتى على أخر دفتر فيهم إلا من واحد... رفعه، قرأ اسم الطالب، قال:

- هكذا يكون الإنشاء!. أنه الوحيد الذي كتب بطريقة صحيحة. ولم يرمه أو يقذف به. بل أرجعه لصاحبه الذي كان يدعى مسلم. من أذكى طلاب المدرسة. رفيع، أسمر، بشعر مقصوص على طريقة المسجونين وملابسه رثة أقرب إلى ملابس الشحاذين. وقتها شرح لهم السبب الذي جعله يقذف بدفاترهم بهذه الطريقة المغالى

بها كي يتعلموا والموقف لا ينسون ومنه أخطائهم يدركون، بأن الإنشاء يكتب على شكل نص متكامل وليس على شكل فقرات مرقمة وكأنهم يعدّون الأشياء حسب تسلسلها!.

عندها أدرك آدم حجم الخطأ الذي وقع فيه كما وقع به زملاؤه ونجى منه زميلهم مسلم لشطارته وذكائه، ولم يعد يكتب الإنشاء إلا بشكله الصحيح فحافظ على دفتره من القذف والتمزيق.

• • • •

في الصباح نهض كالصل، لم يشعر بالتعب أو الإرهاق، بل العكس، كان نشطًا، سعيدًا، قبّل كل الموجودين في البيت، لِما لا وقد أخذ وعدًا من أمه بأن تكون خطوبته في الثالث والعشرين من آذار؛ تاريخ لا يريد آدم وأنْهُر نسيانه، طُبع في ذاكرتهما كما ينحت الخط على الصخر، لابد أن يكون هذا التاريخ يومًا لخطوبتهما، ذكراه جميلة، هو تعرف عليها قبل عام بالتحديد. صمودهما كان منافسًا عنيدًا لقوة وجبروت القدر. تحابا واتفقا على أن يكونا لبعض، حسما أمرهما، من يحسم أمره يحقق أهدافه، النجاح لا يأتي بالتأمل والدعاء، بل بالعمل، بالمواصلة والكفاح، وهما ناضلا من أجل حياتهما، وها هما يفرحان باقتراب موعد خطوبتهما اللذان حدداه عن قصد، وكان لهما على قدر نياتهما.

ردد آدم على نفسه في ذلك الصباح البهيج بعد أن أنهى جولته من التفكير "الله يعطي، الله يأخذ، الله يحاسب على قدر الأعمال والنيات".

• • • •

في زيارتهم الأولى لأهل أنْهُر عندما طلبوا يدها لم تكن الأجواء طبيعية، كل شيء كان مصطنعا إلا من ارتباك وحيرة وعذاب كمال وهو يرى آدم ويشعر بالذنب يلسع ضميره كجمرة على قلبه لِما أرتكبه بحقه وحق أخته وما سبب لهما من عذاب أليم بتسرعه وقلة إدراكه وسوء معالجته للأمور التي أحاطت بعلاقة أخته بآدم خاصة عندما رآهما معًا في المنصور يتمشيان قرب محطة الحافلات، من جراء

غبائه أشعل نار الحقد في بيتهم مما أدى إلى انتحار أخته دون أن يكون قد ساهم في حل المشكلة، بل زادها تعقيدًا، ولولا حكمة أنْهُر وصفاء قلب آدم لما توصلوا إلى هذا اليوم الذي فيه مجتمعون يطلبون يد ابنتهم بشكل رسمي، لذلك كان التوتر سيد الموقف، هو المخيم على أجواء الجلسة، افتتح الحديث نصير وهو يوجه كلامه إلى أم كمال، عض شفتيه عاصم الذي كان يقابله خازرًا مشيرًا بأن عليه أن يوجّه حديثه وطلبه إلى أبا كمال الجالس صامتًا، سارحًا كأنه في كوكب آخر، فهم نصير ما نبهه عليه عاصم، غيّر مسار حديثه وهو يضحك بلا معنى قائلاً:

- يا عزيزنا الغالي داوود، جئنا لطلب يد أبنتنا أنْهُر لولدنا وأخينا آدم، كان آدم يمثل لنصير بالفعل ولده وأخيه، هو لم يكذب في هذا، موت أبيهم المبكر وآدم مازال طفلاً، لم يعي إلا على نصير والأخير يوليه رعايته واهتمامه حسب قدرته وتصوراته في الحياة وفي تعامله مع الآخرين، إذن نصير لم يخفِ الحقيقة، قال ولدنا وأخينا، عنده حق. أراد داوود أن يهم بالكلام، قاطعته زوجته مسترسلة بلباقة حادة، سليطة:
- نتشرف بكم وبابننا آدم. لقد عرفته قبل عام عندما كنا في منتجع الحبانية، كان والشهادة لله، شاب ممتاز لا ينقصه ولا يعيبه شيء، نحن موافقين... ثم علت الهلاهيل ترنّ في أرجاء الغرفة كصوت الطلقات النارية بعد أن اتفقوا على موعدًا لإعلان الخطوبة وتلبيس الخواتم.

• • • •

النغمة الجميلة التنعزف بالعود موش العود يفخر فخر عواده(•)

في مساء الثالث والعشرين من آذار اقتصرت الخطوبة على الأهل فقط. عائلتيَ أم كمال وأم نصير.

(•) موش: ليس.
والبيت هو بيت من قصيدة للشاعر الشعبي العراقي عماد عبد الرحيم الماجدي، جاء يهنئ فيها ابن مؤلف الرواية لحصوله على شهادة الماجستير في ألمانيا بالهندسة المعمارية.

هيأت عائلة أم كمال نفسها ورتبت بيتها من أجل استقبال الضيوف. انشغلت أنْهُر بتحضير نفسها، كانت تتحرك بشكل ملفت للنظر، سعادتها فاقت كل توقعاتها، هي ترى حلمها يتحقق بعد محاولة انهيار وانتحار، تحقق لها ما كانت تصبو إليه، تريد أن تكون بجانب آدم في حياته، تمنحه حبها، عطفها، رحمتها، أيامها، قلبها، جسدها، حياتها وما تملك، هكذا كانت تحاور نفسها عندما كانت تلبس ثوبها لوحدها، قالت تسر ذاتها "سأكون له بكل ما أملك. أنا لا أريد منه شيئًا ولا أطلب. رضاه وسعادته وتحقيق أحلامه وطموحة... هذا ما أسعى إليه. هو سيقدّر هذا صمتًا ويعوضني عن ما صادفني وما عشته من عذاب حتى فزت به. هو نظري، بسمتي، شهيقي، ماء عيني، يا الله يا آدم... كم اشتقت إليك، متى أكون لك وحدك. وحدك. هل تعرف ما أعني؟ لك فقط. كل مسامة من مسامات جلدي تصرخ باسمك يا أغلى ما في حياتي"... ثم رنت ضحكتها عاليًا، قهقهت، قرصت خديها، قالت، علي أن أكون جاهزة قبل حضورهم، نظرت بالمرآة التي أمامها، ثوبها الزيتوني المطرز بالأبيض المنفوش كأنه لراقصة باليه، جميل جدًا، جعلها تبدو وهي بداخله كالياقوته البراقة... جفلت على صوت أختها نداء وهي تناديها بقسوة:

- هيا انزلي... حضروا... دخلوا... انزلي... إنهم هنا...

انتشرت ابتسامة على وجهها، نظرت في المرآة للمرة الأخيرة، قبّلت آدم بخيالها، ثم نزلت كالفراشة الهائمة شبه طائرة بين القفز، السير والجري.

ترجلت عائلة أم نصير من التاكسي الذي لم تغب عينا صاحبه عن سيارة نصير أثناء الطريق، اتفقا أن يصلا في نفس الوقت منذ انطلاقهما من منطقتهما، تابع سائق التاكسي سيره بحرص شديد، قاد سيارته خلفه ليصبح كالظل له حتى وصلا.

انتشرت الزغاريد وعلت في الآفاق، لم يعلم أحد من هو صاحبها، هلهلت نداء مطلقة رنات متتابعة ولسانها يرقص في فمها، رحبت بهم عائلة أم كمال بشكل ملفت، تقدمهم نصير، ثم مروان وزوجته، ثم أم نصير وابنتها سلوى وابنها قيصر وبعدهم وسن ومجيد الذي يمسك بذراع أخيه آدم مغتبطًا والأخير يساوره الخوف والتردد من المجهول وما سينتظره وهو يعلم بأنه سيجلس أمام الجميع ولأول مرة بجانب أنْهُر التي كانت في الأمس القريب من المحرمات عليه.

أعلنت خطوبتهما وسط ضجة الزغاريد والتهليل، أم كمال لم تتوان، أطلقت هلاهيل مجلجلة عالية الحس، فرحتها كانت عظيمة بخطوبة ابنتها، هي تعرف بأن مسؤوليتها ستقل بزواج إحدى بناتها، خوفها كان مرضيًا لا يطاق يصل حدود اللعنة.
حضر الخطوبة عاصم وزوجته سمر، عاصم ظل طوال الوقت يقوم ويجلس، ثم يقفز، يغير مكان جلوسه كل عشر دقائق دون سبب واضح مثل شخص يلوب من ألم يجهله، يصرخ، يغني، يطق إصبعتين (•) ويدمدم: آدم سيكون عديلي، سنرى بعضنا ونلتقي بحكم العلاقة الجديدة كثيرًا،زوجتي حبيبة قلبي ستدعو أختها وزوجها ونفرح بهما، نتسامر ونشرب الأنخاب على سعادتهما... وصاح بخبل غير متوقع: يا الله.. أمي تدعو لي، آه.. كم جميل ورائع حينما أكون صديقًا لآدم وقريبًا منه.
انتهى الحفل بلبس خاتمي الخطوبة اللذين اقتناهما آدم من أحد أقاربهم من سوق الصاغة الياهودنكَور الذي يملكون دكانًا فيه دون معرفته بمقياس حجم إصبع أنْهُر، اقتناهما بسعر لم يرض به أخوه نصير لغلائه. وبخّه الأخير وقتها، عنقّه لآئمًا:
- من أين اشتريتهما؟
- من نعيم أبو سامر.
- حسنًا، هاتهما.
أخذهما ولم يعرف آدم ما سيفعل أخوه، رجع له بعد لحظات وهو يرفرف ببعض الدنانير الورقية ويلوح بها ويقول:
- خذ. هذه نقودك التي دفعتها، نعيم هذا لم يستح، أخذ منك أجورًا على صياغة الخاتمين وهذا عيب. كان المفروض أن يقتنع بسعر الذهب فقط ويقول مباركًا، أجور صياغة الخاتمين هديتي لكما، لا أن يأخذ منك وأنت مازلت طالبًا.
ابتسم آدم، شعر بحب كبير لأخيه نصير، ليس لأنه أرجع له بعض الدنانير الورقية المتهالكة العتيقة، بل تصرفه وخوفه ووقوفه بجد أمام قريبهم من أجله، كبر في نظره، خاطب ذاته هامسًا لحظتها "كم عظيم وحنين أخي نصير. على الرغم من

(•) طق إصبعتين: حركة معروفة عند العراقيين يقوم بها صاحبها كما يقوم بها الغجر أثناء الرقص؛ تصدر عن حركة واحتكاك إصبعي الوسطى والسبابة أصوات موسيقية متناغمة جميلة متتابعة لا يعجز عن سماعها المرء لحلاوة نغمها.

تعجرفه واستهتاره ومغامراته وتجلفه أحيانًا، لكنه أثبت لي أكثر من مرة بأنه رجل طيب، أخ يمكن الاعتماد عليه، موافقته على خطوبتنا دليل قاطع على صدقه وحنيته وطيبته، ربما غيّرته أنْهُر كما أدعى ونوه أمام أمي عندما فاتحته بموضوع خطوبتنا، الله عليك يا أنْهُر، تاريخ أسرتنا سوف يحفظ لكِ معروفكِ وفضلكِ هذا". تم تقديم المشروبات وقطع الكيك، ثم بدأ الرجال بالشرب ودق الكؤوس، وآخره كان العشاء، بعد أن قدمت عائلة أم نصير دعوة رسمية لنسائبهم الجدد وحددوا لهم موعدًا لزيارتهم والتحدث عن ترتيبات الزواج القادم. أنْهُر ما انقطعت عن نشر الابتسامات وإطلاق الضحكات وهي تدندن مع وسن عن أشياء لم تجعل آدم رغم قربه منها يسمعها.

• • • •

لم تدم خطوبتهما غير خمسة أشهر فقط حتى حدد لهما موعد زواجهما.
كانت الأيام في خطوبتهما تسير بخطى متعثرة، لم يسمح لهما من اللقاء إلا بتواجد أحد الأفراد من أسرة أنْهُر، وغالبًا ما كانت نداء تحب أن تأخذ هذا الدور وتلعبه، تجلس معهم لصيقة، مقاربه لهما ولا تجعلهما يستطيعان الحديث عن حياتهما أو يقولا أو يتبادلا شيئًا من أسرارهما إلا همسًا، حتى في يوم طقت حوصلة آدم من هذا التصرف الذي تجيد تمثيله نداء بحرفية... اقترح عليهما يومًا الذهاب إلى السينما، هناك ولأن الله يحبهما لم يجدان إلا كرسيين فارغين بجانب بعض والثالث في صف آخر بعيد عنهما، فرحا لهبة الله لهما كي يتخلصان من الرقابة المفروضة عليهما، ولأول مرة يشعران بأنهما أحرار يتنفسان بحرية لا تحسب عليهما نبضات قلبيهما وأنفاسهما الصاعدة والنازلة، آدم لم يكذب خبرًا، استغل انفرادهما، هام بخطيبته، أسمعها من شجونه وشوقه وهو يسقط كلماته في أذنها حتى سكرت أنْهُر بنشوة حديثه الملتهب، قبّلها من صدغها في حين كان الظلام يلفهما مستغلاً الضجيج الذي يحدثه الممثلون.

كانت هذه المرة الأولى التي يتمتع آدم بحريته غير الكاملة مع أنْهُر، وفي يوم كان في زيارة لأهلها، سأل عنها ما أن دخل، أشاروا له بأنها في السطح تقرأ كعادتها، توجه إليها مسرعًا، ألتقط يدها، رحب بها، حضنها بعنف، قبّلها، ذابت هي بسحر

أشواقه، غفت، لم تحرك ساكنًا، كان هذا الشيء الوحيد الذي يعذب آدم، أنْهُر لم تكن تعرف كيف تتجاوب معه في عملية التقبيل، البراءة التي تعيشها كانت سبب جهلها، هو يعرف هذا فحاول معها يدرّبها، يهمس في أذنها عسل الكلام ويقرب فمه من خدها ثم يأخذ شفتيها، يلتهمها، يعضها بحنية، كل ما كانت تفعله التجاوب الصامت، تعطي نفسها، كأنها تقول "خذ ما تريد مني، أنا ملكك، أفعل بي ما يحلو لك". في هذه الأثناء الاستثنائية فريدة الحدوث صعد خلفهما رامون ابن أختها سمر، وجدهما في وضع خجل منه، أراد أن يفرّ راجعًا فانتبهت له أنْهُر، عاطت منكمشة على نفسها وهي تتراجع عن آدم:

- رامون انتظر... ثم حاولا إقناعه أن يخفي سر القبلات التي رآها دون قصد عن الأهل ووعدهم، ثم وفى بوعده. وفي يوم اتفقا على اللقاء في بيت أهلها، أنْهُر لم تكن تحمل مفتاح البيت، نست أن تخبر آدم بذلك، انتظرا في الحديقة، كان الوقت ظهرًا، بحث آدم الذي سيطرت على عقله فكرة واحدة لا غير، يريد أن يختلي بأنْهُر وبأي طريقة قبل حضور أحدهم فيفسد عليهما خلوتهما. اتجه صوب المطبخ من خلف الدار لم يجد ضالته، دار حول الممر الذي يفضي إلى الداخل وإذا به يرى شباك حديدي أبيض الطلاء، لم يكن يقصد أن يحطمه، لكنه ما أن أمسك بإحدى قضبانه حتى تهاوت في يده، استغرب من قوته، أمسك بقضيب آخر، حرّكه، هزّه وإذا به يتخلى عن مكانه ليستقر في يده، وهكذا عمل فتحة استطاع منها الولوج... فتح الباب من الداخل ودخلا... وهما في وضع التقبيل حتى فاجأتهما نداء بدخولها عليهما دون أن تشعر أو تحس ولم تسألهما كيف دخلا على الرغم من معرفتها بأن أختها لا تملك مفاتيح الدار ومضت الحادثة بسلام دون أن ينتبه عليها أحد. مثل هذه المواقف كثيرة الحضور لهما، أخطرها كانت عندما قفصهما أبوها داوود وهما في وضع لا يحسدان عليه في المطبخ. فصاح بآدم مقتضبًا منفعلاً:

- ماذا تنتظر يا بُني؟ قل لأخيك نصير أن يجهز حاله كي تتزوجا بأسرع وقت، وأضاف وهو ينفخ: الستر واجب.

ثم غادرهما، يدق يده بالأخرى متأففًا كأنه يصفق حانقًا ومتذمرًا.

(٢٤)

لماذا لا نريد أن نفيق إلا بعد أن نُطعن بسكين الصراحة؟ ! .

بجرأة تستحق الإعجاب اعترفت أنهُر يومًا لخطيبها برسالة كاوية كالشمع المنصهر أسكنتها لوعتها تفضح فيها حياتها قبل أن تصبح زوجة له، أرسلتها على عنوان كليته، هذا نصها:

حبيبي... يا بسمة على شفاه الأطفال، يا أغنية يرددها العشاق بجذل، يا أغلى ما أملك، ترى، هل أملك منك شيئًا حقًا؟... أنا لا أحب الامتلاك، أنت تعرف ذلك، ما قصدته هو أن أعبر عن فتنتي بكَ وقوة حبي فقط... أحيانًا أكاد أعتقد بإننا ولدنا كي نجن، مهزلة لو كانت الحقيقة هذه!!. انحنيت على طاولتي التي أجهل شكلها، طولها وعرضها المزروعة بالأوراق البيضاء والسوداء والأقلام النائمة وربما الميتة مثلي بعشوائية مجنونة كوجودنا على الأرض، كتبت ما أشعر به لحظتها في ذلك الغبش من فجر الحلم بهوس العقلاء الذين يحيطون بي من وراء كل سنة متّها دون علمي في عالم كان طافحًا بالجمال والخيال الوهمي الذي لا يمكن الوثوق به أو تصديقه:

ويحنا يا حبيبي..

نجيد الصمت ارتجالاً في كل لحظة من عمر زمننا الغارق في فراغ من العبث غير المنتهي خارج أحكام الأزل المتوجس، القلق والخائف من ماضيه الذي يراه ميتًا أمامه، منتصبًا كالرمح كفجري الغائص النائم الحالم في العدم وربما الوهم.

إلى متى نبقى نهرب من الهروب والعجز؟! هذي هي حكايتنا التي نتغنى بها كل صباح بدلاً من فيروز. العراقي لا يطيب له غير الحزن!، لماذا الفرح؟ وشفاهنا لا تحب أن يرطبها غير ملح دموعنا، لا نسكر طربًا إلا لنحيب الأغاني الحزينة، وتهمتنا الوحيدة في سجل قيدنا التي نواجهها منذ قرون هي غربتنا التي ارتكبناها غير المنتهية، سبحان الله، لها شبه كبير من زمننا الغارق في اللهو والفراغ العبثي مثل خيبات أملنا المتتالية والمستمرة!.

صراخ بلا صوت كلغة كوابيسنا. رعب مستعار. وحقائقنا لا تروم النوم إلا بعد أن تضاجع القمر المسكين. حياتنا باتت نتنة كدم المقتول البائت. ما أروع زمننا في فجر الثالثة من الحلم!. يختلط فيه الحزن مع الفزع، يتبادلان الأدوار كصباح ومساء موتنا الذي نحياه حتى الأبد بعد انفجار صدمة صبرنا في أجسادنا، كمناصفة صديقين الموت وجعًا بالفشل والملل.

حبيبي... يا بهجة حياتي وسرها، هل ستحميني مثل مدينة تحرس البحر القابع عند جدارها؟ أراك صافيًا ونديا كالفجر في أول طلوعه، بريئًا ونقيا كدموع الأطفال كقطرات الندى الجالسة بشموخ وكبرياء على أوراق الورود، لا تعرف كيف تخبئ الريح في ثيابك كما يقال، واضح وصريح، لا تملك جلدًا ثان غير جلدك، تكره الرياء والكذب، لا تطيق مدمنوها، تنبذهم، لا تستأثر بصداقاتهم ولا تحب عشرتهم، تهرب منهم أميالاً، أنت كشمس النهار، لا ينكر وجودها حتى الضرير، جريء في العمل خجول في الحياة لا تعبأ أو تحاذر المصير كطبع العبقري، هذا التزاوج الغريب بين الخجل والجرأة جعلك متميزًا وفريدا في أعمالك وحياتك؛... ترى هل هذا التوافق بين الخجل العذري والجرأة القاصمة هو الإنسان بذاته دون رتوش؟ أم هناك نوعٌ آخر نجهل فصله وأصله؟... لكنني وهذي هي قمة سعادتي ونشوتي: أعرفك كما أعرف باطن يدي، طيبتك غالبة على شخصيتك، تعشق الحياة بشكل جنوني وكأنك ستحيا ليوم واحد فقط!... تحاول دائمًا أن تقتنص لحظاتك بدقة خارقة؛... لكنك لا تحاول أن تستغل لحظات سعادتك فقط لتعيشها بكل جوارحك، بل تعيش ساعات حزنك كما فرحك بنفس القوة وعلى ذات الوتيرة، هذا ما جعلني أعشقك حد الهيام والعبادة!...

خذلتني الحياة في موت مبكر كنت أهواه، وهبني الله روحًا أحببتها، قالوا أشركت فلا حب لغير الله!... صدقنا ذواتنا فاكتشفناها ضباب!... الدموع يا نبض قلبي لغة بلا حروف، ليس لها قاموس، مادة لغسل الخطايا العالقة بالروح ، لكن، هل كانت يومًا سبب لحب أو لكره؟!. يمكن تصديقها، التأثر بها، لكنها لا يمكن لها أن تكون حبًا أو تتحول كرهًا؟ هل تحي أو تمنع عزيزًا كتب عليه الموت، أو تأتي على قاتلاً متعديا في غير حينه؟! هل لها القدرة على فعل ذلك؟... مسكينة ورخيصة هي دموع الإنسان...

أقسمت أن أفضي لمن سأرتبط به كل أسراري، أودعه حزني لكي يشاركني حياتي ويحمل جزء من مأساتي... دنيا عجيبة، الحياة يقال عنها ظالمة، الإنسان يخطئ بحق نفسه ولا يعترف بخطئه، ثم يقول متكدرًا: الحياة ظالمة، هل هي فعلاً يا حبيبي كما يصفوها... فاجرة تميل للإغواء وتتصف بالظلم؟!

أشياء كثيرة تحدث لنا، غالبًا لا نجد تفسيرًا لها، لا نستطيع التحكم بها أو اختيار ما يناسبنا منها، كالحياة والموت، الصدفة، الحظ، مكان الولادة وزمنها، والدين أحد هذه الأشياء التي لا يتدخل الإنسان فيها كوجودي داخل أسرتي التي سأحدثك عنها الآن:

هجرت أمي أبي. لكن أبي لم يرضخ لهجرة أمي ولم يطلقها!

أمي لم تتنازل وتترك البيت؛ بل اكتفت بمقاطعته جنسيًا!!

الأسباب التي دفعتها لفعل ذلك كثيرة، أهمها بخله على أسرته، سكره ومعاقرته المومسات اللائي يتردَّدن على متجره، ذلك الذي جعله للرزق وتعاطي المزاج!... عشق أبي الخمر، أحب النساء، وانغمس في الملذات الشيطانية، كأنه متشرد لا أسرة له!... كان أُميًا، عكس أمي التي أنهت دراستها الابتدائية؛ لكنها كانت تعي أشياء وتحسها بإدراك خفي، ضامر... في اعتقادي كانت أفضل كثيرًا من بعضهن اللاتي أتيحت لهن فرص التعليم المتقدم العالي، لأنهن سكنَّ خطواتهن البطيئة وكادت رقابهن تنكسر لكثرة متابعتهن ظلالهن المنهزمة المرتجفة!... إلا تؤمن مثلي بأن الإنسان المتعلم المثقف يكون أكثر عرضة للتناقضات وممارستها بحكم الظروف التي خلقت منه تلك الشخصية أثناء تخطيهم مراحل التجربة ليدخلوا الحياة؟

بمرور الوقت أدمن أبي على أن يكون مع زوجته قاسيًا جدًا، كأنها عدو له!... عاملها بخشونة وفظاظة، وفي أحيان كثيرة كان يضربها ويشد شعرها الحني الطويل، الجميل، برعونة ووحشية، خاصة عندما يجنّ الليل!. في حين اختلفت معاملته معي بالتحديد لسر أجهله، ظل معي رحيمًا، ودودًا، لطيفًا ومبذرًا..

أمي كانت تعلم عن رذائله الكثير، ومع ذلك بقيت له وفيه، رءوفة ورحيمة أثناء النهار... لكن، ما أن يقبل الليل عليها حتى تلبس شخصية أخرى، تضع على وجهها ملامح الحزم والصرامة والعبوس... ربما كنت ألاحظ الكُره يعلو نظراتها، عندما

تزر أبي بعينيها الجميلتين، تراه وهو يعاقر الخمر وحيدًا في غرفة الجلوس التي لا يقبل لأحد شراكته بجلسته تلك مهما حصل!!

تعودنا نحن بناته الثلاث اللاتي لم نتزوج بعد، أقصد، قبل أن تتزوج سارة وتغادرنا، أن نترك الغرفة لحظة دخوله البيت عائدًا من عمله، نختبئ في غرفتنا، ننكمش على أنفسنا مذعورات كالقطط الخائفات رغم وداعته ولطفه معنا وبالأخص معي كما ذكرت. لم تستطع أمي رغم محاولاتها المتكررة أن تغيِّر من سلوكه الشائن ذاك شيئًا... رضخت للأمر الواقع، قبلت بقدرها، ولا أظنك تجهل بأن الأقدار لن تتغير، ألن يختار القدر بلدنا الحبيب العراق؟! ألم يختار أخيك سعيد كما أخبرتني عندما مات بطريقة غير متوقعة؟، بعد أن عرفت تلك القصة آمنت بحسم ما كنت به أعتقد، بأن الأقدار لن تتغير... وما لقاؤنا غير الموعود إلا دليل على ما أقول... الماضي جنازة، جثة حتى لو مرَ طيفها أمام ناظريك لن تنبض فيها الحياة مجددًا، الذكرى زمن مستسلم فائت، تسربت لحظاته من عمر الإنسان، سقطت منه، تسللت، نزفت كما ينزف الرمل القابع في حفنة يديك دون أن تحس به، مثلما ينسحب سارق محترف من مكان جريمته، زمننا يا مهجة قلبي بداية الطوفان الذي سيجتاح الأرض، يغرق الزرع، يطفأ نجمه، يختفى، يتوارى، يخبّ في سماء سحيقة، يضيع، لن يكون له من وجود، هل سيظهر مرة ثانية في سماء العراق يسطع؟ متى؟!

مع الوقت أصبحت أمي لأبي زوجة... لكن، بلا رجل!... زوجة في الأوراق فقط، أمام الناس والمجتمع... في واقع الحال عاشت زاهدة فيه، لا تتمتع بأي حقوق زوجية، وافقت على حياتها تحت وزر القهر والحرمان ذاك... من أجل بناتها وابنها... من أجل حياتهم ومستقبلهم لا غير.

في الليل يتغير لون وجه أمي الأبيض الملائكي... فيبدو أسودَ ممتقعًا، ثم أسمع صوتها اللجوج، اليائس، الخائف يرتفع في أرجاء البيت وهي تنادي وتطلب ابنتها الصغيرة... ليس لأن تقبّلها قبل أن تنام، أو تحكي لها حكاية من حكايات الأطفال، بل لتدعوها أن تتمدد بجانبها، أن تبقى في حضنها، معها في السرير، لتتوسط بين الزوجين، لتحمي الأم من إزعاجات وإلحاح الزوج المهجور!!

البنت الصغيرة كانت تسمع توسلات الزوج وهمساته، أنينه، وشتائمه البذيئة... ثم ترى الأم وهي تصده وتتمسك بابنتها وترصها إلى جانبها بقوة... فتكاد أضلعها الفتية، الرقيقة تنخلع من مكانها أو تتحطم.

الطفلة، تعي، تبكي، تتلوى تحت الغطاء وبين أضلع أمها الدافئة... مدفونة، محبوسة بالآهة والقلق والرهبة، تنظر بعينين بريئتين مكبلتين بالخوف إلى أمها وهي ترى أباها يشد شعرها من فوق رأسها ولا تبدي حراكًا... سوى الكتمان والشعور بالكره والبغضاء لأبيها رغم حبها له لقسوته المفرطة بحضورها القسري!!. كل شيء كان على مرأى ومسمع منها، قبل أن تغفو وتنام وهما لا يدركان.

تلك الساعات البطيئة من الليالي المظلمة، القاسية، الحقودة، المؤلمة التي كانت تمر عليها وهي لا تقوى إلا على السكوت والتقهقر والرضوخ، من أجل أمها. ترعرعت تلك الطفلة بين أحضان التمنع والقسوة، بين جنون وهوس الزوج المهجور والزوجة الزاهدة، البائسة، المحطمة. كبرت الطفلة وأصبحت فتاة في سن الزواج وهي تخاف الليل وتتمنى أن لا يكون أو لا يعود عليها مجددًا!!. عاهدت نفسها بأن لا تجعل حياتها امتدادًا من حياة أمها وأبيها، أن لا تتكرر المأساة في بيتها الزوجي المستقبلي... أن لا تمارس الضغط على أبنائها أو أن تشركهم مأساتها إن حصلت... خاصة، كما تعرف ما تعرضنا له من قِبل أهلك قبل رضوخهم لطلبنا ورغبتنا في الارتباط، ورفضهم غير المبرر حسب تصوري بسبب السمعة التي تناقلتها الألسن عن علاقة أمي وأبي التي يجهل تفاصيلها الأقربون!. وأسألك: من منا بلا خطيئة؟!
هل تعرف يا حبيبي من تكون تلك الفتاة؟... أنا... بلحمي وشحمي ودمي وذكرياتي التي أسردها لك!!. ومن أجل ما ذكرت، أخبرك.

ثم ذيلت رسالتها بتوقيعها الجديد الذي اختارته بعد خطوبتها بحرفين من اسميهما باللغة الإنكَليزية يعلوهما خط مخربش ليس على استقامة واحدة بعدها يحضن الحرفين لينتهي من فوقهما مقوسًا كخيمة تظللهما... وهي في غاية السعادة باختراعها توقيعها الجديد!.

(٢٥)

وصلته الرسالة التي أرسلتها له أنْهُر إلى جامعته، كُتب اسمه في لوحة إعلانات تسجيل الكلية كالعادة المألوفة عندما يصل بريد لأحد الطلبة، استغرب آدم من وجود اسمه، قال يخاطب نفسه "مِمنْ تكون؟ أضاف: لم يحدث هذا الشيء من قبل معي. لم يرسل لي أحدهم يومًا رسالة على عنوان كُليتي". قطع خيط تأملاته، اتجه نحو تسجيل الكلية، كانت هناك سيدة في الأربعين متوسطة الجمال يعرفها، الغرفة التي احتوتها كانت خلابة لا يكسر سكينتها إلا صوت المروحة الكهربائية المعلقة في السقف تدور ببطء رتيب ممل يزهق الروح، رحبت به وسألته عن حاجته، قال:

- وجدت اسمي موجودًا في لوحة الإعلانات تشير بأن هناك رسالة لي.

- لحظة... نهضت. اتجهت نحو ركن في الغرفة التي لا تحوي غير طاولتين وكرسيين ورفوف من الخشب مليئة بالملفات، والمروحة المشنوقة المتدلية من السقف. بحثت وسطها في صندوق كارتوني أسمر متهالك، أخرجت منه ظرفًا، رجعت وهي تسلمه الظرف قائلة:

- تفضل.

نظر به، تفاجأ من أنه كان مفتوحًا، سألها:

- هل عندكم تُقرأ الرسائل التي تصل الطلبة قبل تسليمها إليهم؟

خفضت بصرها، عُرفت بخجلها وخوفها، وجودها في مكان إداري حساس في الجامعة يمثل لها رعبًا حقيقيًا مستمرًا، ارتبكت من سؤاله، احتارت كيف تجيب، تخلصت من ترددها وهي تقول مقتضبة:

- يمكنك أن تتوجه بسؤالك إلى مدير التسجيل دكتور "ج. ح".

- نعم، سأذهب إليه، خاصة وأنا أعرفه شخصيًا، لا يجوز فتح رسائل الطلبة والتجسس على خصوصياتهم...

قاطعته متوسلة وبصوت خفيض كالهسيس:

- أرجوك آدم، لا تقل هذا الكلام هنا بصوت عالٍ، خذ حذرك، لا نريد مشاكل من أي نوع، الموضوع لا يستاهل، لن يتغير شيء بقولك.

أضافت وهي تبلع ريقها من الخوف:

- انصحك بأن لا تذهب إلى مدير التسجيل!.

خرج وهو من الغضب في نهايته، قلّب الرسالة، وجدها من أنْهُر، استغرب، خاطب نفسه "لماذا تكتب لي ويمكنها قول ما تريد بنفسها؟ هل هناك شيء خطير يصعب عليها مواجهتي فيه فقررت كتابته تخلصًا من الإحراج مثلاً؟! ربما، وربما لسبب آخر". احتار من أمرها، لم يتوصل إلى قناعة أو سبب يرضيه، رفعها أمام عينه، قرر الاختلاء لقرائتها والغوص في أعماقها، فضلَّ الجلوس في نادي الطلبة بعد أن وجد ركنًا خاليًا، فتح الظرف المفتوح أصلاً دون عناء، المدعوك شفاف الورق أسمر اللون أطرت حافاته بمربعات مائلة ملونه بالأزرق خاصة للبريد الجوي، أخرج منه الرسالة التي كتبت على ورق مدرسي، وبدأ يقرأ ما جاء فيها بعناية فائقة مأخوذ اللُب.

• • • •

انهى قراءتها. وجد نفسه يبكي دون إرادة. لم يخجل لحظتها من بكائه وسط الطلاب وهو في جلسته بنادي الطلبة. لو كان واعيًا على نفسه لما كان له أن يفعل ذلك، خجله طاغٍ على تصرفاته، لا يجرؤ على رد فعله ذاك لو كان في حالة أخرى أو في ظرفٍ آخر. تأثره بصدق وعذاب أنْهُر في حياتها داخل أسرتها جعلته يبكي ويذرف الدموع رغمًا عنه... خرج من النادي يتخبط بمشيته وهو يشعر باختناق كسجين يسوره الجبل، كراهب هدم ديره بيده مرغمًا... وشّحه الحزن، عّمده الألم، رنّت في قلبه الخيبة، صعبت عليه نفسه، لم يعد يفهما كأنها شكل من أشكال المستحيل... وحالته كانت تبدو سائرة إلى طريقين، إما الموت أو الجنون.

لم يحصل من هذين شيء، ما كان يشعر به لحظتها من ألم جعله يوافق على تقديم موعد زواجه وهو مازال في سنته الثالثة من كليته.

• • • •

(٢٦)

ما أتعس وأبشع الحروب؛ خاصة عندما تكون خالية من المعنى،

وما يزيدها تعاسة وبشاعة الذين يتباهون بأقوالهم وتصرفاتهم على أنهم حماة الدين والوطن

على حساب الضمير والأخلاق والقيم.

في إحدى مساءات أحرّ أشهر الصيف في العراق القاتل الحرارة كانت السماء حزينة، غريبة أن تكون السماء في ذلك المساء غير ضاحكة ونورها خابيًا، باهتًا كأنه مسلول والمذياع وأجهزة التلفاز تعلن صادحة عن نهاية الحرب بعد أن خلّفت نحو مليون قتيل، وخسائر مالية بلغت أربعمائة مليار دولار أمريكي فقط!، دارت ثماني سنوات لتكون بذلك أطول نزاع عسكري في القرن العشرين، وواحدًا من أكثر الصراعات العسكرية دموية، أثرت الحرب على المعادلات السياسية لمنطقة الشرق الأوسط وكان لنتائجها بالغ الأثر في العوامل التي أدَّت إلى حرب الخليج الثانية(•).

ضربت أجراس الكنائس نفسها اغتباطا بالمناسبة، استباحت المساجد لنفسها حرية التعبير فحفزت الناس على الدعاء والصلاة لأجل الله الذي تدخلت إرادته كي تجعل أطراف النزاع أخيرًا يركعون لنداء وصوت السلام. كالعادة في الشرق عندَ الحزن أو الفرح، ارتفعت الطلقات النارية الصاخبة عاليًا تبتهج كالزغاريد في الهواء. خرجَ الشعب إلى الشوارع يعبر عن سعادته وفرحته. آدم لم يكذب خبرًا، قَبل دعوة أخيه مجيد. هّما راكضين لا يعرفان إلى أين، الظلام لم يخيم بعد، دقائق من الجري بعدها شعرا بالتعب، السيارات كانت تسير بسرعة، أيدي أصحابها لم تتوقف عن إطلاق صفير أبواق سيارتهم، أحدهم كان يجلس في صندوق سيارة وهي تسير

(•) هذه المعلومات كتبتها الصحف ووسائل الإعلام عن الحرب بعد سنوات من انتهائها

مقرفصًا كما يجلس القرد محتضنًا بندقية يطلق منها بقرفصته إطلاقات تصم الآذان وهو يكركر مغتبطًا بما يفعله، غدت الشوارع في هرج ومرج، الناس على الأرصفة، هناك من يرش الماء على المارة كيفما أتفق، آخرون يرقصون رقصات شعبية ويدبكون متكاتفي الأيادي، أصبح العراقيون فجأة كتلة واحدة، لا تستطيع أن تميز سنيهم من شيعيهم، مسيحيهم من صابئهم من يزيدهم، الكل يرقص ويغني ويضحك وبعضهم يلعن الأيام السوداء التي مضت وهم يشعرون بانفراج أزمتهم وانفتاح حياتهم على العالم من جديد مؤمنين بأن الأيام القادمة ستكون أكثر سعادةً واستقرارًا بعد تلك السنوات العجاف التي حرقت الأخضر واليابس.

لم يكتفِ آدم بالفرجة، سأل مجيد، دعنا نذهب إلى ساحة الاحتفالات، استقلا تاكسي، الطريق كان مزدحمًا، الطلقات النارية تصدح من كل جهة، لا أحد يعلم من أين تطلق، الحرب انتهت، من يصدق؟!. هناك في ساحة الاحتفالات كانت سيارات أمريكية الصنع تجول المكان بشكل مسرع، بعض من مستقليها كان يطلق عيارات نارية مدوية، قالوا، هذا ابن الكايزر وحمايته جاءوا يحتفلون بالمناسبة، هربت السيارات واختفت كما ظهرت. في الليل رجعا وهما يشعران بالتعب حد الإغماء. المذياع ما انقطع عن الهذيان مرددًا "هلهولة للحزب الصامد، هلهولة(•) "... كانت ليلة غير كل الليالي.

• • • •

ما أن دخلا بيتهم حتى سمع آدم صوت الهاتف يرن؛ رفع السماعة، وجد أنْهُر من الصوب الآخر من بغداد على الخط تبارك له نهاية الحرب، قالت:

- سنتزوج قريبًا جدًا.

- بالتأكيد، ستكون فرحتنا مضاعفة.

- هذا ما قصدته.

- ماذا تفعلين عندك؟

(•) هلهولة : زغرودة

- أرقص!.

- كيف وأين؟

ضحكت بعذوبة، أدركت:

- في البيت طبعًا، بالتحديد في الحديقة، الناس كلهم في الشوارع يحتفلون.

- أعلم هذا، لقد كنت في المنصور للتو مع مجيد ورأينا سيارة ابن الكايزر والأخير يطلق النار في الهواء مع حمايته ابتهاجًا.

- والله عال، تذهب لوحدك؟

مراوغًا مازحًا:

- لم أكن لوحدي، كان أخي معي كما قلت!.

- أعرف، ما قصدت هذا، ذهبت من دوني!.

- لم يتبق غير القليل، ثم لن أتركِكِ يا ملاكي.

ضحكت مجددًا.

أغلقا الخط بعد أن تمنت له ليلة سعيدة وأحلام وردية تناسب الحدث.

• • • •

من حق العراقي أن يقول: لا مكان بعد في الجسد لطعنات أخرى جديدة، فنحن نعمل، نأكل، نشرب وننام كل يوم بمعجزة.

موت عمه أبا جليل أخّر مشروعه في الزواج أشهر، لم يتوقع حدوث مثل هذا المصاب لهم. وصلهم الخبر بسرعة عن طريق الهاتف، جليل كان يبكي بصدق وهو ينقل خبر وفاة أبيه لعائلة عمه. أم نصير استغفرت ربها، قالت: الموت حق، لحق بأخيه، وهناك سيلتقيان. أحبهما الله فأخذهما بقربه. من ذا يستطيع أن يؤخِّر لحظة أو يقدمها عندما يحين وقتها؟. بيده سبحانه كل شيء، يعطي ويأخذ بأمره وبه مؤمنين. ثم نادت آدم الذي كان ساعتها نائمًا، الجمعة يوم راحتهم. ينامون حتى ساعة متأخرة من النهار، هذه فرصتهم، يعملون ستة أيام في الأسبوع وفي سابعها يرتاحون، يخلدون للنوم والاستلقاء والترويح عن النفس، الله خلق الكون بستة أيام

ثم استوى على العرش، ارتاح في يومه السابع، يوم الراحة يوم مقدَّس، الأديان قالت هذا.

استيقظ آدم على كلمات أمه وهي تناديه بتوتر. نهض متثائبًا والنعاس يلاحقه متسائلاً:

- ماذا هناك يا أمي؟ اليوم جمعة، دعيني أنام قليلاً.

- كيف تنام وتستريح وفي بيت عمك عزاء؟.

جفل، نهض من سريره متوثبًا، صاح:

- عزاء!، ما الذي حصل؟

- تلقيت للتو من ابن عمك جليل خبر وفاة أبيه.

- متى حصل هذا؟

- اليوم فجرًا، عليك أن تستعد لأيام ستكون ثقيلة علينا، أنت تعرف قصدي!.

سهب، ضاع فجأة في لُجة التأمل، أمه نبهته إلى ما سيؤول إليه حاله، عرف بأن مشروع زواجه سيؤجَّل لا محال، أعرافهم تقول هذا، تقاليدهم لا تسمح بالفرح بعد الموت، عليهم أن يموتوا حزنًا ثم يفرحوا!.

تنهد، ذهب لغسل وجهه، سألها أن أعطت خبرًا لأخيه نصير، قالت: بلى، وأضافت: على الرغم من إني لم أتحدث معه، كما تعرف، ربما نام متأخرًا بسبب سهرة سُكر حتى الفجر، أخبرتُ مقبولة بالخبر، امتعضت، واستتني بكلمات خرجت من ظهرها وليس من قلبها، زوجة أخيك أنت تعرفها، لا تهتم إلا بأمورها... تابعت: ما علينا، افطر وحضِّر نفسك كي نذهب إليهم معًا...

لفهم الحزن، لبسوا السواد من جديد...

ترى، هل حياة الشرقيين هي هذه بلا مساحيق؟!.

• • • •

في اليوم الثالث من موت عمه كان العزاء قائمًا تصدعه الصرخات، رأى آدم أمه وهي تلطم خديها وتضرب صدرها بيديها بقوة، تذكر الموقف ذاته عندما كان طفلاً لا يفهم للموت من معنى ليلة ممات أبيه، كانت أمه تفعل الشيء ذاته، خاف ساعتها

على قفصها الصدري من أن يتحطم، حزنها وجده غريبًا، تعبيرها عنه عجيب لم يكن يعرف لماذا تفعل هذا أمه بنفسها، بكى لمنظرها وليس لوفاة أبيه، هو يذكر تلك اللحظات جيدًا، يعيد شريط ذكرياتها كلما تكرر منظر الموت أمامه وهو يرى النساء وخاصة أمه تضرب صدرها وتلطم خديها بهذا الشكل المنفعل، الصارخ الذي يؤلمه حد البكاء الأخرس. عندما كبر تغيرت نظرته للأشياء، خاطب نفسه وهو يرى أمه تلطم ربما لتفرغ شحنة حزنها في عزاء أخ زوجها "مسكينة أمي، تعتقد بأن الحزن بكاء وليس تأمل أو رثاء. لطم وليس صمت وسكون. نحيب وصراخ وليس خشوع وتذكر دون نواح". بغزارة ذرفت أمه الدموع، مرة أخرى يرى الدموع تنهل من مآقي عائلته، ذرفتها أمه عندما وقفت فوق رأسه توقظه من نومه لتخبره بوفاة عمه. صاح بصوت مرتجف أثناء تأمله الطويل وهو ينظر بطرف خفي إلى أمه الملتهية بالتعبير عن حزنها بطريقتها الشرقية الخاصة: آه... يا دموع الحزن كم أنتِ سخية!.

(٢٧)

هل صحيح أن الموت يأتي مع الإيمان؟ !. العمل الكثير ولا الفراغ المثير،
والأخير لا يؤدي إلا إلى الإدمان وامتهان توافه الأمور.

في الشتاء الأخير ما قبل هروبه الذي لم يعد منه إلى وطنه مجددًا، قرر آدم أن يضع حدًا لتأخير زواجه، كان كل شيء جاهزًا إلا موافقة بيت عمه. مضى على وفاة رجلهم خمسة أشهر وهم لا يضحكون. الموت في الشرق مصيبة. يعني نفش الشعر. تلطيخ الوجه بالطين والتراب. الامتناع عن الطعام لأيام طويلة. الحزن يكون مرادف للحياة. الأسود هو اللون الباقي الوحيد في الكون. لكن، ما الصدق في كل هذا؟ كيف يعيش الشرقي مع داخله؟ هذا هو السؤال الذي طالما بقي يؤرق آدم لأسابيع وأشهر. كان يرى النقيض ويسمع عكس ما يرد منهم، يقولون نحن حزانى ونرثي موتانا، في حين يرى ابنهم جليل يسكر، يقامر ويغامر مع أخيه نصير كل يوم تقريبًا ثم يمنعونه من الزواج والاحتفال!. كم أرقتّه وعذّبته تلك التناقضات. صهرت بداخله مقاومة ضدها، قوّت عوده كما يقال، بات أكثر جدية في تعاملاته مع الآخرين، حدّي حد الصدام والنفور، دقيق جدًا ولا يقبل بالخطأ، جعلته ببساطة يكون أكثر نقاءً وصدقًا، تعاطفًا وحبًا للجميع، إحساسه الرقيق المرهف ساعده على ذلك، شخصيته الخجولة، حبه للوحدة وعشقه للتأمل خلقت منه إنسانًا بحق يحب الله وقريبًا منه حد التلاصق الروحي. ظل هكذا لا يقبل على نفسه يومًا أن يضحك مواربًا أو يبكي مخادعًا.

• • • •

اقتنى بمساعدة أنْهُر غرفة نوم بيضاء مطرزة بالزهور بطلب خاص منهما، رحب صاحب المحل بذلك، رفع الأخير يده فوق رأسه ثم خفضها على صدره تعبيرًا عن

امتنان، هذه النغمة أو الطريقة التعبيرية لم تصادفهما فيما بعد في حياتهما القادمة، قال صاحب المحل:

- كل شيء يمكن فعله. نادى الرسام من ورشته وأوصاه أن يستمع لطلبهما، حضر الأخير وهو يرتدي صدرية بيضاء كما يرتديها الصيدلاني، سجل على ورقة كانت بحوزته ما قالاه له ثم انسحب باحترام زائد، دخلت في هذه أثناء سيدة في الأربعين، كان مظهرها يدل على الثراء، تحدثت فبان عليها الرياء، ظهر جليًا، لا تقف في مكان بعينه، دائمة الحركة، تلف حول نفسها إذا أرادت الثبات، القلق كان مسيطرًا عليها بشكل كامل، اتضحت معالمة من رعشة أصابعها، من دورانها وعدم استقرارها، حديثها الناري، سرعتها، مباغتتها، تدخلها دون سابق إنذار... كلها أمور توحي بأن هذه المرأة لابد أن تكون مريضة نفسيًا... قالت لهما دون مقدمات بصوت خفيض كأنها خائفة من شيء:

- هل تريدان أن تشتريا منه؟

مقتضبًا أجابها آدم بعدم رغبة لتدخلها المفاجئ دون إذن:

- نعم.

جوابه شجعها على الجسارة:

- أحذركما، فصاحب المحل رجل دجال. غير صادق، يأخذ العربون منكما، ثم ينساكما، يصور لكما بأنه لا يعرفكما، أسألاني أنا، لقد جربت التعامل معه، طلبت منه أثاثًا ولم يصدق معي، ستريانه على حقيقته البشعة، ما أن يأخذ مالكما، حتى تبدأ معه رحلة المماطلة التي لا تنتهي إلا بسواد وجهه، لن تأخذا منه لا حقًا ولا باطلاً.

ابتسم آدم لوصفها، حاول التمويه ولم يقدر، خنق ضحكة لو أطلقها لجلجلت المكان، أدار ظهره لها كي لا يريها ما كان محشورًا به من ضحكة صك عليها محاولاً خنقها كي لا تصدح، ساعدته أنْهُر متدخلة وهي تقول:

- المسألة قد تختلف من شخص لآخر، ثم نحن لا نعرف أوليات تعاملك معه، لا يحق لنا التدخل في خصوصيات الناس. أنْهُر قرصتها بقولها لوقاحتها وزجّ نفسها فيما لا يعنيها. في هذه الأثناء ظهر صاحب المحل، كان شابًا لم يتجاوز سن العنفوان، سمينًا، بشاربين غليظين وكأنهما لقروي، مرح الملقى، ربما تجارته في

بيع الأثاث علّمته ذلك، لكن والله أعلم تراءى لهما كشخص غامض، لا تعرف طبيعته أو حقيقة مشاعرة بسهولة إلا بالتخمين، في وجهه تعبير عن رضى أو شكر للدنيا لم تصل أنْهُر إلى قناعة على ماذا عندما رأته ونظرت إلى محياه... حاورت نفسها"

الحرب انتهت كأنها مازالت مستمرة، الاقتصاد راكد، البطالة تحولت إلى مسألة ذوق وليست مشكلة أو مرض خطير يشل حركة المجتمع من التقدم والتطور. الدينار لم يتحسن ولم يسترد عافيته. الأمنيات باتت لعنات والحياة أصبحت لنا شر أفظع من الموت ذاته "!. أنْهُر لا تقصد الأمنيات الكبيرة كالاستحالات والمعجزات مثلاً، بل الأمنيات البريئة الضرورية لإدامة الحياة دون امتهان لكرامة الإنسان والنيل من إنسانيته، أمنيات نظيفة، لا تحمل في معناها أكثر من أن تكون لقمة في فم جائع معدم يسد بها رمقه، أو في يد راغب كتاب يقرأه، أو درهم مخبأ في طيات ثوب أم لتبتاع شيئًا تستر به عري أولادها... هذه كانت أمنياتها!.

يقع المتجر على حافة مرتفعة نسبيًا من شارع في منطقة الصالحية، أُعجب آدم بخطاب الرجل ومرحه، استغرب عندما قارن بين انطباعه الأولي عن الرجل وبين ما سمعه عنوة لتوه على لسان المرأة السليط، ثم رآها وهي تغادر المحل بخُطى واسعة وبعصبية واضحة بعد أن تحدثت مع صاحب المحل بضعة كلمات جهل فصلها، ثم صفقت الباب بقوة وراءها. صاحب المحل ارتبك لتصرفها، حاول أن يكون هادئًا، لم ينجح في كبح توتره، اقترب آدم منه بصدق، قال:

ـ تلك المرأة قالت عنك كلامًا غير محبب يتعلق بعملك.

احمرَّت أذناه ما أن سمع ذلك، امتقع، قأقأ كدجاجة في مؤخرتها بيضة:

ـ لا تصدقاها، هي نفسها لا تعرف ماذا تريد، كل يوم تأتي وتغيِّر رأيها فيما طلبته في أمسها، قمنا بتبديل لون الأثاث ثلاث مرات ولم ترض أو تقتنع، ما جعلها تأتي اليوم إلا لهذا الغرض، طلبت مني أن أغيّر ألوان بعض الخطوط التي اتفقنا على وجودها البارحة، هكذا هي، ماذا أفعل تجاه زبون متقلب المزاج والرأي مثلها؟ ثم سأل آدم كمن يستقرئ دخيله كقارئ كف في جلسة دجل، محاولاً عدم قطع الأمل، فدافع عن سمعته كما دافع المتنبي عن شخصه في شعره:

ـ قل لي أنت، لو صادفك هذا الموقف ماذا تفعل حياله؟

بوجدان صادق حقيقي كحقيقة الوجود:

- أنا أحب الصراحة والوضوح، ما نتفق عليه اليوم يكون ساريًا وكلمتي سيف على رقبتي.

- وأنا كذلك.

- اتفقنا إذن...

بعد رؤية بعض قطع الأثاث المنتصبة كنماذج داخل المحل الواسع، أعجبهما اللون الأبيض، فاتفقا معه على أن يكون أثاث غرفة نومهما أبيض على أن ترسم بعض الزهور على أبواب خزانة الملابس وتاج السرير، صوّرتها له أنْهُر من خلال كلامها بطريقة سهله رسمها الرجل عن طيب خاطر جميل خاصة بعد أن رآهما في عمر صغير وهما مقبلان على الزواج، حتى أنه تساهل في السعر، نقده آدم مئتي دينار كعربون، على أن يتم إنجاز العمل خلال أسبوعين ليعطيه باقي حقه البالغ ألف.

خرجا من المحل والأرض لا تحملهما من سعادتهما الغامرة التي غرقا بها وهما يشعران بالنشوة التي لا يمكن وصفها.

• • • •

نشاط أنْهُر في تجهيز عشهما الزوجي القادم كان على قدم وساق، طلبت من آدم أن يقيس لها طول وارتفاع شباك الغرفة التي سيتزوجان بها في بيتهم. اشترت القماش من السوق القريب من منزلهم بعد أن أخذت رأي خطيبها بالألوان التي يحبها وتكون مكملة للون الأثاث، وافقها دون جدال، قال: افعلي ما ترينه يا دميتي، لكِ مطلق الحرية، ذوقك الجميل لا يناقش بشأنه، هكذا حسم أمر الشراء.

بدأت بمساعدة أختها نداء التي كانت الأخيرة تحب الخياطة وعملها في مصنع العطيفية زادها مهارة، أصبحت مع الوقت تجيد المهنة بشكل رائع، لكن أنْهُر أصرّت أن تقوم هي بهذه بالمهمة مع السماح لأختها بأن توجهها، خاطت الستائر بطريقة ذكية مبتكرة، هي تعرف خطيبها، سيكون سعيدًا بما تصنعه، همها أن تدخل البهجة إلى قلبه، لا تخطو خطوة واحدة دون أن يكون في ذهنها هذا التوجه، سعادة

آدم كانت برنامج حياتها القادم، كل ما تفعله، بل قبل أن تفكر، تضع آدم أمامها ثم تخطط.

اتفقت مع بعض النسوة من خلال أمها بأن تدخل في جمعية، كانت في نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم الأمر مألوف في الكثير من الأحياء البغدادية، أن تشترك النسوة بمثل هذه الجمعيات التي هدفها أن تدفع كل سيدة مبلغ متفق عليه شهريًا، ثم تجمع تلك المبالغ وتعطى لمن هي بحاجة ماسه له، وهكذا تدار الحلقة وكل شهر تستلم سيدة حصة ما جمع من الأخريات، وبقدرة بدرية وعلاقاتها الواسعة استطاعت أن تحصل لابنتها على أول دفعه من هذه المبالغ بعد أن أقنعتهم بضرورة وحاجة ابنتها لهذا المال بسبب زواجها، وهكذا أصبحت في يدي أنْهُر مبلغ محترم فاق السبعمائة دينار قدرت أن تتسوق به وتجهز عشهما الجديد بما يلزم.

عندما سمع آدم بما فعلته أنْهُر، هذه الفتاة الصغيرة التي لم تتجاوز العشرين بعد، وما تفعله من أجل حياتهما وسعادتهما... نشر خبر أعمالها بين أهله، أمه قالت: فتاة مدبرة كأمها. نصير اكتفى بأنه ضحك ضحكة مقتضبة فهمها آدم تعبير عن رضى وفرحة. وهكذا، اقتنت أنْهُر تلفازًا وثلاجة، وذهبت - دون أن تخبر آدم كي تعمل له مفاجأة - إلى صاحب محل الأثاث بمفردها وطلبت منه أن يصنع لهما مكتبة بيضاء مطرزة بالزهور لتضم فيها كتب حبيبها المبعثرة، التي فاق عددها المئات... كانت تلك أجمل هدية لآدم وأروعها في نظره لما عرف عن ميله وحبه المجنون للكتب. تلقت أنْهُر من وراء هديتها بعد أن أخذت المكتبة موقعها المناسب في الغرفة حقها منه قُبل لا تعد ولا تحصى. كانت أثناءها وهي تتلقى القبلات تضحك كموج البحر، فخورة سعيدة بفعلتها.

• • • •

هلك آدم ولم يجد قاعة يحتفل فيها بزواجه. ثلاثة أيام ظل يدور دون فائدة. سأل أكثر الأصدقاء، حاول أخوه نصير هو الآخر دون نجاح يذكر، كل القاعات إما أن تكون محجوزة، أو إيجارها باهظ لا يقدر عليه وهو الذي مازال طالبًا جامعيًا. في كل يوم

يتفق مع صديقه جبار الذي لم يتركه لحظة في بحثه دون نتائج تسر قلبه، أنْهُر تتصل به كل مساء وجوابه كان لا يتغير: صفر اليدين. حتى برقت فكرة لجبار، سأله مندفعًا بحب المساعدة وبقدر الوفاء النقي الصادق الذي يحمله لصديقه:

- هل جربت وسألت نقابة المهندسين الزراعيين؟

نظر له بارتياب، أجاب:

- الحقيقة، كلا. أضاف مستفسرًا:

- أنا لست مهندسًا زراعيًا فكيف أطلب منهم ذلك؟، جربت مع نقابتنا وكانت الأسعار شائطة، لا أقدر على التقرب منها.

- هكذا إذن. نسيتني يا ناكر الجميل بكل سهولة، ثم مماحكًا: يا خائن لم أتوقع بأن تخونني بهذه البساطة، ألم تعلم بأنني أستطيع حجز قاعة نادي النقابة باسمي؟، تابع متمردًا كعفريت خرج لتوه من قمقمه: نحن الآن في بداية آذار، لا يحب الناس الزواج في مثل هذه الأوقات، أغلبهم يفضلون الصيف، إلا أنت وأنْهُر، مغرمان بآذار، لا أعرف لماذا، هذا يعني، بأننا بكلمتين مني أقنع رئيس الهيئة الإدارية لنادي المهندسين الزراعيين الذي تربطني به معرفة شخصية أن يعطينا القاعة بالوقت الذي ترغبه!.

قافزًا، صائحًا والفرحة تنطُّ من وجهه وهو يطق يدًا بيد مصفقًا:

- أين كنت بفكرتك الجهنمية هذه. رائع أنت يا صديقي الجميل جهبهار الجبار الذي لا يهاب الحب ولا الشمس ولا النار. ماذا ننتظر هيا بنا.

فترة قصيرة حتى كانا قد اتفقا على حجز قاعة نادي نقابة المهندسين الزراعيين المحاذي لساحة النسور وسط بغداد، نقد رئيس النادي أجرة الحجز كلها بعد أن رفض آدم تقطيعها إلى جزئين لفرحته ورخص إيجارها الذي لم يتجاوز الثلاثمائة دينار في حين كان مستعدًا لدفع الضعف مرتين لقاء أي قاعة أخرى سيجدها. هكذا تم الاتفاق وسجل عقد الإيجار، ليلة الثالث والعشرين من آذار سيكون يوم زفافه كما كان يوم خطوبته كما هو تاريخ لقائه بأنْهُر في أول مرة عندما رآها في منتجع الحبانية بعيد الخليقة بالصدفة.

• • • •

خبر مثل هذا جعل أنْهُر فرحة وفرحتها كانت غير عادية كشظية كونية منطلقة في الفضاء الحر الرحب، برق لها آدم الخبر وهو مازال في الطريق مع صديقه جبار من هاتف عمومي كان يقف على حافة رصيف إحدى الشوارع كالتمثال. بعد أن أخبرها قال يسر ذاته "شعرت أنْهُر بسعادة، سمعت نبضات قلبها وهو يدق بقوة، ما أجمل وأعظم أن تكون المرأة في الحياة سعيدة، لو حصل هذا لأنتفى الظلم والقهر والحرمان من على الأرض". ما أن تم حجز القاعة حتى بدأ بالخطوة التالية، البحث عن فرقة موسيقية غنائية تحيي الحفل.

لم تكن قصة الفرقة الموسيقية مربكة له كثيرًا، حيث فاتح زميله في الكلية فؤاد الذي يعرف تمامًا بأن له ميول موسيقية والمقدرة المتمكنة للعزف على الأورك، وعده الأخير خيرًا، ساعات قليلة حتى كان قد قدم له عرض جميل لفرقة موسيقية غنائية تمثل مجموعة من أصدقائه محترفة الحضور وأحياء الحفلات بسعر رمزي يتناسب ووضع آدم المالي وتم الاتفاق.

• • • •

أحرز خلال اليومين الفائتين تقدمًا ملحوظًا في تجهيز أغلب مستلزمات الحفل. نظر في قائمته، وجد الخطوة التالية التي تهتم بالحلوى والمشروبات الغازية. رفع سبابة يمينه على حنكة يحكه متأملاً، كان في غرفة المعيشة وقت العصر، أمه وظفر زوجة مروان ووسن ابنة أخته وأمها قمر كانت أيضًا موجودة معهم وسلوى حاضرة تنتظر إشارة منه كي تساعده وتقدم خدماتها. الأخيرة كانت تحبه حبًا خاصًا، حب فنان لزميل يشاطره الوعي الفني. غالبًا ما كانت أخته ترغب باستدراجه في الحديث، تبدأه عن الدراسة ثم تعرج نحو الفن والأدب... يعجبها جدًا أسلوبه في النقد. تقول عنه: حاذق فيه. وجد الجمع مجتمعًا، قال خاطبًا كإمام:

- كنت أفكر بالحلويات والمشروبات الغازية. في الحقيقة أنا لا أفهم في موضوع الحلويات، أتمنى من يأخذ على عاتقه هذا الموضوع ويشتري ما يناسب الحفل من حيث الكمية والنوعية، ثم مط كلمته: ولا تنسوا الأسعار، وأضاف بعد وقفة وهو يمسحهم بنظره: جيبي بدأت حمولته تفرغ كلما اقترب موعد الزفاف...

ضحكت أمه، جاوبتها ظفر الملهوجة بشهقة طقت بها طبلة أذن عمتها التي كانت تجلس بقربها، كان لصوتها قدرة على تهجير سكان مدينة بكاملها، نهرتها، قالت لها:

- لماذا تصرخين؟!، ردت ظفر عليها ناطة:

- أنا... أصرخ!، هي.هي... هيي... ولم ترد إلا بقهقهات بعد أن انقلبت على ظهرها بسببها. تدخلت قمر بهدوء معروف:

- أعطنا مائة دينار، سأتكفل بالموضوع بمساعدة وسن وسلوى، سنذهب غدًا باكرًا إلى الشورجة(•) ونشتري كل ما يلزم، لا تقلق، اعتبر المسألة منتهية. أضافت: ماذا عن المشروبات الغازية؟ ألم تتفق مع النادي الذي حجزت قاعته عنها؟.

- لم يفتني ذلك، سألتهم رفضوا، قالوا الكمية التي بحوزتهم لا تفي بالغرض، لذا علينا أن نتهم به، ثم خطر له خاطر، قال: سأسأل صديقي جعفر، لديهم كشك صغير بالقرب من بيت جبار شريكي العتيق، صاح منفعلاً وهو يصفق يده بركبته: آه... كيف نسيته، سيتدبر أمر المشروبات بلا شك، جعفر وأعرفه، سيفرح لأنني أطلب مساعدته من جانب وأن أشتري منه كل ما في حوزته من صناديق المشروبات الغازية، أحتاج لربما إلى أربعين صندوقًا، ختم جولته الكلامية: سأغير ملابسي فورًا وأذهب إليه.

(•) الشورجة: سوق عريق وسط بغداد يباع فيه كل أنواع البهارات والمكسرات والحلويات

(٢٨)

قبل أن يطلّ على دكان جعفر؛ عرج إلى بيت صديقه جبار وأخذه معه. الحقيقة أن كشك جعفر لم يكن دكانًا بمعنى الكلمة، كان مجرد غرفة أشبه بالكهف ظلماء، لا يدخل إليها ضوء ولا يجري فيها ماء، أرضها سخباء، رطبة طوال السنة عارية من أي بلاط. لها فتحة تطل إلى الخارج على شكل مشبك حديدي يشكو الصدأ، لم ينفع معه طلاء، ومنه يمد يده جعفر للبيع والشراء.

تأخذ أمه العجوز على عاتقها العمل داخل الكهف في النهار أثناء غياب ابنها الذي يدرس في كلية الآداب الجامعة المستنصرية وهو من دفعة آدم، تخرجا معًا من السادس الإعدادي الفرع العلمي كما جبار. وبعد الظهر يتولى أمر البيع والشراء وغالبا ما يكون السرداب بؤرة اللقاء وتجمع الأصدقاء عند العصاري للسمر وأحيان للعن الدهر، لتبادل النكات، يقلبون المواجع عندما يتذكرون حياتهم تحت ظل الطاعون الذي ينخر أرواحهم ونفوسهم قبل أجسادهم، وما يؤول عنه مستقبلهم الغامض، المبهم الذي يشبه عالم الأعمى الموشح بالظلمة، الغارق في السواد كأغلب أهل العباد؛ عالمهم الملطخ بالخيبة واليأس الذي يصل حد التعاسة والشؤم.

كان جعفر شابًا قويًا، طوله مثل عرضه، ممتلئ بلا كرش، ثخين غليظ النبرات حاد النظرات، وأكثر ما يميز تلك النظرات بريقها كأنها دعوة لارتكاب المعاصي، يشبه الوميض الذي يشع من عيني أفعى وقت انتصاب رأسها. يعيش مع أمه العجوز في بيتهم العتيق الآيل للسقوط، وغرفتهم تلك التي حولوها إلى دكان حسب قولهم كانت الثانية التي يمتلكونها. فبقيت واحدة تقبع في ركن لا يقل ظلمة عن أختها يستعملونها للأكل والمعيشة والنوم. يستطيع جعفر أن يضحك ويبكي في نفس اللحظة. فقير الحال قليل المال، وبعد أن سمع قصة آدم وقرب زواجه، عرف ما ينتظره، دق صدره بقوة خاف من وقعها آدم، قال:

- لك ما تريد يا صديقي وابن عمي، وتابع حالفًا: لا أحد ينقل الصناديق غيري. اتركها على الله ومن ثم علي...

قال ذلك وهو يكركر ويقبل آدم بعنف أخوي حميم ويبارك زواجه مقدمًا.

رجع إلى البيت في وقت متأخر، فظلَّ يسامر أصدقاءه حتى الحادية عشر تقريبًا، ثم قال لهم:

- أشعر بالبرد، عليَّ العودة، وافترق عنهم راضيًا عن جعفر ونفسه كل الرضى.

وجد بيتهم غائص بالسكينة، كسكينة معبد بوذي أثناء الليل. قال يكلم نفسه "ترى، هل ينجي الحذر من القدر"؟ هو يهاب قدره جدًا، يحسب له ألف حساب.

غيّر ملابسه، جلس خلف طاولة خشبية بدرجين نحو اليمين، سطحها غير مستوٍ، انحنى على مجموعة أوراق كانت أمامه بعد أن ضغط على زر كهربائي لمصباح كان ينظر له بحبور ومثل فنان مسكون بالأفكار كتب هذه الجملة "حتى لو كنت في الجنة سأبقى أكتب"، أطفأ ضوء المصباح ونام.

عند الصباح الباكر تمطت الطبيعة قبل النهوض، آدم دخل ثوبها، هو يعجبه الاستيقاظ باكرًا كالفجر، عادة لم تفارقه حتى بعد هروبه من الطاعون، بل أصبحت مع الوقت جزء من حياته، لا يقدر الاستغناء عنها. وعندما يصفن يتألم وهو يتأمل، يقول محادثًا نفسه: "من تكون أيها الطاعون؟! هل الكايزر؟، أم المرض، والفقر، والجهل، والتخلف، والتراجع، والنظرة الدونية للمرأة، والعيش في مجاهل التاريخ وصفحاته؟!" لم يتوصل إلى قناعة تقنعه، ظلت الأسئلة يرددها كالصدى ترجع إليه دون جواب!. لكن ما يعرفه شيء واحد، هروبه الذي يسعى إليه لم يكن إلا بسبب تلك المصائب سعيًا لنقيضها، رفضه كان مقاومته التي قدر عليها، لم يقبل أن تنزف المذلة من أصابعه بحكم الطاعون.

استحمَّ، غيّر ملابسه، شرب الشاي الأسود الثقيل الذي تفوح منه رائحة الهيل العطرة، ثم سعى لغايته التي خطط لها قبل يوم، لقاء أنْهُر ثم الذهاب معًا إلى سوق المكاتب المحاذي لشارع المتنبي كي يلتقيان بصاحب المطبعة ويتفقان معه لطبع كروت الدعوة.

تكرر الموقف ذاته عندما طبع كروت أخيه مروان عند زواجه. رحب بهما قريبه أبو وسام وصوت المكائن وآلات الطباعة ترعد محدثة زعيق لا يطاق مما جعلهم يتحدثون بأصوات عالية، أراهما بعض النماذج، اختارت أنْهُر واحدة بسيطة الرموز مذهبه الخطوط، وافقها آدم بسرعة، اتفقا على الكمية والسعر، غادرا

المطبعة التي ثقبت طبلات آذانهما لا يلويان على شيء غير الهروب من الصخب القاتل والضوضاء المدمرة.

• • • •

اقترب يوم الزفاف، كل شيء كان يؤرق آدم حتى النوم. نصير أخوه كان أكثر قلقًا منه على مجريات الحفل وترتيباته، هو لم يشترك في شيء، آدم قال له:

- لن أزيدك عبئًا ولا أجعلك تدفع شيئًا، كل الأمور تحت السيطرة... ورغم ذلك، لم يكن متأكد من قدرة آدم، لمعرفته بأن خبرة أخيه ليست كافية في مثل هذه الأمور... كان الوقت كله يلوب مشغول البال، يعيد عليه السؤال ذاته عشرات المرات:

- هل الفرقة جاهزة؟، هل تعرف أعضاءها أو كتبت معهم عقدًا؟، هل المشروبات الغازية ستصل في وقتها؟، هل تم توزيع كروت الدعوة كلها كما اتفقنا؟، ماذا عن بيت عمك، هل وزعوا ما لديهم من بطاقات؟... وهكذا كان نصير يسأل دون هوادة وآدم يجيب بهدوء ممتصًا انفعالاته من أجل تفتيتها.

اجتمع القوم في بيت أم نصير. كانت ليلتهم عمل متواصل حتى ساعات الليل المتأخرة، ثم أجبرتهم أمهم على النوم كي يستيقظوا باكرًا بنشاط يستطيعون معه أن يقوموا بأعمالهم التي تنتظرهم بجد وحرص، وقبل أن يفترقوا عدّت وسن شدات(•) الحلوى، قالت لهم:

- ٥٠٠ شدة. أجابها مجيد:

- هذا عدد جيد يفوق المدعوين.

أضاف موجهًا الحديث لآدم عندما رأى الأخير مضطربًا:

- لا تشغل بالك ولا تقلق. لا تقوم بأي عمل غدًا، سيكون يومك. نريدك صاحيًا. اهتم بنفسك فقط...

(•) شدات: عبارة عن كوفيات مربعة الشكل من القماش بيضاء، غالبًا تكون مطرزة بالزهور توضع فيها الحلوى، ثم تشد وتعقد جيدًا بشريط لماع وتقدم في حفلات الزفاف للمدعوين

همهم آدم ببضع كلمات ثم صعد إلى غرفته وحاول النوم ولم يستطع إلا بطلوع الروح.

• • • •

في الثالث والعشرين من آذار كانت الشمس أول من استيقظ، ثم تبعها آدم، الساعة قاربت الثامنة والنصف، قال يخاطب نفسه "هذا يومي، مجيد أشار لي بذلك، إذن عليّ أن اهتم بنفسي"، صفق جبينه بيده صارخًا:

- نسيت أن أشتري ربطة عنق. أجاب على صرخته: سأقتنيها من باب الشرقي عندما أذهب لأحلق شعري هناك، حسنًا... هكذا كلّم نفسه.

ارتدى ملابسه، تناول فطوره بسرعة وسط ضجة كانت تصدر من المتجمهرين في بيتهم، خالاتهم وعماتهم وبناتهم وأولادهم والكل يدور ويسأل ويضحك ويبربر، فارقهم بصحبة وسن ابنة أخته متعجلاً.

قبل أن يخرج كان قد اتصل بأنْهُر، اتفق معها على أنهم سيكونون عندهم في حدود السادسة مساءً لتبدأ من بيتهم الزفة حتى قاعة نقابة نادي المهندسين الزراعيين، طلبت منه أن يوصل وسن إليها كي تذهب معها إلى صالون الحلاقة، وسن كانت تعني لهما الشيء الكثير، هي من أخبرت آدم قبل أن يحضر إلى منتجع الحبانية في أول لقاء بينهما بأن هناك ما يسر قلبه، كانت تقصد أنْهُر، بالفعل، وجدها نبع من السعادة، يستطيع هذا النبع أن يروي مدينة بكاملة ولا ينضب، تعلق بها من النظرة الأولى، خاطب قلبها بصمت، ثم ناداها فاستجابت لندائه، لذلك، كانت وسن محور علاقتهما، مرسال اتصالاتهما، تطلبها عبر الهاتف عندما كانت علاقتهما في حدود السرية، بعدها تقول لخالها: خذ، هذه سماعة الهاتف، تحدث مع أنْهُر، هي بالطرف الآخر، فلولا وسن لما استطاعوا التواصل.

بحث في محال الموضة والملابس الرجالية المصطفة بكثرة الواحدة بجانب الأخرى كقضبان السجن على رصيف شارع الرشيد ولم يجد ربطة عنق تناسب لون بذلة العرس التي يريد ارتدائها، احتار في أمره، الوقت كان يمضي، اقترب ميل ساعته نحو الحادية عشر وهو مازال يبحث عن مبتغاه دون نجاح، توصيله لابنة أخته وسن إلى منطقة الآثوريين حيث تسكن عائلة أنْهُر قتلت من وقته ساعتين، وفي لفتة

منه على واجهة أحد المحال وجد ضالته، اقتناها دون تجريبها، ثم في نفق باب الشرقي جلس تحت يد حلاق وهو يهمس له:
- اليوم عرسي. اهتم بشعري جيدًا وسأنقدك بقشيشًا سمينًا.

عند الظهر رجع إلى البيت، الضجة لم تنقطع، كانت هي السائدة تعلوا الأجواء تفوق التصور، الحركة أصبحت اللغة المستعملة، وقع الأقدام ودبيبها ورنينها ترن وتطن في الآذان لكثرتها وما تحدثها، الجميع منهمك بشيء ما، لا أحد مستقر الكل يدور كدوران زنبور. وجد غرفته مستحلة من قبل مجموعة من البنات، تركهم ونزل إلى غرفة المعيشة، طرد من كان موجودًا بضحكة، فرش له سريرًا إسفنجيًا في ركن منها وحاول النوم. كان متعبًا، هو يعرف نفسه، غير قادر على السهر، ليلته ستكون سهر متواصل، تحتاج إلى تركيز، ترتجف منه أوصاله كلما تذكر ذلك، جلوسه مع عروسه أمام الناس، الترحيب بالضيوف، رقصه مع أنْهُر، وفوق ذاك كله عليه ومنذ الساعات الأولى من صباح غده أن يكون جاهزًا للتعميد في منديهم، بعدها فقط تكون أنْهُر زوجته.

آدم لم ينس زملائه في الكلية، دعاهم جميعهم، مثل هذا الأمر لا يفوته، أصدقاء الشباب والمحلة القديمة الشعبية التي ترعرع فيها ونشأ وزملاء المدرسة لم ينساهم هم الآخرين. سامي صديقه قال له:
- لن تُزفَّ إلا بسيارتي. فعلاً، وبناءً على رغبته وافق. نصير قال:
- بشرط، أن توصله لبيت أنْهُر فقط، من هناك أتولى أنا قيادة الزفة وأخي لن يصعد إلا في سيارتي. اتفقا، جعفر وستار وجبار كانوا أول من أتوا عند العصر لمشاركة فرحة صديقهم ولحضور الحفل معهم. آدم كان يضحك وقتها وهو يشعر بالارتباك من كل ما يحصل حوله، التجربة كانت فريدة بالنسبة له، هو لم يحضر هكذا مناسبات اجتماعية كالزفة. نعم، حضر حفلات زفاف وخطوبة كثيرة لكنه لم يشارك في زفَّة من قبل. والأصح، لم تتوفر له الفرصة لذلك... وهكذا بدأ رتل السيارات بالتحرك من منطقة البنوك المتجهة إلى منطقة الآثوريين والزغاريد تطلق في الهواء بلا حساب.

• • • •

وصل الرتل منطقة الآثوريين، اصطفت السيارات على شكل شريط مستقيم كمسطرة طويلة أمام بيت أم كمال، نزلوا من سياراتهم، أحاطوا آدم وسوَّروه كخاتم، انطلقت الهلاهيل وصدحت، هوّس [•] الرجال بهوسات شعبية وهم يردحون ويدبكون ويدقون الأرض. ارتفع الغبار الذي كان يطلي الرصيف المواجه للبيت، العروس كانت تتوسط غرفة الجلوس بجلستها الضاحكة كعشتار البابلية. آدم جلس بقربها بعد أن خطف قُبلة من خدها، اختلط الراقصون، النساء بالرجال، الشباب بالأطفال... ولم تمض دقائق حتى صاح نصير بأن يتوجهوا إلى السيارات مجددًا، قبل أن يشير إلى ذلك، كان قد أرسل مجيد بغية تأجير سيارات أخرى لنقل أهل العروس، المشكلة أنه لم يسأل فيما إذا كان مجيد قد أحضر بعض السيارات أم لا، فاته ذلك وسط الضجة وكثرة الناس والرقص والدبك، ضاع فكره، تشتت، خرج آدم بصحبة أنْهُر وخلفهم الأهل والأصدقاء، صعدوا السيارات كما أوصى أخوهم الكبير، آدم وزوجته بسيارة نصير، تحرك الرتل دون أهل العروس!.

كانت الفرقة جاهزة. ما أن وصلت الجوقة الساحة المقابلة لباب القاعة، سادت القاعة الهرج، خرج من خرج ووقف من وقف، بدأت الفرقة تعزف لحنًا اعتادوا على عزفه عندما تدخل الجوقة التي تزف العروسين، ثم دخل نفر من المدعوين ساحة الرقص، بدأوا يرقصون ويقفزون ويصفقون بعد أن نسوا أنفسهم كأنهم مغامرين وأنْهُر مرتبكة تسأل آدم عن أهلها، الأخير يجيبها بأنه لا يعرف، لم ير أثرهم، يتلفتان بارتباك وحيرة بين الموجودين ولم يريان أحدًا من أهلها، قالت وسط الضجة:

- ربما أخطأت.

- بماذا؟ أجابها آدم بصوت عالٍ.

- لأنني ما كان علي أن أصعد السيارة قبل أن أرى وأتأكد من وجود أهلي معنا. آدم هو الآخر شعر بالندم. قال بصوت وادع حنين بالغ التأثر حملته أكتاف الريح لتوصله لها كرنة ناقوس دير معزول على خاصرة رابية:

(•) هوّس: هزج

- لم انتبه. عندك حق. ما كان علينا أن نسرع هكذا ونترك أهلك لا نعلم من أمرهم شيئًا، ضغط على يدها، قال: لحظة. لا تتحركي من مكانك. سأعود إليك حالاً. تركها. ذهب يبحث عن نصير، وجده يهم بالدخول إلى القاعة، سأله وهو يضع يده على كتفه:

- نصير!... التفت إليه الأخير، تذمر من وجود أخيه بمفرده دون عروسه، ناح:

- ماذا هناك؟ كيف تترك أنْهُر لوحدها، تابع بغصة تشاؤمية: لا أظن بأن الليلة ستنتهي على خير!... آدم لم يعر للكلام كثير اهتمام، سأله عما كان يفور بداخله كنار في تنور:

- ماذا عن أهل أنْهُر؟ أين هم؟ كيف ندخل القاعة دون أهلها؟... صفن نصير، أحسّ بأنه قصّر في هذا الجانب، آدم لا يستطيع أن يفعل شيئًا لهم في وقت كهذا، كان على أخوته أن يرتبوا موضوع تأجير السيارات ونقل أهل زوجته قبل هذا الوقت أو بشكل أكثر دقة، شعر بإحراج كبير، بل غرق كالحجر في بحر خجله... تلفت نصير بلا إرادة مستنجدًا على أمل أن يصلون مع أخيه مجيد، قال:

- اذهب لزوجتك، ابق عندها، لا تتركها، مجيد سيؤجر لهم سيارتين أو ثلاثة ويأتي معهم، اطمئن وطمئن أنْهُر، لا تجعلها تقلق، سيكونون هنا في أي لحظة، دعنا ندخل، تأخرنا، الناس ينظرون لنا، سنجعلهم يرتابون لتصرفنا، اسمع، الفرقة تعزف، لابد من الدخول.

(٢٩)

دخلوا القاعة بعد أن طمئنها آدم بأن أخاه مجيد معهم، هو لن يتركهم، سيحضر لهم سيارات ويأتي بهم، أضاف:

- لا تقلقي أرجوكِ، كل شيء سيكون على ما يرام.

لكن كلماته لم تجعل سُحب وغيوم الهم عندها تختفي أو تتسامى فبقيت ملبدة.

سارا وهما يتعثران بالحرج كأن الأخير ثوب طويل. الأهل والأقارب والأصحاب حولهما والأهازيج فوقهما... وما انقطعت أنْهُر من التلفت والنظر إلى باب القاعة لعلها ترى أهلها يدخلون لتكتمل فرحتها. وبالفعل، لم تمض إلا دقائق معدودة حتى رأتهم يدخلون بوجوه عكرة، مربدة، منشغلون بحديث متفجر بان على هيئتهم، كانوا يتحدثون بعصبية، الامتعاض واضح على محياهم، شفاههم مزمومة وهم يتحدثون، اقتربت أمها بدرية من نصير الذي كان واقفًا كالحارس عند باب القاعة العريض الثخين القهوائي اللون المصنوع من الساج يرحب بالضيوف، الفرقة أمامه تعزف وصوت المطرب يصدح بأغاني عراقية مفرحة حتى قالت شاتمة، حاسمة الموقف:

- لم يكذبوا عندما قالوا عنك قواد، ثم تابعت بحدة: كيف تتركنا وتأخذ ابنتنا هكذا وتدخل بها قاعة الحفل دوننا؟... أنْهُر انتبهت على دخول أهلها، رأت أمها قريبه من نصير منهمكة معه في نقاش لا يتبين منه غير ملامح العصبية على الوجوه وحركات الشفاه والأيادي، حسبتها بأن المشادة ستتطور ويتحول الحفل إلى عراك أو صدام كلامي لا يحمد عقباه!...

نصير لم يرد عليها. فضّل الصمت. كان قراره حكيمًا للغاية. لم يتوقعه آدم بعد أن أخبره أخوه بما حصل. أنْهُر خفضت رأسها كي تخفي دموعها. كادت الدموع تفسد مكياجها وتبرجها. انهضمت. أمها قالت كلمة نابية. بدرية لم تتغير. تقول ما تريده دون اعتبار للزمان أو المكان. تحسب تصرفها شجاعة. نصير صفن عندما كلّمة آدم وسأله عن أهل زوجته، ندم، شعر بأنه لم يحسن التصرف، هكذا أخطاء يمكن أن تحدث، لكن كلمة نابية تقال له وربما يسمعها غيره في وقت كهذا أمر صعب، لا يمكن تحمله. نصير محنك. خبرته في الحياة علّمته الحكمة. استوعب الحدث

وسكت. سكوته كان لقاء إتمام حفل زواج أخيه بسلام. لم يفكر في الرد. لو كان ما قالته له بدرية في مكان آخر أو في زمن غير هذا، لكان رد فعله صارمًا، قاسيًا وربما يصل حد مد يده أو أن يخبر أحدهم من معارفه وأصدقائه بأن يقرص بدرية قرصة بسيطة تجعلها تتألم لأشهر. القرص في زمن الطاعون كان معروفًا ومشهورا، من يريد أن يؤذي أحدهم يقرصه بطريقته الخاصة، بتقرير للحزب مثلاً، أو حبس أحد أفراد الأسرة لأيام مع التعذيب بتهم ملفقة، لكن نصير لحظتها كان عاقلاً. لم يفعل شيئًا. سمع الكلمة النابية التي تفوهت بها بدرية وهي غاضبة وسكت، قصر الشر، رغبةً منه في عدم تحويل حفل زفاف أخيه إلى ساحة من الصراع أو العراك... ومع الوقت وبمرور بعض الدقائق تناسوا ما حدث تدريجيًا، اندمجوا في الرقص وتقديم التهاني والتبريكات للعروسين، تقدم مروان من أخيه طلب منه أن يمسك يد زوجته لينهضا ويشاركا المحتفلين فرحتهم، آدم لم يتوان، قبّل يد أنْهُر وقال:

- هيا، هذه ليلتنا، دعينا نرقص، لكن خذي حذرك، المسرح مزدحم، فستانك طويل، ومشيتك أنت تعرفينها أكثر مني!... قال ذلك وهو يغمزها.

تقدمت أم نصير من أختها كما تقول أم كمال عنها، طلبت أن ترقص معها، دبكا كيفما اتفق، اهتزت الأرض من تحتهما ورنين أساور بدرية تصفق محدثة أصوات متناغمة كلما اصطدمت ببعضها البعض، هي نسيت انفعالها، فرحتها بزواج ابنتها كانت حقيقية من كل قلبها، طيبتها غالبة على تصرفاتها، تبكي للآخرين قبل أن ترثي حالها، هكذا هي أم كمال، قلبها جوهرة لا يمكن تثمين قيمتها، الموقف الذي حدث لها ولعائلتها وتركهم دون ابنتهم في ليلة كهذه جعلها تفقد اعصابها، تصل حدود التهور، هذا ما جعل ربما نصير يتفهم وضعها ليلوذ بالصمت عندما واجهته بتلك الكلمة النابية التي تعتقد بأنها جاءت في وقتها وبحقه.

• • • •

التخوف كان من سكر عاصم المغموس بالشر. فقد حضر مع زوجته سمر أخت أنْهُر وولديه وهو يترنح من السكر. هذه هي من أشنع عاداته. لا يجعل له حدود. لا يفكر بما سيؤول له وضعه أمام الناس وعائلته. عندما اقترب من آدم لتهنئته، شمّ فيه

الأخير رائحة الخمر النفاذة، كادت تجعله يتقيأ لشدتها. هنئه عاصم بلسان ملتوي ثقيل مترنحًا لا يقوى على الوقوف، قال محذرًا بلا خجل كأنه ينوي نطحة بعد أن نسى نفسه:

- اسمع يا هذا... أنت ستكون عديلي. اعتنِ بأنْهُر أكثر من عينيك. لو سمعت يومًا بأنك زعلّتها سأقلع لك عينيك وأضع محلهما حجرين. هل تسمع؟، وهو يمط كلمته الأخيرة بشكل مضحك: ححححجرين يا آدم، ثم مد يده إلى خاصرته، حرك مسدسه الذي كان على يساره يتمتع بالدفء المغروس تحت حزام بنطاله، أضاف بطريقة متحرشة:
- سمعتني بالتأكيد، أريدك أن تنظر كذلك!، وهو يعرعر بمسدسه ويحرِّكه من مكانه بغية ترهيب آدم وتخويفه بالسلاح الذي لا أحد يعرف كي حصل عليه الملعون عاصم.

مروان كان متوثبًا كعادته، يتابع الحفل والمدعوين بحذر وشك. هو لا يستطيع أن يتخلص من الشك الذي يساوره كما قلقه وحذره، لذلك، اقترب من عاصم، سحبه من يده، وضع يده على كتفه، همس في أذنه كلمات لم يجعل أحدًا غيرهما يسمعها. عاصم تجاوب معه تحت وطأة السحبة وقبضة مروان المحكمة. مروان كان من النوع الذي لا يعرف المزاح، لو شعر للحظة بأن عاصم تجاوز على أخيه أو على زوجته كان مستعدًا أن يشبعه ضربًا، لا يفكر كثيرًا بالعواقب كعاصم. حمد آدم الله في سره بعد أن رأى بأن عديله الجديد كان متجاوبًا مع أخيه، انسحبا من المسرح ثم تواريا خلف المدعوين، غادرا القاعة، بعد لحظة رأى أخاه مروان يدخل دون عاصم، ماذا قال له، لا يعرف. أين ذهب عاصم؟ بقى سرٌّ استعصى عليه وقتها معرفته، أشار لأخيه أن يقترب، سأله:

- أين اختفى عاصم؟

- لا تقلق عليه، فهو مثل قطة بسبعة أرواح، وتابع: أخذته إلى سيارته، جعلته ينام فيها بعد أن هددته بإحضار الشرطة، أنا أعرف بأن ما في حوزته من سلاح غير مرخص به، هذا كل الذي حصل.
- حسنًا... قال آدم، بلع ريقه بصعوبة، تنفس بارتياح مشوب بالحذر. حفلات مثل هذه في شرقنا العربي لها صور وكواليس غير مرئية أحيانًا. هناك من يحاول

العبث دون إدراك للكوارث التي سيقدم عليها. أبله مثل عاصم لا يقدر حجم الدمار لو تسبب داخل الحفل في عراك أو صدام أو مشادة كلامية. سيسبب في أقل تقدير رعب للأطفال غير عادي يجعلهم ينفرون من هكذا مناسبات ولا يقربونها بعد ذلك بسهولة، ثم يتجمع بعض أصحاب الشأن في منطقة ضيقة من القاعة لا تعرف من هو القريب وقتها من البعيد... يزداد اللغط ثم العويل والصراخ والتشاؤم ثم تبدأ المناوشات الفعلية بعد أن كانت كلامية ويتهدم بذلك صرح الحفل ويتقوض. لماذا؟ لأن هناك من فقد رشده في حالة سكر أرعن دون حساب للعواقب!.

• • • •

طاقة الإنسان حدودها إرادته؛ متى ما تنكسر الأخيرة ينهار صاحبها. الوعي وحدة لا يكفي، بل لابد من أن يقارن بالاستعداد.

تقدم عبد الرزاق من صديقه وزميل دراسته لتهنئته بصحبة امرأة سمينة، مربربة بيضاء كشحمة ألية الخروف، تفاجأ آدم من وجودها معه، طلب منه قائلاً:

- اخفض رأسك!.

خفض عبد الرزاق رأسه وهو يردد منكمشًا ضاحكًا كعادته:

- ماذا هناك يا آدم؟

- من هذه التي معك؟، أضاف: هل هذه هي غادة التي حدثتني عنها من قبل؟ زوجة الشهيد!.

- هي بعينها!.

- كيف تجازف؟ ألا تخاف من الظهور معها في مكان عام؟

- ولماذا أخاف؟، هي زوجتي على سنّة الله ورسوله.

- يا ماكر، تتزوج دون أن تقول لي ولا حتى تدعوني؟

- الأمر حدث بسرعة وبشكل غير متوقع، تستطيع أن تقول: نزوة!

- نزوة!

- لا تفهم قصدي خطأ، أسأت التعبير، أعني، كان قرارًا عاطفيًا لم أندم عليه لحد هذه اللحظة!. ضحك آدم، شعر بأن زميله تورط لكنه صادق فيما قاله، هو يعرف كيف كانت بدايته مع تلك المرأة، حدّثه عبد الرزاق يومًا بتفاصيل تعارفه عليها وكيف كانت وما هي الظروف والملابسات التي جعلته يعرفها، سردها له بدقة متناهية لم يخبر أحدًا سواه، كان يثق بآدم ثقة عمياء، يقول له دائمًا لو لم تكن زميلي لأخترك أن تكون أخي الذي لم تلده أمي، كان يحب آدم حبًا غريبًا، يسرّه على أشياء يستغرب منها آدم أحيانًا لأن صديقه يقولها له دون خوف أو تردد، كقصة تعارفه مع تلك السمينة البيضاء التي تشبه الشحمة والتي تكبره بما لا يقل عن عشرة أعوام... يوم تعارفه عليها كانت حكاية أقرب إلى الحلم أو الخيال:

"ففي ليلة خاوية لم يشاركه غرفته فيها أحد غيره، ضرب عبد الرزاق صدره بقبضة يده بقوة كمن ركبه عفريت أزرق وهو يصيح: يجب أن أفعلها الليلة!. لم يكن عبد الرزاق سيء الأخلاق. من أهالي الجنوب وسكنته. يدرس في كلية الطب البيطري منذ سنتين، فقيرًا، حاول أن يجد عملاً بعد دوامه الرسمي في الكلية ولم يجد؛ فبقي عاطلاً بعد الظهر، حائرًا، خامدًا يسكن مع وحدته التي تعود عليها ويداريها كحظه العاثر الكسير في غرفة فوق السطوح، شبه عارية من الأثاث والأغراض، قديمة، مهدمة ومتهالكة، يكاد يدقها الشهيق والزفير...

كان عبد الرزاق قصير القامة، ناعم العظام، قليل الشعر، أحمر الوجه، وله شارب رفيع كالخيط، غالبا ما يخنق نفسه برباط جلدي أحمر اللون كالذي يرتديه في هذه الليلة، ليلة زفاف زميله آدم، باهت كلون وجهه، مدعاة للسخرية من قبل أصحابه وزملائه في الكلية... تلك التي لم يجن منها سوى الوحدة والفراغ والملل ومازال؛ وماذا كان ينتظر من دراسته تلك؟ فمتى كان الإنسان في شرقنا العربي محترمًا أو مقدرًا أو مراعى؟! ومتى يصير لنا ذلك؟ يعتمد على مساعدات الدولة كطالب من المحافظات يدرس في العاصمة... براتب لا يصل سوى اثنين وعشرين دينارًا بالشهر.

أكثر ما كان يميزه ضحكته التي لها صوت قرقرة(النركَيلة) في فورتها، لا يكملها، يقطعها عند منتصفها، يبتلعها ويدور بجسمه النحيف حول محوره نصف دورة ثم

يرجع إلى وضعه الذي كان عليه قبل أن يضحك، فيتراءى لمن حوله في تلك اللحظة على أنه يمثل دور الساحرة العجوز.

في ليل بارد النسمات، استيقظ الشيطان النائم في داخله فجأة، فبدا خارقا، ساديا، جامحا وهادرا بعد أن نزّت أحداقه عن شهوة حارقة تألقت، توهجت واحمرت عيناه، رجفت شفتاه ودار لعابه في فمه دون سيطرة أو إرادة. استوحش الأشياء كلها، لم يعد يطيق الصبر، كل ما كان يدور بعقله الذي استخف به طرب الشهوة وشبقها المتقد، الحار كحرارة جسمه المحموم الذي يكاد ينفجر كبالونه لا تستوعب المزيد من الهواء في تحقيق رغبته لإطفاء نزوته. أصبح مختلج، لم يعد يستطيع الانتظار أو النسيان، ضاعت عليه خطى التراجع كالدموع عندما تنهمر، لا يمكن إرجاعها إلى أحداقها؛ لا فائدة من العدول... هكذا انزلق عقله الباطن، نشطت ثورته الجامحة نحو الفعل وهو يخطط بثبات صارم لا يقهر، بعزيمة لا تلين أو تكسر.

انتصف الليل، همد الناس واستسلموا للرقاد كالقتلى بعد أن هدأت أرواحهم وسكنت حركاتهم، عمَّ الصمت الحي الشعبي الذي يقطنه عبد الرزاق كله إلا من لهاث قلبه وصرخات نزوته وعضات الجوع تنهش جسمه وروحه التي تلوثت وتلونت بلون الخزي وهو يرتجف تحت وطأة حمى الجنس...

مر الوقت قاسيا عليه وبطيئًا حتى بدا أكثر توثبًا كالمجنون وهو يردد:

- تلك الحسناء غادة، ما أجمل اسمها وصورتها النائمة لوحدها في عتمة الليل وسكونه، لابد من إنها تكون الآن عارية كحواء الأولى في انتظاري، بل ستفرح بقدومي وتأخذني بالأحضان حتى طلوع الفجر، سأجعلها تسمع طقطقة عظامها وهي تحتي تئن وتنوح... سوف لن يشفع لها شفيع ولا تنفع معها ضراعة... ستعلم عندها، ماذا يعني شبقي إليها ورغبتي فيها؟، سأسقط في أذنيها كلمات جنس مكشوفة، أجعلها تعرق، تحترق، تتلوى، تتعذب، وتتموج تحتي، تذوب كشمعة لتكون شيئًا مسحوقًا، ليئًا، ذائبًا، رقيقًا كالعجين!. حينها صرخ دون وعي:

- نعم، ما أحلانا... سنكون كتلة لحم واحدة، سألت عنها كأني أنوي الزواج منها في كل مكان، قالوا تعيش بمفردها، لوحدها بعد أن خطفت الحرب زوجها، استشهد وليس لها أولاد. تشجع، علا صوته مجددًا: إذن هي مثلي، ظروفها كظروفي، ماعدا أنها أرملة وأنا مازلت عازبًا... لابد من أن جسدها يستعر الآن كما يشتعل

جسدي، تشتهي الجنس كما أشتهي، لهبه يلفح ويحرق أجسادنا كلينا بناره المستعرة التي تشبه نار جهنم... سنموت حتمًا إذا لم نطفئها، صاح لحظتها بهوس: لابد من أن نطفئها... قال ذلك والزبد يخرج من فمه كجمل يرغي. وسط تلك الثورة الجهنمية، نظر إلى ساعته فلم يستطع قراءتها... دقق النظر كمن يعاني قصر النظر، هتف:

- الواحدة ليلاً... ما أجمل المقامرة والمغامرة في وقت كهذا!، همس بصعوبة وهو يحاول أن يبلع ريقه: سأضاجعها بقلب صامد لا يهاب ولا يخاف، سأجعل سريرها يهتز من تحتنا كمركب على سطح البحر في يوم عاصف، يعلو وينخفض ولا يعرف السكون طريقًا له؛ ستكون ليلة مليحة يذكرها التاريخ، بل سأجعلها تتذكر الواقعة كتاريخ يوم ولادتها... واصل على نفس الوتيرة: كل شيء فيها مثير ويستثير... عيناها، شفتاها، صوتها الساحر، الآسر الموسيقي العذب، صدرها العامر الطري الناهد المشاكس، خصرها الممتلئ، جسمها المرمري الأبيض وحتى... يا لها من امرأة خارقة الأنوثة، كمسرح من الخيال في حلم جنسي رائع لفتى مراهق.

انحلّت أعصابه بعد أن توترت، فقدت قوتها، انصاعت للرغبة المحمومة بغية الارتواء وكما يقال عند الإغريق القدماء "عندما تتوازن الشهوة مع العقل، يكون المرء حينها سويًا" لكن كفة عبد الرزاق انحرفت ومالت نحو الفعل والشهوة ونزقها وبات العقل شيئاً منسيا، لا وجود له بعد أن تجمع شبق الرجال الجياع فيه دفعة واحدة. ردد على نفسه مهتاجًا:

- متى أنال منها؟! ماذا يرغمني أن انتظر كل هذا الوقت؟! سأجعلها سكرى دون خمر بعد أن أسقيها بشفتي قبلات حارة، ملتهبة، كما المطر الساقط من السماء، سأرويها وأجعلها تموت بقبلاتي غرقًا بعد أن أزرع في جسدها قبلاً، بل سأجعلها تعترف بأنها لم تتزوج من قبل، ولم تمارس الحب مع رجل من قبلي!.

تردد قليلاً، صحا فجأة، وسأل:

- من الذي يؤكد لي بأنها تنتظرني؟ بل من يقول بأنها تتحرق شوقًا مثلي؟، أو حتى موجودة لوحدها كما سمعت؟! ضرب رأسه بقوة منفعلاً معنفًا: ما هذه الهواجس

النجسة التي قفزت في ذهني فجأة؟! تبًا لي ولحظي المنحوس الذي يأبى أن يقف ولو مرة واحدة بجانبي. تابع بصرامة:

- لا محل للكلام الآن... إلى العمل، بل إلى الفعل، مشاعري الجنسية قد استنفرت كل طاقتها ولم يبق سوى الترويح والتنفيس عنها، لتحيا الغريزة، ليصفق لي الشيطان وليموت بعدها كل الأحياء الذين يتبجحون بأقوالهم ونحن جياع.

نهض مسرعًا، اتجه نحو سور السطح الذي يفصله عن حسنائه مغمغمًا: سأتعوذ بالله واذهب؛ فإما أكون مفقودًا أو مولودًا... أوصالي المتوترة سوف لن تهدأ إلا بعد أن أتمم الفعل، عندها فقط سأشعر بالراحة والهمود ونادى كأنما يدعو: لتتمرغ الكرامة بالتراب، لينتحر الكبرياء ولتصعق الأخلاق، ليموت الكلام وليبقى الفعل هو سيد الحياة وهدفها...

قفز من سور السطح المنخفض والظلمة تملأ الفراغ وتبتلعه، النجوم في سمائها عالقة وهي ساهرة، ربما تحب أن تشهد الواقعة تثقب الظلام بنورها؟، أسطح المنازل خاوية، بأحجارها، القديمة الآيلة للسقوط والقمر يبتسم... تسلسل عبد الرزاق كالفدائي، سعى ينساب كالثعبان يفح ويلهث ويردد دعاء كمؤمن بعد الصلاة، رعانا الله وحفظنا أنت الحي القيوم...

عالج شباك غرفتها كالسارق بأيدي مرتجفة، فتحه، لم يتوقع أن تسير الأمور بهذه السهولة، تشجع وهو يلتهب من السعير الذي يتلجلج بداخله، تابع السطو... حطت قدماه أرض الغرفة، جفل بالصرخة التي انطلقت من غادة كصرخة وحش، والنوم مازال عالقًا في جفنيها وفي ذهنها بقايا من حلم مخيف، مرعب لم ينته بعد:

- قف عندك. لا تقترب أكثر، أحذرك... أسناني حادة، قاطعة، كحافة السكين التي أحملها، ثم تابعت بحزم وصرامة وبقلب شجاع: تأكد بأن سيكني مجربة وموثوق منها!، سأقتلك ولن أندم، بل سأكون راضية تمامًا... عدّلت من هيئتها، غطت صدرها بقميص النوم الملقى على السرير وبحركة بهلوانية سريعة فتحت النور وألقت نظرة خاطفة عليه...

كان عبد الرزاق واجما، ساهيًا وواقفًا كجذع شجرة، صامتًا كصخرة الجبل، لا يحرك ساكنا، صدمته المباغتة التي لم يتوقع حدوثها... حاول أن يرسم ابتسامة بريئة على وجهه خرجت بلهاء لا معنى لها، كأنها ندت عن رجل متورط مجنون

جاء للسرقة فوجد أصحاب الدار في انتظاره وهو يردد في سره "أراهن على إنها تحتقرني... آه يا إلهي، أشعر بالخجل يمتصني، يغرقني في بحره العميق، كأنني أقف أمامها عاريًا، فأخجل من عريي... كم غريب هذا المخلوق الذي يدعى أنه إنسان، تراه في لحظة، مارد كالوحش، وفي ذات الوقت، مسكينا كالطفل اليتيم... استطرد في مناجاته لنفسه وهي تتأمله من فوق إلى تحت وهو يتابع ترجمة هواجسه، لم أعد أشتهيها!، زالت النزوة فجأة، هدأت بعد أن تلوت وهاجت، ناحت وبكت، ذرفت الدموع ونامت. نعم، لقد نامت الشهوة في داخلي كطفل بعد الشبع... لكن هل شبعت يا ترى حقًا؟! تبًا لي وعلى هذه المغامرة الحقيرة، الدنيئة التي لا يرتكبها شرير من نسل إبليس".

استفاق على صوتها الشجي تسأله بحدة:

- من أنت؟ وما الذي جاء بك وبمثل هذا الوقت؟

بهدوء مريض لا ينم عن عاقل في موقف كهذا، قال:

- أنا الطبيب البيطري عبد الرزاق، ثم تلكأ قائلاً: جئت... في الحقيقة، أقصد... لأحضنك!.
- ماذا؟ وهي تصرخ ضاحكة!

بنبرة تقطر أسى وخذلانا:

- قلت وهو بالكاد يحاول بلع ريقه الناشف سأقبّلها، كما يفعل البحر مع الرمل على الساحل!، بل ذهبت إلى ما هو أبعد، حيث تراءى لي بأن البحر يترك رغوته وزبده على الشاطئ ويرجع فرحًا بإنجازه العظيم!.

- كلامك يا هذا يدخل قلبي سريعًا ويستقر فيه، ينم عن عقل راجح، مثقف، يفهم في عالم وأسرار المرأة، ثم عطفت مشرعة بدهاء وحنكة كعهد المرأة عند الشدائد:
- علاقة البحر والرمل لا تعرف الخفاء أو الخجل، علاقة واضحة، صريحة وتمارس تحت نظر الشمس والقمر والناس دون خوف أو تردد!.

ارتاح لجوابها، ردد في سره "هكذا هي الأنثى، تريد ولا تريد، وعندما ترغب، ليس من المحاولة الأولى، لكنها لو تأبى، ليس هناك من قوة تستطيع أن ترغم المرأة على العطاء، إذ يمكن لك أن تسحقها، تهشم رأسها، تغتصبها، تزرع في جسدها ما شئت،

لكنك لن تنتزع منها شيئًا هي لا تريد إعطائه، ثم واصل همسه، تأكدت الآن بأنها ليست حسناء فقط بل سريعة البديهية، متقدة الذكاء كالظن، مهيبة كالغابة، مخيفة كالجحيم وكلماتها جاءت نافذة وسريعة كالطلقة"، ثم تباطأ في الرد مجبرًا، أجاب بنبرة متوسلة ليسترضيها:

- ما هي شروطك إذن؟

بصوت مطمئن ناعم ومتناغم مع أنوثتها المتدفقة سحرًا وجمال ملاطفة:

- أن نكون مثل البحر والرمل!... ثم صمتت وحسبها انتهت، لكنها تابعت بحرص: أقصد بالحلال، ولكن بعد أن نتعرف على بعضنا البعض جيدًا، وهي تغمزه بخبث: الخبرة والتجربة تقول ذلك وليس أنا. يقال، أكتم السر، إذا تجاوزنا شاع... تابعت كلامها الهادر الصريح بغية إحراجه، بطريقة استشفها عبد الرزاق على أنها خارجة من امرأة تستطيع أن تتحكم في زمام أمورها وعواطفها وإرادتها بشكل جيد لا يقبل النقاش، تتلون، تتغير، ثم ترجع كما كانت متى ما تريد وتشتهي كالرجال:

- ولكن، لم تقل لي بعد... ماذا عن سلاحك؟!

- كان الرمح منتصبًا ثم مات!... أقصد، بكى، ذرف الدموع ثم وهن، خمد ومات، لن يعاود الكره مرة أخرى وعلى هذه الشاكلة.

بحسم:

- الشطر الثاني من جوابك أؤيدك فيه، وأقول: لا تجعله يقظًا في أنصاف الليالي... حذار أن تفعل ذلك ولا تخف، الخوف تحت الضغط يولد الجنون، وأنا لا أريدك جثة ولا مجنونا، ثم سألته كأنها تسأل نفسها:

- العمى، لماذا لا يريد أن يفهم هذا الذي اقتحم عليّ غرفتي فجأة هكذا كالقضاء والقدر؟! وأدركت كأنما تذكرت ما تريد قوله: ماذا تقول؟ بكى وذرف الدموع؟!. إذن احترس على ما تبقى وإلا ستسقط من سجلات الرجال!، أضافت بثقة: من الظاهر أنك لم تسمع بأن المشنوق يفعل الشيء ذاته عندما يشنق!، العوض على سلامتك. لكن، قل لي قبل أن أنسى: من الذي أمات رمحك؟ قالت ذلك وابتسامة شيطانية أرتسمت على شفتيها، ثم عدّلت من سؤالها: عفوًا، أقصد سلاحك؟!

- الخزي والشرف!!

- عجبًا، شيئان نقيضان لا يتفقان أبدًا، كصراع رجلين على امرأة واحدة في غابة وهي عارية كما خلقها الله... تمامًا كالخجل والجسارة، لا يتفقان أبدًا، لابد أن تطلّق أحدهما كي تنعم بالراحة مع الأخرى!.

مقتضبًا بعد أن تورم قلقه وكبر خجله:

- هو كذلك، عواء الغريزة واللعنة مقابل العفة والطهارة مضافا لهما الجمال والحكمة... لذلك سأعود كما أتيت.

ابتسمت راضية:

- إذن، فكر فيما قلته لك...

- ماذا تقصدين؟

- تسلل فالليل ستارًا للهروب، أغلق الشباك من ورائك!. لا تنس بأنك أتيتني جثة بلا روح!، وأنا لا أحب التعامل مع الأموات!، تعوذ بالله وارجع سالمًا كما أتيت...

بحيرة وبنكد وبوجه مربد:

- تعوذت بالله قبل أن آتي، وكما ترين لم ينفع التعويذ وربما حتى الصلاة!، جئت أطلب الحياة على يديك وأتذوق السعادة، وجدتك حسناء بعقل نبي، ثم أردف متسائلاً:

- ولكن ماذا تقصدين، جثة بلا روح؟!

بغنج فاضح:

- أقصد، جئت جسدًا لا شعور فيه، يعني، جثة، ثم تغلب الخبث الذي فيها على طيبتها وسحرها: ربما لأنك فقير ومعدم وعاطل عن العمل يا... وهتفت: ماذا قلت لي؟ ما اسمك؟ وتابعت بفخر صادق: هأنت تعترف بأننا معشر النساء أفضل منكم عقلاً ودينا... استرسلت: عليك في المستقبل أن تكون بارعًا، خارقًا وأكثر حذرا... وإلا سيصادفك موقف هذه الليلة البارد، وكما ترى ابرد من الثلج أقسى من الموت، أحمد شوقي يقول "الغواني يغرهن الثناء "وأنا لست بغانية كما رأيت. عندها عدلت من وقفتها، بانت أكثر جمال رغم تعبها ونعاسها، قالت:

- ستذهب لكنك لن تستطيع النوم... في الشرق، الواحد منا يحتاج إلى معجزة كي يستطيع أن يعيش... لا بتعويذة بريئة!.

- هل تعلمين الغيب أيضًا؟، ثم هامسًا: يفعلها الله أن أراد.

- كلا، بل أعلم بأن أصحاب الوجدان مثلك، لهم حساسية دقيقة، نبيهة، متفتحة... وهؤلاء يصعب عليهم النوم، فهم مشغولون بقضايا أكبر من همومهم الشخصية.

لملم ما تبقى في داخله من بقايا إرادة... لم يتمرد أو يحتج ولم ينبس. انسحب بهدوء كالظل بلا صوت، خفيفًا كالريح التي تقبل وجهه وتدفعه برفق باتجاه غرفته... خرج يعبر أسوار السطوح، بدا وسط الظلمة وهو يتسلل كالشبح قافلاً إلى غرفته القديمة، المتهدمة الآيلة إلى السقوط والتي يكاد يدقها الشهيق والزفير.

جلس على حافة سريره، حاور نفسه خجلاً من غير كلام "لماذا؟ هل لأنني حلمت حلمًا كبيرًا؟! أم لأنني لم أكن مؤمنًا بقدرتي وشجاعتي بما يجعلني أفوز بما أريد؟! آه... أشعر بالقهر والهزيمة والعار، لقد عمدني العار، خرجت منه وأنا أشبه باللعنة أو كالمحكوم بالنذالة، تحول خجلي إلى عار بعد أن تعمدت به!. يجب أن أتحمله وأتعايش معه كالفقر، لابد من الانتصار عليهما، لكن كيف؟! أنا الطبيب البيطري العاطل عن العمل، الساكن فوق السطوح الذي لا يعبأ به أحد... بل أكاد أجزم بأن الدولة لو أرادت أن تحصي سكانها سوف لن تعثر علي!. بل لن تتصور بأنني أسكن في غرفة كهذه. لن يتجرأ أحد على الصعود، سيخاف ويهاب الموت، بل سيقول بأن المدعو عبد الرزاق ميت، مفقود، لا وجود له، لا يحمل هوية تثبت شخصيته، بل ليس عراقيًا!. وقد أكون إرهابيا في نظرهم... لأنني أسكن وأتخفى هنا"... تمدد على السرير بغية النوم... ظل قلقًا، حائرًا متخاصمًا مع نفسه، يتقلب في فراشه، كسمكة خرجت من الماء لتوها وهي تقاوم الموت سعيًا في الحياة، بكى بتشنج مربك من العار الذي يرفضه حتى الذليل، بصوت مجروح مغموسًا باليأس غمغم:

- صدق حدس الحسناء، فسّرت فصدقت... وها أنا أتقلب لا أعرف للنوم طريقًا، فيَّ قهر ولوعة لجوع البطن والجسد وكلاهما قاس على الإنسان... قالت لي غادة دون رياء، جسد أنت بلا روح، لم يتبق لي إلا أن أتوارى في حفرة... شعر في تلك اللحظة بأنه غريب، منبوذ كاليتيم العاجز، هتف بحرقة دون وعي: ما أقسى أن يشعر المرء بالغربة والوحدة واليتم وهو في وطنه!.

أطفأت غادة النور، عادت مجددا تحاول النوم، لكنه جفاها هي الأخرى... رددت مع نفسها بانفعال كأنها تنتقم "مازلت لم أبع للشيطان جسدي ولا روحي". بكت بألم، بصوت مكتوم أخرس بلله التأثر ولم يغمض لها جفن.

هذا ما حدّثه به عبد الرزاق قبل فترة، وها هو يطل عليه الليلة في حفلة زواجه وهو بصحبة غادة التي كما نوه عنها قد روضته، جعلته يطلبها بالحلال كما تفننت إرادتها.

• • • •

بعد أن وقف نصير وداوود على المسرح وبجانبهما مروان وكمال ليعلنوا زواج آدم وأنْهُر ويلبسوهما الخاتمين، كانت فرحة أم نصير كبيرة لم يسعها قلبها، شعرت بسعادة غامرة، هي تحب آدم حُبًا جمًا، تقدر حكمته، موهبته وعلمه، لم يدخل أحد أفراد أسرتها غيره الجامعة، كانت تفتخر به في كل مكان تكون فيه وتذكر صفاته وخصائصه، وها هي اليوم تراه عريسًا اختار زوجته بإرادة من حديد، وبجانبه أنْهُر، تلك الفراشة التي خلقها الله بهجة للحياة، وهبها لآدم كي يكوّنان أسرة لها من العناد والإصرار والتفاني ما لا يملكونه قوم. انتصف الليل. الجميع كانوا سعداء. شرب من شرب ورقص من رقص، ثم بدأ المدعوون يغادرون.

خفّت القاعة، تراجع الجمع رويدًا ينسحبون فرادا وجماعات إلا من الأهل وخاصة الخاصة من أصدقاء آدم. قبل أن يغادرون القاعة نقد آدم العمال الذين اهتموا بالحفل وقدموا خدماتهم بعض المال، أشار لنصير بأن لا يخطأ الخطأ ذاته، أن يحضر سيارات تقل أهل زوجته وهم ينتظرون في الداخل ليتوجهوا فيما بعد إلى بيتهم على شكل قافلة واحدة حتى يقطع مهرهما ويصطبغان (•) صباحًا في معبدهم بمنطقة القادسية المحاذي لنهر دجلة ومياهه الجارية على يد شيخهم الديني الكبير لتصبح أنْهُر بعدها زوجه له وبهذا تنتهي مراسيم زواجه فيركن إلى الهدوء ويعيش الحب مع من أختارها قلبه بسلام ووئام.

(•) يصطبغان: يتعمدان بماء النهر الجاري

(٣٠)

ليلتهما كانت ذكريات. محاكات للماضي القريب. لم تغمض لهما أجفان. بقيا ساهرين يناجيان. يلتمسان الغد. يريدان المستقبل الموجود. الغد لم يكن لهما مستقبلاً، بل حاضرًا مرئيًا وملموسًا. الإنسان هو الذي يذهب إلى مستقبله متأخرًا، ثم يتهاون متقاعسًا في قوله، سأصل. الحقيقة غير هذا. المستقبل كائن يتنفس معنا، يعاشرنا ولا نصل إليه إلا بعد حين بسبب بطئنا. حركة الإنسان البطيئة هي التي تجعل ساعة ولحظة الوصول متأخرة. لو أسرع الأخير لرأى مستقبله في يومه الذي يحياه. هذه هي كل الحكاية... بقيا آدم وأنْهُر يتهامسان في جلستهما في غرفتهما بوجود وسن أحيانًا. ثم سارة تارة ونداء تارة أخرى حتى الصباح وظهور أولى خيوط أشعة الشمس الذهبية وهي تتسلق هامات البيوت لتصبغها بوهجها الساطع الناصع الأخاذ لتعلن عن وجودها وقوتها وهيبتها الأزلية.

• • • •

جلس آدم في غرفة المعيشة صامت وصمته كان كتأمل الحيران يشعر بالإرهاق من ليلة الأمس. أنْهُر أعدت له فطور خاص نقلته في غرفتهما التي لم يناما فيها حتى الساعة. دينهم يمنعهم من ممارسة حقوقهم الزوجية إلا بعد أن يصطبغان. وها هما يهمان بالذهاب إلى معبدهم.

كانت أجواء المعبد مفرحة كطلعة الشمس على حقل سنابل الحنطة. لبس آدم ملابسه البيضاء بمساعدة أخيه مروان ونصير؛ تلك التي تلبس في هكذا احتفالات تتعلق بالصباغة. أنْهُر ذهبت إلى غرفة أخرى بصحبة أختها سارة التي لم تتركها، ساعدتها في ارتداء حلتها البيضاء... وبدأت المراسيم الدينية الجميلة التي مازالت تُتبع حتى يومنا هذا من عهد يوحنا دون تغيير، مما يعطي لهذه الطقوس خصوصيتها الفريدة في الحياة والتجدد رغم قدمها. أهل المتزوجين وأصدقاؤهما من حولهما يغنون ويرقصون ويهلهلون ويطبلون وبهما مسرورون... استمرت الطقوس حتى ساعة متأخرة من الظهر، بعد أن صفق شيخهم الديني رأسيهما

ببعض تسع مرات تعبيرًا عن الاتحاد النفسي والروحي في الولادة الجديدة من خلال الزواج، أي، سيصبحان نفس وروح واحدة في جسدين والرقم تسعة يرمز لأشهر الحمل ومن بعدها الولادة الجديدة... في جلسة ملهمة يحسدان عليها تحت خيمة من القصب ترمز إلى بيت العدالة معدة لهذا الغرض، آدم معطيًا ظهره لأنْهُر بتلامس أخاذ، يتعاهدان على الأمانة وعدم الخيانة، ثم كسر مروان حسب العرف الطقسي الديني بوقفته التي كان ينتظرها وهو خارج الخيمة جرة الفخار تعبيرًا عن بدأ الطقوس الدينية كون تقرأ حروفهم الأبجدية مع كل نص ديني، كسر الآنية الأولى قرب مجلس العريس ثم كسر الأخرى قرب مجلس العروس... وهكذا أصبحت أنْهُر زوجة لآدم بعد طول عذاب ومحاولة انتحار فاشلة قابلها إصرار وحب وإرادة صلبة كأنها صنعت من الفولاذ لتحقيق ما كان يحلمان به وتحقق لهما ما كانا يصبيان.

• • • •

وصلوا البيت بعد الظهر منهكين، كان التعب قد جاء على آخر ما تبقى من قواهم جميعًا. لم يطلبوا أكلاً أو شربًا، أرادوا الاستلقاء والنوم فقط. لم يشعروا بعد لحظات قليلة إلا وأنهم قد غطوا في نوم عميق كيفما أتفق كالقتلى.

آدم غيّر ملابسه، حاول النوم بجانب أنْهُر ولم يستطع، الأرق كان يجعله يتقلب، الأفكار تدور في رأسه لا يعرف كيف يوقفها، هو لم يكن يفكر بشيء محدد. أنْهُر انتبهت لذلك، حاولت أن تأخذ وتعطي معه في الكلام لتريحه، هي تعرف بأن الأهل كانوا ينتظرون منهما عمل شيء لابد منه في حال كهذه. آدم يعرف ذلك أيضًا، ربما كان يفكر بالأمر ذاته يقلّبه دون أن يتوصل إلى قرار بشأنه، هو لا يعرف كيف يبدأ، أنْهُر لا تزيد عن خبرته مثقال ذرة، إذن كلاهما جاهلٌ بالأمر المطلوب فعله والأهل ينتظرون، هم نائمون وينتظرون، عيونهم مغلقة وأذهانهم متفتحة، الشرقيون يبقون شرقيين، عاداتهم وتقاليدهم غير أخلاقهم، يهتمون أحيانًا بالعادات أكثر من الأخلاق وهم لا يعلمون، على الرغم من أن زوجة الشيخ الذي قطع لهما المهر كانت قد فحصت عذرية الفتاة قبل ذلك، وإلا ما كان الشيخ ليتم زواجهما، طقسهم الديني هذا أحد أهم الأركان التي بها يؤمنون بالإضافة إلى الصباغة بالماء الجاري، إذن كان

على آدم أن يحسم الموقف بفعل لابد منه، هو لا يعترف بهذا الأخير ولا يحبذه، كان قد أخبر أهله قبل ليلة زفافه بأن لا ينتظر أحد على باب غرفته، نوه بشكل حاسم:

- من يقترب منكم سأزعل عليه، من يحاول أن يلمّح ولو بحرف حول هذه المسألة سوف لن أكلّمة في المستقبل، حذرهم، وحذره كان لا نقاش أو مزاح فيه، عبّر عن رغبته التي هي رغبة أنْهُر كذلك.

حاولا النوم بصعوبة ولم يقدرا. كان شعر أنْهُر منثورًا، مفروشًا ويغطي وجه آدم وهو ممدد بجانبها، عبّ من رائحتها، لأول مرة يقترب منها، يدس رأسه تحت شعرها المتموج. قبّلته أنْهُر بحنية، هي لا تجيد التقبيل، خجلت من فعلتها، كانت مجرد محاولة شجاعة منها، آدم يعرف كم هي زوجته شجاعة وجريئة، لكنها لم تكن تجيد التقبيل، قال لها ضاحكًا مماحكًا:

- ما هذا؟
- عن ماذا تتكلم؟
- هذا ليس تقبيلاً بل تهميسًا(•)، محاولة نظر وسط طريق أظلم وصاحبه لا يملك عصا ولا عوينات!.
- خوش. أخجلتني. لماذا هكذا؟
- أعتذر منك. سألها:
- هل شربتي حبة منع الحمل!.
- لا توصي حريص على ماله.
- أنتِ رائعة كالسحر، كالأفيون.

ضحكت ثم نبرت:

- وماذا بعد؟
- أشياء أخرى لا يحتاج المرء فيها إلى الكلام!، ثم دنى منها، قرّب شفتيه من شفتيها، التقت الشفاه، عضهما بحنية، شرب من رحيقها، أنْهُر ذابت كشمعة، لم تعرف كيف تستجيب، أعطت نفسها، بل روحها قبل جسدها، غاصت في عالمه،

(•) تهميس: يتلمس المرء طريقه

هي لا تريد غير هذا، أن تكون معه مثلما تندمج قطرتين من ماء لتصبح واحدة، هذا هو حلمها، أملها، وها هي تعطيه نفسها، روحها، جسدها وكل ما تملك من كيان... ولم يشعران إلا وهما عاريان، يحاولان ممارسة الحب ولا يعرفان، خبرتهما واحدة ومتشابهة في مثل هذه الأمور، آدم قرأ كثيرًا عن الزواج وسلوكياته وممارسة الحب والكيفية التي تجعل الزوجين راضين حد الارتواء ومن مصادر طبية موثوق منها، لكنها تبقى مجرد كتب وأشياء نظرية، في واقع الحال لا شيء، جهلهما كان مطبقًا كالكون قبل التكوين، فراغ لا حدود له، أفق خاوي لا يحسب ولا يمكن رؤيته بالعين المجردة، مجهول حد الظلام الدامس، هذه هي حقيقتهما البريئة في الأمور الجنسية قبل الزواج، يهمس أحدهما للآخر:

- كيف؟

- لا أعرف!

- من هنا.

- لا!.

- لا... لا أعتقد.

- أفعل شيئًا.

- أحاول.

- هيا... كلي لك.

- نعم، لا تتحركي، إهمسي بأذني فقط، تحكمي بإرادتك، لا تصرخي، سيسمعوننا.

- لا يهمني. أنت حبيبي وزوجي الذي عشقت.

انبعثت منها رائحة أنوثة عبقة، متفجرة، صاعدة، لم يشعر بأنها ستتسامى أو تزول إلا بعد أن يسكر بها، يشبع منها، رعشة، إحساس لا تقدر الكلمات على شرحه، تأوهات خرساء كروح تريد مفارقة جسدها، أن تهرب من سجانها، تكسر قضبان حبسها، كونها، عالمها الذي حكم عليها بالسجن كل هذه السنين، تريد أن تطير في رحاب لا تقال بل تحس، لم تخلق بعد أبجدية لوصفها، ليس هناك من ثمة حاجة للإنسان الذي على شاكلة آدم وأنْهُر إلى لغة التعريف في لحظات تجلي كهذه؟... أنَّ هو الآخر، اهتزّ، ارتعش، رجفت أوصاله رجفة لا شعورية، فيها لحظة سعادة من تطأ أقدامه الجنة، سعادة لم يعرفها من قبل، كيف حصل هذا لا يعرف، استفاق،

قبّلها من جبينها، مرّرَ يده فوق رأسها، مسد شعرها، ضحكت أنْهُر، تورد وجهها، تمطت وهي تشعر بأنها وهبت لمن أحبت واقترنت ما كانت قد حافظت عليه طوال عشرين عامًا، سعادتها فاقت كل تعبير، لو سألتها عن شعورها، لما استطاعت أن تصفه لك، كان كيانها كله ينده عن فرحة، عن نصر، عن عملية خلق لا يفقهها إلا من صان كرامته وإنسانيته كل هذه السنين، ثم وهبها لشخص أصبح كل حياته القادمة. آدم كان يشعر الشعور ذاته، بانت على حركاته، من ضربات قلبه، تنفسه وحتى عندما كان يطبق جفنيه ويفتحهما... وما أن نزل من غرفته حتى تفاجأ بوجود أمه أمامه، سألته بلهفة رغم تحذيراته:

- هه... يا آدم؟. فهم ما تروم من وراء سؤالها، قال مقتضبًا ورأسه إلى الأرض:

- كل شيء تمام يا أمي... علت الزغاريد وتجمهر الجمهور حوله من جديد يدبكون ويضحكون ويصنفون(•) ويسمعونه من حلو الكلام أحلاه.

• • • •

في صباح اليوم التالي، الاثنين، وبعد أن تم عقد قرانهما عند الشيخ في معبدهم واصطباغهما بالماء الجاري على جرف نهر دجلة، أخبر أهله بنيته في السفر لمدة أربعة أيام مع زوجته.

كانا قد اتفقا قبل حفلة زواجهما بأن يقضيا بضعة أيام في منطقة سد الكايزر الموجود في الموصل بعد ينتهيان من كل المراسيم والطقوس. الحقيقة، كانت تلك فكرة سارة. هي التي أشارت لهما بذلك من خلال خبرتها وتجربتها التي قضتها في ذلك المكان عندما تزوجت، مدحت به وتحمست جدًا لأن تعطي انطباعها ذاك لأختها كي تذهب لتصطاف مع آدم هناك بعد إشهار زواجهما وإتمام طقوسه التي لابد منها.

• • • •

(•) يصنفون: يمازحون

آدم لا يعرف بالضبط أين يقع سد الكايزر. عرف من سارة بأنه في الموصل، غير ذلك يجهل عنه كل شيء جهله سر عدم تجاذب وتنافر الكواكب منذ عهد النشوء.

استقلا تاكسي، توجها إلى جراج العلاوي وسط بغداد. هناك سأل عن مكان سيارات الأجرة التي تقله إلى هدفه، جواب سائقي الأجرة كان واحدًا، لا توجد سيارات تصل السد، لكن، يمكن السفر أولاً إلى الموصل، ثم من هناك تجد طريقه ما توصلكما إلى ما تبغي. قرر أن يستقل تاكسي مع مجموعة من الركاب لتخفّ عليه أجور النقل واشترط أن تكون السيارة مجهزة بالتكيف، أحدهم اقترب منه قائلاً:

- سيارتي هذه التي تراها من نوع "شوفرليت كندي" مجهزة بالتبريد، يمكننا بعد أن نوصل الركاب الآخرين إلى الموصل نستمر في طريقنا حتى سد الكايزر وتقولون لي متى ترجعون وقتها أكون في انتظاركما لنرجع إلى بغداد كما سنذهب. نظر له بارتياح، أشار إلى أنْهُر يطلب منها رأيها، أجابت بالإيجاب، الرجل قدم لهما عرض أكثر من جيد لم يتوقعانه. جلس آدم بجانب السائق وأنْهُر إلى يمينه عند شباك السيارة، فيما جلس في الخلف ثلاثة جنود وانطلق السائق بسيارته ومحركها يهدر وهي تشق الطريق مبتعدة عن بغداد باتجاه الشمال...

ارتفعت الشمس بأبهة ومهابة، الطريق بدا من بعيد كالسراب المتراقص، السيارة كانت ملئى بالركاب، آدم يجلس محشورًا بين السائق وأنْهُر، ومسجلة السيارة تصدح بأغنية مكرره للمطرب التركي إبراهيم طاطلس، مطلعها يقول: مافي... مافي، جوق مافي(•). تفصد جبينه بالعرق، حاول أن يغير من جلسته ولم يسعفه المكان، سأل السائق بود:

- هل يمكن لك أن تفتح جهاز التكيف؟

- مهلا بابا، الجو ليس حارًا كما تتصوره ليستدعي فتح جهاز التبريد في وقت كهذا.

- نعم، لكنك هنا سائق ونحن ركابك، زبائنك وما عليك إلا تلبية طلباتنا ورغباتنا.

- ومن يستطيع أن يقول عكس هذا، لكن في الحقيقة لابد من أن أتوقف أولاً!.

(•) مافي مافي جوق مافي: أزرق أزرق كثير الزراق

ـ تتوقف!، ما الداعي لذلك، أعني، ما دخل التوقف بفتح مكيف السيارة؟!

ـ بابا، أنا لم أعنِ ذلك، بل أردت أن أقول، بأن قايش(•) كومبريسر التبريد لم أشده، موجود في صندوق السيارة، عندما أتوقف في المحطة القادمة للاستراحة، سأضعه في مكانه ثم يمكننا التمتع بالبرودة التي تبتغيها.

مدمدمًا علامة عدم الرضا:

ـ لم تقل لنا ذلك قبل أن ننطلق.

ـ حسنًا، سأفعل ما تطلبه مني عند الاستراحة في محطة المسافرين القادمة... ورفع صوت المسجلة، فصدح إبراهيم مهلهلاً وهو يرطن بالتركية: مافي... مافي... جوق مافي.

في الاستراحة لم يرَ آدم السائق، إختفى عن الأنظار، توارى، لم يعثر عليه، بحث عنه دون جدوى، أنْهُر قالت له برنة كرنة الذهب:

ـ اتركه يا حبيبي، دعه، لا نريد منه شيئًا، لا تلاسنه، سنكون بعد قليل في الموصل ونحن غرباء عنها، لا أحب المشاكل.

ـ لا تقلقي، لن أتسبب بمتاعب، أمسكها من يدها وذهبا إلى مطعم المحطة.

رجعوا إلى السيارة، همهم السائق بعد أن اعتذر من الجميع، قال كاذبًا:

ـ شعرت بمغص فجائي جعلني أطلب مساعدة صاحب المحطة، هو صديق حميم لي، أعطاني بعض الحبوب المهدئة، لن أستطيع من وضع قايش التبريد في مكانه، محرك السيارة حار جدًا، لمسته فاحترقت أصابعي، سنضطر لمواصلة الرحلة دون تبريد، لكنني أعدكم بأنني سأنطلق بسرعة الريح، وقتها لن تشعرون بالحرارة... شغّل مسجلة السيارة اللعينة مجددًا، نطّ صوت طاطلس يردح بالتركي كأنه لا يريد أن يهجع... لكن الرجل أفى بوعده، فبعد أن نزل الجنود في جراج المدينة في الموصل، غيرا مكانهما، جلسا في المقعد الخلفي، شعرا بالارتياح، استمر السائق بالقيادة، هدفه كان سد الكايزر ولم يقبل منهما أن يتخاصمان على سعر الأجرة موجهًا كلامه لآدم بالتحديد:

(•) قايش: سير من الجلد يربط ويعشق مع محرك السيارة كي يدور معه ليعمل

بابا، ما تعطيه لي أوافق عليه. أنا لست برجل طماع، لن أفتح خشمي(•) بكلمة... وأضاف: لا تنسَ أن تحدِّد لي وقت رجوعكما كي أنتظركما في نفس المكان الذي ستنزلان عنده.

لم يفِ بوعده ولم يحضر.

(•) الخشم: الأنف

(٣١)

قبل أن ينطلقا في رحلتهما نحو سد الكايزر اتصل نصير بأخيه آدم يسأله عن موعد رجوعهما. لم يستفسر منه سبب ذلك، فهم بأنه مجرد من باب الاطمئنان ونسى الموضوع. وصلا المنتجع، كلاهما تفاجأ من حيث خلوه من كل معالم الراحة أو السياحة، لم يكن سوى بضع شقق متناثرة، متباعدة الواحدة عن الأخرى وشوارع عارية من المصطافين، فراغ مروع مخيف في منطقة نائية شبه مهجورة، كان هذا شعورهما وانطباعهما منذ اللحظات الأولى التي وطأت أقدامهما أرض السد.

حلّ الغروب، ودعتهما الشمس، انهت عملها دون أن تسألهما، لماذا أشرقت أو غربت؟ هذا شأنها، قوتها تكمن في سرها. الجو أكفهر، الشوارع لم تكن مبلطة بالإسفلت، الغبار تراه في كل مكان، بل تتنفسه ويملئ فمك ما أن تتحدث، يصطك بأسنانك، شعور بالخوف والوجوم كان مسيطرًا عليهما، وما أن استلما مفاتيح الشقة بعد مراجعات بسيطة قادها آدم مع موظف الاستعلامات للمنتجع حتى شعرا بالراحة بعد أن قفل آدم بضغطة قوية الباب، أحكم إغلاقها بالمفتاح بشكل لا إرادي كأنه هارب من شيء يلاحقه، أنْهُر أحست به، حاولت أن تقلل من عبوسه وتوجساته، قالت:

- الطريق طويل انهكنا، لكن هذا شعور مؤقت، سيزول سريعًا ما أن نأخذ دشًا معًا، وأضافت: لا تفعل شيئًا، أخلع ملابسك وادخل الحمام بعدها سأعد شيئًا نأكله، سنشعر بالراحة، أنا متأكدة، نستلقي قليلاً ثم نعدو خارجًا نبحث ونتفرس الأشياء التي حولنا.
- أي أشياء سنراها أو نبحث عنها، لم أرَ شيئًا يستحق النظر. لقد خدعتنا سارة، تراها لم ترتح وأرادت لنا ما أصابها!. سامحها الله، كان بإمكاننا أن نصطاف في الحبانية، على الأقل نعرفها ولنا فيها ذكريات جميلة... قاطعته ضاحكة:
- تقصد أغنية عبد الله رويشد؟ التي مطلعها يقول "قلبي معك يا مشغل البال ملتاع"... آه... ما أجمل تلك الأيام.
- نستطيع أن نستعيدها متى ما نشاء لأنها ملكنا!.

- هذا صحيح، هيا... إلى الحمام، لقد أحضرت ما نحتاجه.

داخل كابينة الدش وهما عاريان وجهًا لوجه سألها والماء يسقط عليهما كالمطر:

- ما هذا؟

- ماذا؟

- هذان اللذان أراهما منتصبين أمامي يلامسان صدري بوقاحة!.

- عيب. اخجل. لا تقل ذلك.

- كيف يعني لا أقل ذلك، دعيني أصفهما...

- لا تصف شيئًا.

- هما يشيران لي ويطلبا أن آكلهما عضًا... أنصتي لهما وستسمعين بنفسك... أنا لا أدعي، بل أقول الصدق... اسمعي فقط... هل صدقتني الآن؟، قال ذلك وهو يخفض رأسه إلى مستوى صدرها.

ضحكت. غطت صدرها بيدها، رفع يديها برقة محببة، إستدل طريقه في الولوج، هي عرفت كيف تمتص نرفزته، عالجتها بذكائها، حوّلتها من امتعاض خارجي إلى لذة داخلية، إلى سيمفونية من السعادة لا يرغب بأن تنقطع عنه مدى حياته، مارسا الحب وقوفًا بنشاط وهمة لم تتوقعها أنْهُر منه بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة المتعبة.

• • • •

بعد العشاء، تمشيا سويًا نحو المجهول. الصمت كان الوحيد الذي يستحل المكان. الشوارع الفرعية بين الشقق تخلو من الأشجار، الأرصفة غير مزروعة بالحشائش كما في الحبانية، قال آدم لأنْهُر ربما لأن المنطقة حديثة الإعمار، أجابته، هذا واضح من مواد البناء التي مازالت منتشرة هنا وهناك بغية استكمال المشروع، في هذه الأثناء وصلا إلى منطقة مرتفعة من الحصى يقابلها بركة من الماء كبيرة، ظن آدم بأنها غير راكدة لزرقة ماءها وصفائه، أنْهُر عجبها المنظر، أشادت به، سألته أن يجلس، أرادت أن تستمتع برومانسية الطبيعة، حيث الهدوء والصمت يغلف

الأجواء ويستعمرها، تلة الحصى، بركة الماء التي يجهلون منبعها تمتد عبر حدود بصرهما حيث الأفق السرابي كأنها بحر هادئ الأمواج.

اتكأت على كتفه بجلستهما الوديعة، قالت:

- ما الذي شعرت به قبل أن ندخل غرفتنا بعد رجوعنا من المعبد وقطع الشيخ مهرنا؟

سرح، أخذ صفنة غير قصيرة، ثاب لوعيه، قال:

- قررت لحظتها أن لا أمسّك، لن اقترب منك، أردتك أن تكوني كما أنتِ، عذراء صافية كالشهد النازل من نحلة... ضحكت وهي تضع يدها على فمها القرمزي:
- كيف يمكن لك أن تقرر قرار كبير كهذا دون أن تشاركني الرأي، أضافت: ومن قال لك بأني سأرضى بهذا العذاب من أجل شيء غير صحيح ولا هو بواقعي.
- أعرف. كنت في تفكيري أناني. السبب كما قلت، أردتكِ أن تبقي ناصعة كالورقة البيضاء... قاطعته:
- الورقة البيضاء التي تعنيها تكون لا معنى لها لو لم يلطخها حبر الأفكار التي تجعل من الإنسان غاية، عاتبته بحنية: قل لي، ما فائدة الصفاء من غير نضال؟ هل يمكن أن يكون للنقاء أهمية إذا لم يمتزج بالاستعداد والتضحية؟ هنا لا استثني من كلامي حتى الوعي، فالوعي لوحدة غير كافٍ، لابد من أن يقارن بالحركة، ما فائدة أن يكون الإنسان واعيًا وتنقصه جرأة الإقدام؟ سيكون تمامًا كمن لا وعي له، واستطردت كأنها تناديه بشوق عن بعد:
- حبيبي، لا تفكر برومانسية عالية، الواقع مر، يتطلب منا العمل والإنتاج، النضال والكفاح، الأهداف لا تتحقق فقط بالنوايا، حتى لو كانت الأخيرة حسنة، لابد من فعل يقوّمها، يجعلها حقيقة، الطحين لا يؤكل إلا بعد أن يخلط بالماء والملح، يعجن ثم يخبز، وقتها فقط نعيش به، المادة وسيلة ونحن بإرادتنا نحولها إلى غاية سامية. قاطعها بقبلة، صاحت به:
- ماذا تفعل؟... وهي تبتعد عنه بدلال.

- أقبّلك. زوجتي، حبيبة قلبي وأقبّلها. الله ينظر إلينا ولم ينزعج، لم تبد منه أي إشارة لغضبه، انظري إلى السماء، يرفع رأسه إلى الأعلى، هل تجدين علامة أو أي شيء يوحي بغضب سبحانه... أبدًا... ثم همّ بتقبيلها مجددًا، اقتنعت، عندما تقتنع

تستسلم، تعطي دون حساب، ذابت معه في قبلة طويلة، قربّها منه أكثر، طوقها بكلتا يديه، نسيا نفسيهما، العالم ما عاد موجودًا، الكون تسامى، أصبح في لحظة بالنسبة لهما مجرد ضباب، عالم وهمي لا أركان له ولا جاذبية... بقيا هناك حتى ساعة متأخرة من الليل ولم يشعران بالبرد أو الوحشة.

• • • •

أهم قرارين اتفقا عليهما أثناء إقامتهما في السد كانا: عدم الإنجاب والهجرة... الهروب من العراق بأسرع وقت ممكن كان محور حديثهما. الهدوء والسكون الذي كان يلفح المكان ويسيطر عليه ساعدهما على اختيار هذين القرارين الصعبين الذين سيغيران حياتهما. هما يعلمان بأن الأمر ليس بهذه السهولة. خاصة فيما يتعلق بدراسة آدم الجامعية غير المنتهية، والسفر تحت هذه الظروف ليس أمرًا عاديا في العراق، جواز السفر لا يحصل عليه العراقي بسهولة مثل وثيقة دخول المرء الجنة. الأهم والأصعب أمه؛ تلك الإنسانة المتعذبة طوال حياتها. هي رأت الفرحة وذاقتها بزواجه، حلمت بأنها ستعوض صبرها لفقدان ابنها سعيد مبكرًا بأسرة آدم عندما تكبر وينجب لها أطفالاً تربيهم وتحرس على رعايتهم، كان هذا أملها، تريد تحقيقه، أن تلتهي بأشياء مفيدة راقية كالأمومة وحضانة الأولاد. فكيف سيكلمونها؟ كيف سيقع خبر كهذا عليها؟! هذا ما جعل مهمتهما القادمة شيء مثل اللعنة أقرب إلى الاستحالة.

السائق الذي أوصلهما قبل أربعة أيام لم يصل. انتظروه في المكان والوقت الذي حدده من قبل أكثر من ساعة ونصف ولم يحضر. آدم ذهب إلى استعلامات المنتجع بعد انتظار يائس، طلب مساعدتهم في نقلهما إلى مدينة الموصل حيث جراجها الرئيسي. أجابه الموظف ببرود وجده آدم مصطنع:

- هكذا خدمات غير متوفرة هنا!.

انفعل، صاح به:

- كيف يعني؟ هذا منتجع سياحي، فيه الناس يصطافون، منهم الأجنبي ومنهم من العراق، كيف تعملون؟ ما هذه الخدمات الغريبة التي تقدمونها لزبائنكم؟ سمعة

المنتجع وكما هو واضح مازال غير مكتمل البناء على المحك الآن، وناح: ستتناقل الألسن عن أمور كهذه ويشاع صيته بالسوء.

- هذا ليس شغلنا.

- وما هو شغلكم؟

- المحافظة على النظام والأمن وتسليم مفاتيح الشقق وأخذها قبل الرحيل، هذا ما فعلناه معكما بالضبط دون تقصير كما نفعله مع الجميع.

- هذا صحيح، لكننا في منطقة مقطوعة، لا تصل إليها حافلة ولا تاكسي، ومن لا يملك سيارة أو يأتي بدونها، سيلاقي صعوبة في التنقل كما وضعنا.

- نحن نعلم. الأمر ليس في يدنا.

- والآن!!

- لا شيء... وتابع على مضض:

- الانتظار حتى تمر سيارة توصل مصطافين جدد، لا تزعل عليّ، أنا عبد المأمور، موظف، لا سلطة لي، أقول الصدق وليس شيء آخر. ختم خطبته: هذا أملكما الوحيد!!.

• • • •

في طريق العودة اتفقا مع سائق السيارة أن يوصلهما إلى منطقتهما في حي البنوك بعد أن يمر أولاً بجراج العلاوي لينزل الركاب الثلاثة الذين شاركوهما الرحلة، ثم يستمران بطريقهما ويدفع لصاحب التاكسي أجرة إضافية... في البداية لم يوافق. كان السائق شابًا لا مزاج له للعمل. لكن بعد إلحاح ورفع الأجرة قبل العرض، فبقيا بالسيارة حتى وصلا.

هناك، في البيت كانت المفاجأة تنتظرهما، وجدا جمهور غفير يستحل البيت. في كل مكان. في الحديقة، في غرفة المعيشة. في الممرات. واقفين وجالسين وزجاجات البيرة في أياديهم وأمامهم، وصحون المزات منتشرة بأنواعها وصوت المطرب العراقي المعروف "س. ج" يصدح بأغاني عراقية جميلة مطلعها "أفز بالليل، نص

الليل، اهجس نار بضلوعي، أوجد بيدي ما أللگاك، أسقي فراشي بدموعي(•). "، والجمهور يردد ورائه مشجعًا، منتشيًا، ومسلطنًا... حتى تقدم آدم من أخيه سائلاً:
- ماذا يحدث؟

كان نصير ملتهيًا، مشغولاً لا وقت لديه، غرفة الضيوف مغلقة وفي يديه مفاتيحها، كانت مزروعة بصناديق الشرب المختلفة، العرق، البيرة المثلجة والويسكي... ذهنه شارد من كثرة الطلبات، عندما رأى آدم صاح به مغتبطًا ولم يجبه عن سؤاله:
- ها هو عريسنا قد حضر. تجمع حوله بعض الضيوف لتهنئته وتقديم التبريكات له، صافحهم آدم وتقبل منهم أمنياتهم بروح ضحوك، قال:
- سأذهب لأغير ملابسي، ثم أرجع لنكمل السهرة ونحتفل معًا، وأضاف بحنكة متمرس عليها في أوقات مجاملة كهذه: من يترك هكذا مناسبات؟ انتظروني، لا تبدأوا، سأنزل حالاً ومعي ملاكي الذي يحرسني أنْهُر... كانت الأخيرة بجانبه، لكن النسوة اقتلعوها من مكانها، هي لا تريد أن تغادر آدم للحظة، لكن، لمن تقول هذا؟ ذهبت معهن وهي صاغرة... أول من تلقفها أختيها نداء وسارة، اختفوا فجأة عن الأنظار، نبرت سارة بلهفة محمومة وهي تستجوب أنْهُر:
- هيا يا حية رقطاء، احكِ لنا، كيف كان الحب؟... نداء صححت الكلمة:
- لا نعني الحب النظري!، هذا نعرفه وغالبًا ما يكون غير صادق، نريدك أن تحكي لنا عن الحب الفعلي، التطبيقي، الذي منه تصدر الآهات والتأوهات اللذيذة المسموعة، وتسمع عن بعد طقطقات العظام والسرير تحتكما يهتزّ وتصرّ نوابضه!، هذا ما نريد معرفته، هيا... تكلمي ماذا تنتظرين؟.

عندما نزل آدم لهم، طلب منه نصير أن يأخذ سيارته يبحث لهم عن قوالب للثلج ويحضرها، قال مستدركًا:
- توجه إلى الأعظمية، هناك ستلاقي الكثير، لا تقصر، اشترِ ما تقدر على حمله، لكن بسرعة، المشروبات ستحتر وتسخن، عندها لا يمكن تقديمها لضيوفنا...

(•) تفسير مقطع الأغنية : أستيقظ في الليل، في منتصفه، أشعر بنار مشتعلة في ضلوعي، أبحث عنك، اتلمسك بيدي ولن ألقاك، أسقي فراشي بدموعي.

آدم أراد أن يعتذر خجله منعه، الطريق أنهكهما، وصلا قبل دقائق وهو يرى الضيوف بالعشرات يحتاجون لمن يخدمهم، نصير لم يخبره بما كان ينوي فعله، تفاجأ من وجودهم، أخذ أخوه على جهة ووبخّه بأدب:

- هذا عدد كبير، فوق ما نحتمله، ترى لو سكر اثنين أو ثلاثة وفقدوا رشدهم، ما هي العواقب التي سنواجهها، كيف سنتصرف؟ ومن ثم أنت لم تعطني خبرًا، ماذا عن تكاليف الحفل؟ أنا لا أملك الآن من المال الكثير؟... قاطعه نصير:
- سألتك قبل أن تذهب إلى سد الكايزر مع زوجتك عن موعد رجوعكما من هناك، لذلك، اخترت هذه الليلة للترحيب بكما على طريقتنا الخاصة، قال ذلك وهو يغمزه، ثم تابع: لا تحمل همّ. كل شيء سيكون على ما يرام. لن أجعل واحدًا منهم يصل إلى حالة السكر التي تخاف منها، انظر.. وهو يريه مفاتيح غرفة الضيوف: لن يوزع المشروب إلا بأمري، أنا أعرف لمن أعطي وكم أعطي... لا تقلق على أخيك... همتك معي، احضر لي الثلج ودع الباقي عليَّ.
- وماذا عن تكاليف الحفل؟
- تكفلت بمصاريفه، وريعه سيكون لي أيضًا!.
- هذا يعني من يعطيني هديتي نقودًا أحولها لك مباشرةً؟
- بالضبط... وتكون أنت في السليم، أقصد، لا تخسر ولا تربح. ضحك، ثم هرب من أمامه ليلحق على الطلبات... ردد آدم في سره مهضوما "تجارة مربحة بلا شك، ولكن على حساب أخيه الطالب الجامعي الذي لا يملك سوى عقله ومبدأه في الحياة وستساعده بعد اليوم أنْهُر". تذكرها بوجد حارق كأنه لم يرها منذ سنين.

• • • •

قبل أن يذهب آدم تذكر كلام وسن ابنة أخته فيما يتعلق بمضايقات ظاهر شقيق ظفر زوجة مروان لها، كانت قد تحدثت معه بشكل مقتضب عن الإزعاجات التي كان يسببها لها من خلال نظراته وحركاته ومحاولة التفرد بها، لم يجد آدم يومها الوقت الكافي أو المناسب للاتصال به والتحدث معه، لكن وأثناء دخوله البيت مع زوجته رآه منتصبًا في الممر المؤدي إلى غرفة المعيشة وعينيه زائغتان كأنهما

تبحثان عن شيء ضائع منه، تذكر كلام وسن حوله، لكن طلب أخيه نصير أجّل مشروعه المؤجل أصلاً بالحديث معه ومحاولة التوصل بأسلوبه المتمكن في الإقناع عن حلول ربما ترضي الطرفين في أقل تقدير دون جلبة أو ضوضاء. برقت له فكرة، أشار له بأن يساعده في البحث عن قوالب الثلج وإحضارها من الأعظمية، قبل العرض، توجها معًا بعد أن أخبر آدم زوجته بمشواره المفاجئ وأنه سوف لن يتأخر وهو بصحبة ظاهر شقيق ظفر، خطف منها قبلة ألهبت عواطف زميل رحلته الذي ينتظر أن يحدثه في الطريق بشأن ابنة أخته وسن.

كان ظاهر شابًا مريضًا، يعاني من انسداد وضيق في مسامات جلده، كثيرًا ما يتجنب الحرارة المباشرة، اقتله ولا تقل له قف أمام قرص الشمس نصف ساعة، لأنه سيتعذب ثم يموت. أصفر الوجه، شاحب البشرة كالمسلول، قليل شعر الرأس، يضحك بلؤم دون شعور، يزبد عندما يتحدث، ولو استرسل في الكلام ونسى نفسه يتطاير الرذاذ من فمه دفعات كمن يعطس بقوة. ضعيف البنية، ُسرّح من الجيش بسبب مرضه، يحتاج باستمرار أن يكون قريبًا من الماء، يرش بدنه ويغمسه به كلما سنح له الظرف، بعدها ينتعش ويستطيع أن يكمل يومه، كالسمكة، هو لا يقدر أن يحيا بلا ماء، يجف ثم يموت لو أبعدته عن مصدر الحياة لساعات.

أثناء الطريق فتح آدم معه الموضوع الذي يلوب بداخله ويتقلب كسيخ اللحم على الفحم، قال بلا مناورات وبشكل مباشر كالسهم عندما يطلق نحو هدفه:

- أراك يا ظاهر معجبًا بابنة أختي وسن. هل ما أقوله صحيحًا؟ وتابع بلين: نحن في عمر واحد تقريبًا، يمكنك مصارحتي، وربما أستطيع مساعدتك، بشرط، أن تكون واضحًا... آدم لم يعطه مجالاً للمرواغة، قال له ما كان يجب أن يقال، هو يعرف تمامًا، مثل هذه الأمور ومع شاب من دينه يجب أن يكون معه صريحًا ومباشرًا.. ظاهر تململ، اهتز بدنه وهو بجلسته داخل السيارة، تفصد العرق وانتشر كقطرات من الدموع بسرعة على جبينه، سعل، ثم أزّ متملقًا بوجل وخشوع كسعفة نخيل منحية كأنه يستغفر وهو يلبس قناع الجد يحملق بآدم بإعجاب مستثار ونظراته تحمل نبض قلبه:

- باغتني، ثم أردف: أعجبتني وسن من النظرة الأولى، في أول زيارة لكم عندما دعوتمونا ليتعرف أخوك مروان على أختي ظفر قلت في نفسي، هذه هي التي كنت أبحث عنها.

- عظيم، هذا يعني أنت صادق في مشاعرك اتجاهها، أمر يستدعي الاحترام والتقدير، خاطب نفسه سارًا "ابنة أختي وأعرفها، لا تهتم، لا له ولا لغيره، همها لا يتركز على شيء محدد، تعيش حياتها كما هي بلا أدنى اكتراث أو تفكير لمن حولها، تحب جدتها وتسكن معها، تتخطى الثامنة عشر وهي تعيش عندها كأنها ابنتها، وظاهر هذا لا تطيقه، لا تتحمل نظراته، وعدّتها أن أتدخل وها أنا أحاول". ثم بصوت ملئه الإشفاق:

- لكن، هل أنت جاهز؟ أعني، هل ظروفك تسمح للزواج؟، فأنا وكما أعرف بأنك عاطل عن العمل، مرضك اللعين الذي أتمنى أن تشفى منه لا يسمح لك بالعمل في أي مكان أو زمان وأنت أعرف مني بشأنك.

كإخطبوط هائج كثير الأطراف بربر متزلقًا:

- ما تقوله صحيحًا، أقدره، بل أشكر تجاوبك معي وسماعك لي، لم أكن أتصور بأني سألاقي من أسرتكم من يتحدث معي بهذا الأسلوب الهادئ... ضحك آدم، عرف قوة سحره على الآخرين من خلال أسلوبه الرصين، قال:

- لا تقلق. لو أشرت لي بالبدء في جولتي سأفعل. سأكلم أهلي ووسن كلاً على انفراد. لكن أنتظر منك إشارة البدء أولاً، عليك تقع المسؤولية في اختيار القرار ومقدرة تحقيقه، هذا في نظري أهم شيء عليك فعله، أن تدرس الموضوع من كل جوانبه ثم ترد عليّ، ما رأيك؟... لم يتوقع آدم رد فعل ظاهر بأنه سيكون هكذا، بكى كالأطفال وحاول النهوض لتقبيله، صاح به: .

- ماذا تفعل يا مجنون، نحن في الطريق، دعني أركز على الشارع.

ثم بهدوء استطرد:

- فهمت عليك، لنغلق الموضوع الآن، نكتفي بهذا القدر، ولننظر بالأمر الذي جئنا من أجله...

ثم أشار له بيده:

- هناك من يبيع قوالب الثلج، هل تراه؟ لنتجه إليه...

بعد منتصف الليل فرغ البيت من الحاضرين إلا من بعض المقربين من الأقارب، لكن هناك من حرّن، سكر وحرن، لا يعرف من في البيت ماذا يريد، آدم يعرفه بالشكل، لكنه يجهل اسمه، غالبًا ما كان يراه في سوق الياهودنگور للصاغة يغني وهو يذرع فروع السوق رواحًا ومجيئا، كانت شغلته يشتري من هذا ويبيع ما اشتراه لذاك، فتراه يراقب الجميع بعينين متلصصتين كأنهما للص كي لا يفوته زبون وفي يده سلعة ذهبية للبيع، تمتع بحاسة قوية في شم تلك البضائع وهي مستقرة في جيوب وحقائب الناس، فيهب ويدب مستعجلاً، جاريًا، ضاحكًا ومسبحته في يده يفرك خرزها غير الأصلية ويطقها الواحدة بالأخرى وهو يقترب من ضحيته ليشتري ما في حوزته... وها هو يلف ويدور حول نفسه يرفض المغادرة. نصير احضر له تاكسي وطلب من صاحبها أن يوصله للعنوان الذي ذكره له، أكد عليه بأنه سكران فاقدًا لرشده ولا يعرف كيف يصل لأهله، أوصاه عليه وأعطاه حق الأجرة من عنده، لكنه يرفض، يصرّ على الرفض ويقسم بصوت مشروخ بأنه لن يتحرك من مكانه وفي نفس الوقت لم يعلن عن طلباته، كل الذي كان يقوله، لا أحد يستطيع إرغامي، أنا... ثم يسكت، لا يذكر اسمه، وربما نسيه، فيرجع إلى البيت وحيث كان جالسًا في الحديقة وهو يترنح بمشيته بالكاد يستطيع الوقوف وحتى هذا لا يتحقق له إلا مائلاً، راخيًا، يمكن للريح البسيط أن تقلبه.

انزعج آدم كثيرًا، الوقت قد تأخر، الجيران نيام، التعب والإرهاق الذي كان يشعر به فوق قدرة الاحتمال، أنهُر مازالت ساهدة تنتظر صعوده إلى غرفته، هي لا تريد أن تنزل وهذا السكران مازال يتوعد بترنحه الخافق، اقترب آدم من نصير قائلاً:

- هل سيجلب لنا ضيفك هذا المتاعب؟

- قلت لك لا تقلق، سأتصرف معه بحكمة، هو سكران فقط، لن يؤذي أحدًا ولا نفسه، ثم غمزه قاصدًا: خذ بالك من عديلك عاصم، أراه يفور كنار في تنور ناويًا الشر، هذا يقلقني أكثر، أتمنى أن تمر الليلة بسلام.

نصير عنده حق، عاصم عندما يقرب الشرب من فمه ينسى أبوه من يكون، كيف الحال وهو قد جرع الليلة من الخمر ما يشربه بأسبوع، كان يغش نصير بحرفيه عالية، هو يعرف كيف يسرق الشرب من جيرانه الجالسين بقربه، كان المغضوب عليه يغير جلسته كل نصف ساعة، فضاع الحساب على نصير، ما أن قاربت

الساعة الحادية عشر حتى بدأت نوازعه الشيطانية بالظهور بعد أن لبس قناع الشر ناويًا العراك... ولولا تدخل أخيه حسام زوج قمر أخت نصير، وقف بوجهه، سحبه بالقوة لما مرت ليلتهم على خير، أستوقف حسام تاكسي، أخذه معه لداره، وترك عائلته عند نسائبه حتى الصباح إيثارًا للسلامة... هذا وقد اقنع نصير ضيفه المحرّن أخيرًا بالذهاب، أصعدة التاكسي بمعجزة بعد أن أشبعه قبلات وهو يتوسل به أن يقصر الشر ويخز الشيطان ويرحل، وأخيرًا أذعن.

(٣٢)

ماذا تكونين يا نفس وماذا يخبئ لكِ الغد ؟ ! " . هذا ما قاله يومًا مكسيم غوركي يسأل لأنه يريد أن يعرف . كل شيء جائز في الحياة ، أن نصادف شخصًا اسمه ضمير لا يملك ضميرًا يجلده أو يحاسبه ، ونلتقي بشاعر بلا مشاعر ، وندرس العلم الذي لا يعلم ، ونرضخ للعقل وهو يهزأ بنا صامتًا وصمته أقوى من أي لغة من لغات التأثير التي نعرفها . والزمن يبقى الوحيد المنتصر الضاحك ، الذكي أبدًا ، الذي لا يعرف الهزيمة ولا تفهم أمياله غير لغة التقدم في حياتها .

لم تمضِ إلا أيام قليلة حتى اتصل ظاهر بآدم يبلغه قراره. هو لم يتراجع عن إعجابه بوسن، يحبها إذن، أراد أن يدافع عن حبه في طلبها للزواج. آدم وعده خيرًا، طلب منه مهله قصيرة يأخذ فيها رأي الأطراف المسؤولة عن هكذا قرار.

بدأت جولته بأنْهُر، الأخيرة فرحت، قالت:

- وسن تستاهل كل الخير. لكن انطباعها عن ظاهر لم يكن جيدًا، هي ترغب لوسن شاب يريحها من العذاب الذي عاشته عند أهلها، كانت وما تزال تعيش في بيت جدتها كأن لا أهل عندها، أنْهُر تشعر بوسن لظروفها المتشابهة قبل زواجها من آدم، تعرف كم تكون الفتاة مكسورة من الداخل وتبغي الحياة لكن المجتمع لا يساعدها في ارتقاء سلماته، قالت لزوجها بصراحة متناهية: ظاهر لا يلائم وسن. هو شخص على ما يبدو مهزوز ومريض، ستظل وسن تعاني من هذه الزيجة إن حصلت، ابنة أختك تحتاج إلى حياة مستقرة وليست قلقة، يكفيها ما عانته لحد هذه اللحظة، ولكن لا بأس بأن تتحدث مع نصير وأمك في هذا الشأن ثم مع وسن على انفراد وهذا حقها. وافقها الرأي. ذهب إلى بيت نصير مع والدته، فتح الموضوع المكلف به من قبل ظاهر وشرح لهما وجهة نظره، قال:

- أنا لست ضد ظاهر ولا ضد عائلته، فأخته زوجة أخي، لكن للموضوع جانب آخر، صورة غائمة، غير واضحة، فالشاب سُرح من الجيش بسبب مرضه، هو

لا يستطيع أن يعمل كأي شخص آخر طبيعي، له ظروفه الخاصة، لا يمتهن أي صنعه، فقيرًا لا يملك غير الثياب التي عليه، ووسن كما تعرفان، تحتاج لمن يأخذ بيدها، يعوضها عن حرمانها كل هذه السنين التي عاشتها بعيدًا عن أهلها بسبب تصرفات أبيها الرعناء، لذلك، أقول هو لا يناسبها والحكم لكما ولها.

نصير لم يكن في مثل هذه الأمور يتمتع بالعاطفة كالحجر، كل ما يفكر به هو المال والجاه، لذلك، اقتنع بسرعة برأي آدم، أثنى عليه، قال:

- عندك حق، هو لا يناسبها، هي تحتاج كما قلت بالضبط لمن يأخذ بيدها لا من يلعب بها كالدهر الذي مر بها، يكفيها ما شاهدته، سأل أمه، قالت:

- رأيي من رأيكم، على الرغم من أني أرى ظاهر شاب لا يعاب عليه شيء غير مرضه، الفقر ليس عيبًا، كنا فقراء وربما مازلنا، لكن وسن وأعرفها، سوف لن تتحمل ظروفه.

رجع آدم إلى وسن يحمل لها الخبر، سألها بمهارة يجيدها بعد أن طلب من أنْهُر أن تحضر الجلسة:

- ها أنتِ يا بطة يسألون عنكِ؟... قال ذلك وهو يتوسطهما جلوسًا على سرير نومه في غرفته وكان المساء قد حلّ وبه تمطت السماء وانتشرت النجوم في حضنه بهية، لامعة، غامزة الأرض ومن عليها كأنها ترحب بهم من علوها، تهمس لهم، تقول، ها أنا النجوم أمل، سأظهر لكم بجلل، أشير لكم أن تتبعوني، تتعلموا مني، أبرهن من خلالي عن عظمة الله وقدرته. استحموا بظلال المساء، الهواء كان منعشًا يدخل القلب، يجعله يهيم مع نداءات لا يسمعها إلا العاشقون...

ضحكت وسن، هزّت كتفيها، بسبست:

- ماذا تعني؟ منْ هذا الذي يسأل عني؟

- كأنك لا تعلمين!

- ظاهر!

- ومنْ غيره يجرؤ أن يسأل عنك؟

- خفضت رأسها، انحنت، اقتربت من أنْهُر أكثر، جعلتها تلامسها، في هذا الوقت بالذات شعرت بحاجة إلى أنْهُر، تريدها أن تضمها دون أن تقول لها، أنْهُر أحست ذلك، طوقتها بذراعيها وقبلتها وهي تهمس في أذنها:
- لقد كبرتِ وأصبحتِ عروس والخطاب يترددون عليك، وها هو أولهم.
- بكت وسن. كانت تتمنى أن تكون والدتها أو أبوها هما من يفتحان معها موضوع كهذا، أنْهُر كانت تشاركها الدموع من غير أن تدري، بل المشاعر كذلك، هي على يقين بأن الإنسان لا يحيا فقط بالخبز. الحب والمعرفة لهما نصيب لا يستهان به لو أراد الإنسان أن يعيش بكرامة. تعاطفت أنْهُر معها، شاركتها شجونها، همهمت وسن ورأسها على صدر أنْهُر ينعم بالدف والحنان:
- لا أريد. ظاهر ليس هو بالرجل الذي أحلم به، قد يكون لطيفًا، لكنني لا أجد ميلاً له. قبّلتها أنْهُر من رأسها، آدم معقبًا:
- هذا رأيي كذلك. بل رأي نصير وأمي. رفعت الجلسة بعد أن اتفقا على الذهاب معًا إلى الأعظمية لتناول الكنافة في محلات الطارق مع عصير الزبيب الذي يعشقه آدم بعد عصير الرمان بعد أن أقسمت أنْهُر بأنها من تدفع الحساب.

• • • •

لم يكن في الحسبان بأن يأتي اليوم الذي تتزوج فيه وسن من شاب أرعن لا يفقهه من الحياة غير المال. فبعد أن رآها في منطقة البنوك التي يسكن فيها، حتى قرر الزواج منها بأي طريقة ولو كلفته ثروته كلها.

وما هي إلا لقائين أو ثلاثة وبحضور الأهل في ناديهم للتعارف الترفيهي داخل حدائق الزوراء حتى تم لهم الاتفاق على الزواج بمهر غالٍ وبوعود في حياة كريمة بعيدًا عن كل منغصات يمكن أن تأتي على تعكير حياة وسن. باءت وعوده كلها بالفشل، لم يفِ بأي وعدٍ منها، عاملها بقسوة رهيبة، كان حيوانًا متوحشًا بهيئة إنسان يدعى ضمير، في الحقيقة لا ضمير له، كان قصيرًا، عريضًا، يخدم في الجيش ولا يلتحق بماله الذي يدفعه رشوة، حليق الوجه، مجعد الشعر، ببراطم غليظة كبراطم الجمل، من أسرة كبيرة، له أخوات جنيات، لا يمكن معاشرتهن إلا

بعد أن تعلن جنونك. كانن شريرات بمعنى الكلمة. تستطيع الواحدة منهن أن تأكل لحم إنسان دون أن يطرف لها رمش. مسترجلات بشكل مخيف. لذلك ما هي إلا أيام حتى استقلت وسن مع زوجها في بيت خاص أجّره ضمير سعيًا للسلامة.

آدم انبهر وقتما وافقت عليه وسن، مفاجأته كانت كبيرة مثل الخيبة، لكن قرار مثل هذا لا يستطيع أن يتخذه بنفسه، وسن هي الوحيدة التي من حقها أن تقرر، كانت واضحة وصريحة، قالت: نعم. أوافق عليه. لا أحبه ولا أكرهه. من ديني وعنده مال كثير، سيعوضني عن حرماني، هو قال ذلك.

ولكن ما مقدار صدقه في تلك اللحظات؟ هذه هي المصيبة التي تشبه حفرة مظلمة وقعت فيها وسن.

ومنذ الليلة الأولى من زواجها حيث كانت معه في فندق المنصور وسط بغداد... اتصلت من هناك بأنْهُر مستغيثة تطلب مساعدتها ونجدتها وهي تصرخ بصوت متهدج:

- خلصوني منه، وحش، حيوان، لا يعرف كيف يتعامل مع المرأة، أرجوكِ يا أنْهُر، تعالي مع آدم وخذوني معكما، لا أريد البقاء معه لحظة واحدة، لا أستطيع، لا يمكن أن يكون ضمير إنسان، لقد انقضَّ عليّ، ضربني، شد شعري، يقول، أريد أن اغتصبكِ ثم أفترسكِ، تصوري... زوجي يقول لي هذا الكلام في أول ليلة من زواجنا؟ وكلما ردد تلك الكلمات لعابه ينفر من فمه ويزداد توترًا وهيجانًا، مجنون، لابد أن يكون مجنونًا، وإلا كيف تفسرين خبله هذا؟!. ظلت تنوح وتبكي وتندب حظها العاثر الذي رماها كما تصف في أحضان رجل قاسٍ لا يفهم من المرأة غير جسدها وحتى الأخير لا يحسن التعامل معه!. وضمير ساعتها وزوجته تتصل بأنْهُر ممسك بعضوه الذكري يهزه ويقول كأنه يغني:

- وهذا... ماذا نفعل به؟ مسألة ترويضه تعود لكِ، اتصلي بأهلك، بل بجدتك أو بآدم، على كيفك، على أقل من مهلك، ماذا وراءها؟ لا أحد ينتظر خلف هذا الباب المغلق، هل تعلمين كم دفعت لقاء مبيتنا هنا؟ وأجاب على تساؤله: لا يهم ما دفعته، أهلك حتى لو أتوا، لن اسمح لأحد بأن تطأ قدميه الغرفة، سأقطعها له قبل أن يطأها، الدنيا ليست فوضى، أنتِ زوجتي، دفعت لأمك ما أرادته لقاء الاحتفاظ بكِ زوجة!، هيا الآن... ماذا تنتظرين، سمحت لك بالاتصال وجاء دوري،

انظري له... هذا الحيوان الهائج الذي بين يدي، يتمطى ويتمدد... كيف هذا!، حان وقت ترويضه وهذه مهتمك يا غاليتي وهو يضحك بتهتك. لم تمض غير سنوات قليلة على وسن حتى امتلأ بيتها بالأولاد، أصبحت فجأة أمًّا لا تعرف من الحياة غير الآمها كأغلب الأمهات العراقيات.

(٣٣)

الظلم هو الظلم، في كل زمان ومكان، لن يتغير.

ولماذا يتغير، إذا كان هناك من يستفيد من وجود الظلم؟!.

بعد إلحاح وتوسل كبيرين قَبلَ آدم هديتهم بمناسبة زواجه؛ كانت عبارة عن سَفرة إلى شمال العراق ومصايفه الرائعة الخلابة الساحرة مع أعز أصدقائه وزملائه في الجامعة التي يدرس فيها.

رحلة قضوا فيها أجمل ساعات حياتهم ببراءة طفولية شاملة كأسماك نهر الفرات، شقية وبهية... تلك الأيام التي جعلتهم يستمتعون بأوقاتهم بشكل ملفت للنظر، نسوا أنفسهم، توقف الزمن في ناموسهم ولم يكن لهم من هم سوى الاحتفال والاحتفاء بزواج صديقهم حتى ساعة اعتقالهم فتغيرت الأمور وسارت في طريق آخر لم يكن في حسبانهم.

كانت زمرته تتكون من أربعة أشخاص والمرح خامسهم، خفيفو الظل، حلوين المعشر، سهلو الطباع وأذكياء. ما أن تحركت سيارة آدم البيضاء من نوع نيسان "داتسن" العتيقة التي اشتراها بعد زواجه بأيام قليلة. أجبروه على القيام بتلك الرحلة معهم بسيارته رغم هلاكها وبطء سرعتها وغازات محركها العادم القاتل الخانق الذي يطلقه خلفها. فحصوا ضغط هواء إطاراتها. أضافوا الماء لمبردها وانطلقوا...

غنت عجلات السيارة فوق الطريق الإسفلتي المغبر، اهتزت عظامهم وهم محشورين بداخلها حشرًا. خشخش محرك السيارة وهو يدور مطرقعًا مطرطشًا ومقرقرًا... وما أن ساروا بضعة كيلومترات حتى توقف آدم في أول ورشة لصيانة السيارات رآها في طريقه.

صلصلوا به ضاحكين كالدجاج السعيد:

- إيه... يا فتاح يا عليم.

بصوت وديع ناح والفضيلة تلمع في عينيه:

- أوه... لا، حلت بكم اللعنة لقد قلت لكم ما تعانيه سيارتي ولم تسمعوا. أضافوا لمحركها كمية من الزيت غالي الثمين وانطلقوا مهللين فرحين برحلتهم وبزواج صديقهم... وكل نصف ساعة كان يفعل الأمر ذاته دون انزعاج كبير كي لا يفسد على نفسه وعليهم هديتهم.

في اليوم الرابع من الرحلة والأخير وعند الصباح بعد أن تناولوا فطورهم من البيض المسلوق مع لبن الشمال المعروف بطعمه اللذيذ، استحلوا مقاعدهم في السيارة حتى خطرت لآدم فكرة لم يتردد في إلقاءها عليهم وتفجيرها بينهم:

- ماذا تقولون لو زرنا مدينة السليمانية حيث سد دوكان؟، وأضاف: فرصة طيبة قد لا تتكرر، فمازلنا في أربيل، هذا يعني أننا سوف لن نبتعد كثيرًا لرؤية تلك المنطقة الجميلة الخلابة التي تأسر القلب قبل العين، بهوائها وجبالها وبحيرتها الساحرة التي نستطيع رؤية ما تحتها بوضوح كأنها من زجاج، ثم صاح بهم مازحًا بانفعال مصطنع:
- ها... ماذا تقولون؟ إنها هدية زواجي كما تعلمون، فلا يحق لكم الرفض.

تنحنح حسين قائلاً:

- أنا شخصيًا لا مانع عندي إذا وافق الآخرون.

أجابه سعد بمرح كعادته:

- وأنا كذلك... لا مانع لدي وهتف: إلى دوكان حيث السحر والجمال والأمان!.

قاطعه عامر مغمغمًا:

- أتقي الله يا سعد... عن أي أمان تتحدث؟ فالعصاة يجلسون على أكتاف الجبال وقممها، يملئون الأزقة والطرقات في الليل هناك، وعند النهار لا ترى لهم أثر كالنجوم، ثم سأل أحمد مستفسرًا:
- ماذا تقول أنت؟

بصدق رد عليه أحمد:

- الحقيقة لدي تخوف فقط من الأوضاع الأمنية هناك، كما نوهت أنت... لكنني سأكون مع رأي الأغلبية، ثم تابع بذات الرنة المتزنة المعروف بها: كما واضح

أن هناك تصويت بالإيجاب للأغلبية، إذن على بركة واهب النعم... علت البهجة على وجوههم، أعطوا لموجة صوت الراديو حسًا أعلى وهو ينشد أغاني وطنية حماسية باسم الكايزر... وإذا بسعد يصرخ بآدم آمرًا:

- أرجوك أما أن تغلق المذياع أو أن تضع لنا شيئًا في جهاز المسجلة نسمعه بدل هذا النواح الذي مللنا تكراره. استجاب لطلبه، ارتفعت الزغاريد، علا التصفيق كموجات من اللهب، الجماعة فرحة بقرارهم وسيرهم ورحلتهم وقصدهم في يومهم الأخير وهم متوجهين إلى سد دوكان...

قبل أن يصلوا بسيارتهم التعبة العتيقة المتهالكة بأمتار قليلة حتى استدار آدم حيث الإشارة المرورية التي كانت تشير بسهم أصفر نحو موقع وجهة السد وبحيرته، لم يتوان في القيادة ولا في الاستدارة حتى وصلوا. ترجلوا مغتبطين فرحين كالعصافير وهي تقف على أقدام أعشاشها في حالة نشوى وانبهار لما لهذه المنطقة من سحر وجمال يعجز القلم عن وصفها.

انقضى وطرٌ من النهار وهم مازالوا غارقين بالنشوة والانبهار حيث المتعة وجمال الطبيعة والسكون الذي يخيم عليهم وكأن روح الله الهائمة فوقهم هي التي تسحرهم، تغبطهم وتحميهم. نسوا أنفسهم حتى هتف آدم بهم بعد أن شعر بأن قيادة السيارة تنتظره، وما يترتب عليها من توقفات كثيرة مملة تتطلب وقتًا إضافيًا... من صيانة والتزود بالزيت والوقود أثناء الطريق، يحاول جاهدًا عدم القيادة ليلاً وهو يحسب حسابه فيما لو صادف وتقطعت بهم السُبل:

- أرجوكم هيا بنا، علينا أن نغادر المكان قبل أن يهبط الظلام، أنتم تعرفون ماذا تعني قيادة سيارة متهالكة كسيارتي!، ناهيك عن انتظار زوجتي لي ونحن مازلنا في شهر العسل، ثم نوه غامزًا وبخبث شيطاني: كل ما فعلته كان من أجلكم ومن أجل صداقتنا.

تكدسوا بالسيارة كيفما أتفق، ضغط آدم على دواسة الوقود بقوة... لم ينطلقوا بسيارتهم إلا أمتارًا قليلة حتى تفاجئوا بدورية شرطة كانت موجودة في جانب من الشارع قبل الاستدارة التي يذهب فيها المرء إلى سد وبحيرة دوكان من الجهة الأخرى تستوقفهم بعناد ووقاحة، بشكل مستفز غير مسبوق، خاصة عندما تقدم من

آدم ضابط أصلع قصير بشاربين ثخينين عكرين تثيران الرعب والاشمئزاز يأمره بلهجة رعناء غير مريحة بالترجل من السيارة لتفتيشها.

نزل؛ وقف محاذيًا لسيارته. تجمع جمع غفير من الجنود حولهم. لا يعلمون من أين أتوا بهذه السرعة كالجراد... بدءوا بتفتيش السيارة بعد أن طلب صاحب الشاربين العكرين من البقية الترجل أيضًا، لبوا طلبه دون أن ينبسوا ببنت شفة... طال بهم الانتظار وقوفًا ولم يحدث شيء سوى قلب محتويات السيارة، تقدم الضابط بصلعته الرمادية من آدم يسأله برنة متمادية:

- لماذا شعرك طويل هكذا كشعر امرأة؟!

- ما دخل شعر رأسي بما نحن فيه؟

- لا تجادل يا وقح... وهو يبصق على الأرض كأنه يتقيأ ويرد ما في جوفه ببشاعة.

- أرجوك، نحن شباب ملتزمون، طلاب جامعيون، جئنا لقضاء وقت ممتع في ربوع شمال عراقنا الحبيب، لا نسمح بالتطاول أو التجاوز علينا مادمنا لم نأتِ بخطيئة ولم نتجاوز على قانون أو شرع... قاطعه، لم يجعله الضابط الوقح المغرور يكمل خطبته، تقدم منه، رفع يده الخشنة القذرة هاويًا بها على خده بقوة دون خجل أو وجل أو حتى اعتبار... علا لغط الأصدقاء، ارتفعت أصواتهم الحانقة الناقمة التي لم تجد مبررًا واحدًا يجعل هذا الأقرع الأصلع أن يضرب صديقهم وبهذه الطريقة المشينة. تقدم منه سعد، ناح مهتاجًا:

- نحن لا نجد أي سبب لما فعلته؟ الدولة فيها قانون.

عربد الضابط عافطًا ناعقًا:

- ماذا؟ تقول في الدولة قانون؟ أنا هنا من يمثل القانون يا وغد، سحبه من قميصه بعنف وعوى في وجهه: أنت لا تعرف السبب الذي دعاني من فعل ذلك؟ سأقول لكَ: عندما استدار هذا- وهو يشير ببنصره المقيد بخاتم ذهب مرصع بعقيق غالي الثمن إلى آدم - هذا الذي له شعر امرأة سأقصه له إن شاء الله لأرجعه إلى أصله ولدًا شاطرًا ومؤدبا، أقول، عندما استدار سائقكم الذي لا أعرف إن كان ذكرًا أم أنثى متجهًا إلى سد دوكان لم يتوقف عند دوريتنا فاستهزئ بنا وبذلك قد ارتكب خطأً جسيمًا حينما تجاهلنا، ثم نبح بخبل: هل عرفت السبب الآن يا هذا؟!

فتح صندوق السيارة الذي أغلقه أحد الجنود مذ قليل بعد أن لم يجد فيه شيئًا غريبًا أو مثيرًا، وإذا به يجد كتابًا مركونًا بشكل عرضي في إحدى الزوايا المظلمة من الصندوق...

في هذه اللحظة ارتعدت أطراف الأصدقاء خوفًا مما سيحصل لهم وما سيؤدي هذا الكتاب بهم، التهلكة إن لم يكن الجحيم. انهار آدم أولهم، مسكه مغص حاد قاتل في أسفل بطنه، انثنى على السيارة وهو يداري ألمه محاولاً إخفائه، بينما ارتجفت أبدان الآخرين من هول المفاجأة غير المتوقعة، بات كل شخص منهم يفكر بالطريقة التي سيموت بها على أيدي هؤلاء، خاصة القبيح ذاك، صاحب الشاربين العكرين، لما يحمله من غلاظه وقسوة ونتيجة ما بدر منه اتجاه صديقهم من وقاحة متورمة بالانحطاط والاستهتار...

رفع الكتاب، قلّبه، تصفحه بسرعة كأنه لا يعرف القراءة ولا يجيد الكتابة. سأل آدم بعنف متهورًا:

- ما هذا؟

بفتور حاول أن يظهره كمًا من الاحترام:

- إنه... كتاب!.

بنذالة نهق:

- يا ابن الكلب أنا أعرف أنه كتاب، أنا أسألك أي نوع من الكتب؟! ولماذا هو يتيم هكذا؟ أعني، لماذا وحده ملقى في صندوق السيارة؟! هل هو مهم إلى هذه الدرجة؟!

- الحقيقة، أقصد، أنه مجرد للتسلية!... مجموعة من الكلمات المتقاطعة التي نتسلى بها وقت فراغنا، هل هذا حرام أم ممنوع هو الآخر؟!

دعكه بيده الخشنة، في هذه اللحظة شعر آدم بأن الضابط لم يفهم تمامًا ما تعني كلمات متقاطعة. رماه في الصندوق بحقد، أغلق الصندوق بعدها، صرخ بالجنود صاهلاً آمرا:

- سوقوهم حيث آمر الدورية في مركز بلدية المحافظة، قولوا له، إن الضابط شلش ألقى القبض عليهم بتهمة عدم التوقف عند السيطرة الرئيسية للمدينة، أبلغوه أن

يعتني بهم جيدًا خاصة بهذا الذي له شعر امرأة!... ستبقى السيارة معنا لحين رجوعهم، ثم همس بسره مغتبطًا مسرورا "إن رجعوا من هناك سالمين أصلاً !".

تفتحت أسارير الشباب لهذا الإجراء، هتف آدم بهم مشجعًا وهو يوجه هتافه إلى الضابط الذي صفعه:

- ماذا يعني... ها؟ لنذهب إلى آمر المركز ونحكي له ما حصل معنا بالضبط...

تحرك الموكب بهم... هناك وبعد أن دخلوا إحدى الغرف، تفاجأ الجميع بوجود رجل جالس خلف طاولة خشبية عتيقة بنية اللون كأنها محروقة هو الذي يأمر وينهي، يرتدي ملابس مدنية كأنه في بيته، عريض الكتفين، حليق الرأس، بشاربين طافحين بالشعر كأنهما لقروي من سكنت الجبل، سألهم بصوت عريض غليظ من خلف شاربيه عن أسمائهم وسبب وجودهم ونوع أعمالهم بعد أن أظهروا له هوياتهم التي تثبت أنهم طلاب جامعيون من بغداد... شارحين له كل ما حصل بصدق ووضوح... فاجأهم بأسئلة غريبة، أغرب من أصل وجنس الشيطان:

- لماذا أسماؤكم مختلفة؟! دراستكم متشابهة؟! ووجهتكم واحدة؟!

رد عليه آدم بحصافة:

- سيدي الكريم، إذا كانت أسماؤنا مختلفة فهذا أمر طبيعي لأننا عراقيون؛ وحضرتك تعرف ماذا أعني.. وإذا كانت دراستنا متشابهة فذاك لأننا ندرس في كلية واحدة، يعني زملاء وأصدقاء.. أما عن وجهتنا الواحدة، فهذه لم تتعد كونها مسألة ذوق، إذ أردنا أن نزور مصايفنا السياحية في وقت واحد... هذا كل ما في الأمر، وكما ترى سيدي، ليس هناك ما هو غريب أو شائن.

استمع له بحرص وشغف، صدّقهم، قام فاردًا طوله وهو يصيح بأحد الجنود الذين ينتظرون منه همسة:

- خذوا هؤلاء حيث توجد سيارتهم، قولوا لشلش الضابط بأن آمر المركز أخلى سبيلهم بعد أن عمل الواجب معهم!، عليه تنفيذ الأوامر بحذافيرها... هيا، ماذا تنتظرون؟

نفذوا المساكين بجلودهم، تكدسوا في السيارة من جديد بعد أن نشف رقيهم، تيبست حلوقهم من الخوف والرهبة والطريقة التعسفية التي عاملهم بها ذلك الضابط الأقرع الوقح الحقير دون وجه حق، لكنهم شكروا الله الذي أنقذهم من براثين شلش اللعينة عندما قلّب الكتاب ولم يعرف ماهيته... فقد كان كتابًا تحت عنوان "الزعيم عبد الكريم قاسم" مع صورته التي توسطت الصفحة الأولى، لم يرها ذلك الأرعن الغاشم، كان ذلك رحمة من الله، حكمته، سبحانه هي التي جعلته لا يرى ما أمامه، خاصة عندما ظهر بأنه أمي لا يجيد القراءة والكتابة ولم يستطع فك الخط!.

رجعوا إلى بيوتهم ومن ثم كليتهم ودراستهم من جديد، لكن حياتهم لم ترجع كما كانت من قبل خاصة لآدم بعد الصفعة التي تلقاها ببشاعة من ذلك الضابط الجاهل، الأمي، الوقح شلش، قاتله الله وأخزاه لقاء تصرفه الأغبر... لم ينتظر آدم كثيرًا، ترك جامعته دون أن يكملها. هرب خارج أسوار وطنه بحثًا عن وطن يرعاه ويحميه، على أمل أن يجده ليكون بديلاً عن عراقه، ذلك الذي يسميه الحبيب.

(٣٤)

لا تقل للدجاجة كش اقطع أرجلها ،

سعيد من يرى ويعي في الحياة . . من يستيقظ قبل موته . .

من يلحق نفسه ولا يدعها تتقدمه أو تسبقه .

أول ما قام به آدم بعد رجوعه من مصايف شمال وطنه، البحث عن وسيلة تجعله يستحصل على جواز سفر له ولأنْهُر. بدأ مشواره مع رجل يعرفه اسمه هادي من رجال الأمن المتقاعدين. زاره مع زوجته في بيته. رحب بهما الرجل ووعدهما خيرًا، ترك آدم عنده ما يحتاجه من أوراق تثبت شخصيتهما وتحصيلهما العلمي وضرب موعدًا معه بعد يومين في دائرة تجنيد الرصافة.

كان هادي أسمر البشرة، ممتلئ البدن، يزفر عندما يتكلم كمن يعاني من ضيق في التنفس، يعرف آدم منذ الصغر، سكن معهم في نفس المحلة قبل أعوام طويلة تعود إلى بداية سبعينيات القرن المنصرم، متزوج من امرأة من دين آدم وأنْهُر، غريب الطباع، أخفى هادي إخوانه، لم يجعلهم يدخلون الجيش بحجج كثيرة بحكم مركزه الأمني، جعلهم يسافرون خارج العراق في وقت كان الأخير يتقلب على نار الحرب الهوجاء المستعرة مع إيران، يتفاخر بذلك، يقول:

- حميتهم. لم أجعلهم يموتون، هذا ما قدرني الله عليه. له من تلك المرأة التي تركت دينها من أجله لأنها أحبته خمسة أولاد أكبرهم في الخامسة عشر حيث تزوج عن كبر. بعد أن غيّرت دينها وتزوجت بهادي نبذوها أهلها، اعتبروها من الأموات، لم تعد تعني لهم شيئًا، هكذا هم أهل طائفتها، ما أن ينسلخ أحدهم من ملتهم حتى تتصحر عواطفهم وداخلهم يئن مجروح، يبكي وينوح.

بعد يومين كما اتفقا التقيا عند بوابة التجنيد، أنْهُر لم تفتها فرصة كهذه، هي حريصة جدًا على متابعة هذا الأمر المهم الذي من دونه لا يكون هناك من ثمة سفر. هادي

ظل يتقدم آدم وزوجته خطوة في مشيته، له حساباته الخاصة، كان يعرف لغة دوائر الدولة جيدًا، ما أن يهمس في أذن الحارس أو الضابط بضعة كلمات يبدأها بأنه كان أحد المقربين من حماية الكايزر حتى تتفتح له كل الأبواب التي يراها آدم موصدة في وجهه فيما لو حاول بمفرده، لحظات قليلة حتى دخلا على آمر التجنيد، اهتزت الأرض من تحت هادي وهو يقدّم التحية العسكرية له دون رفع يده بجانب رأسه، كان يرتدي ملابس مدنية، آدم وأنهُر كانا خلفه يتابعان ما يحدث بأعصاب متوترة، قبل أن يهمّ هادي بالحديث اقترب أحد الضباط من الآمر واسقط على مسامعه شيئًا لم يجعلهم يسمعونه، ثم انسحب من الغرفة، قام الآمر بطوله مرحبًا بالضيوف بشكل وديٍّ أخوي لم يصدقانه بأنه يصدر من هذا الجامد بجلسته، ثم سألهما عن حاجتهما، نبر هادي برنة ثابتة:

- هذا آدم، من عائلة طيبة تعتبر أعزّ معارفنا. يريد السفر بضعة أيام مع زوجته التي تراها أمامك خارج العراق، هو مازال طالبًا جامعيًا وزوجته انهت لتوها دراستها الإعدادية، تزوجا قبل فترة وجيزة ويطمعون بكرمك، أن توافق على معاملة سفرهما... قال ذلك وهو ينظر إلى آدم جانبيًا بشكل خفي.

- أعتقد ستصادفنا مشكلة صغيرة، ثم تنحنح سائلاً آدم: في أي مرحلة دراسية الآن؟

- الثالثة يا سيدي.

- طيب، فرصتك طيبة. لكن، عليك الانتظار قليلاً، هناك أوامر عليا تمنعي الآن من توقيع أوراقك، هادي يعرف ما أعني، وتابع: كلها أسابيع قليلة حتى تجد نفسك مع زوجتك في الطائرة، اعدكما.

شكره هادي متملقًا:

- سيدي أنت الخير والبركة، لن نعدم من وجودكم هنا في هذا الموقع الحساس، ثم متزلفًا: الرجل المناسب في المكان المناسب. انسحبوا وهم ينحنون أمامه. عند الباب قبل خروج هادي أحدث صخبًا غير قليل بعد أن صفق حذائه الأرض بقوة مؤديًا التحية وهو يرفع كتفيه مودعًا.

في الطريق تحدثا بحرية أكبر، هادي يعرف بأنهما لا ينويان الرجوع من سفرهما إن حصل، قال:

- الآمر يريد أن يجد منفذا يوقع من خلاله أوراقك، علينا أن لا نضغط عليه، هو أعلم منا، منصبه كبير لا يجازف به، لذلك، عليكما كما قال الانتظار.

• • • •

شعر آدم بالحرج، هو لا يستطيع الانتظار وقتًا طويلاً، أسابيع يجدها دهرًا، يريد الهروب اليوم قبل الغد، من يتفهم وضعه؟ لو عبر مرحلته الجامعية الثالثة فلا يحق له السفر بعد ذلك مطلقًا. لم يغب عن ذهنه هذا الأمر لحظة، هو يريد أن يستعجل لا أن ينتظر... خاطب نفسه "أه يا زمننا العليل المحسوب علينا بالثواني، يعتقدونك دهرًا وأنت ليس كذلك". ودعهما هادي. أنْهُر لم يرق لها ما حدث، صفنت برهة، ثم حزمت أمرها، خاطبت زوجها:

- تعال معي؟

- إلى أين؟

- إلى دائرة التجنيد مرة أخرى!

- دائرة التجنيد!، ناح مستغربًا: وماذا نفعل؟ لقد نزلنا من هناك لتونا!.

- لن أتحدث، أنا أفعل. سترى، سحبته من يده برفق، توجها إلى مقر حراسة التجنيد.

تحدثت أنْهُر مع الحارس، أخبرته بأنهما كانا مذ قليل بصحبة ضابط الأمن المتقاعد عند آمر التجنيد، صدّقها، أشار بأنه رآهما، لم يمانع دخولهما إلى الغرفة التي تسبق غرفة الآمر، وجدا الجنديين اللذين مرًّا بهما قبل قليل جالسين وراء طاولتين من خشب، رماديتين منهكتين، اقتربت من أحدهما بعد أن ظنت بحدسها بأنه الأنسب لمهمتها التي تفكر بها، هامسة:

- أنا أنْهُر، كنت منذ لحظات مع قريبنا عند السيد الآمر، رأيتنا بالتأكيد أليس كذلك؟، تابعت دون أن تعطيه فرصة أو مجالاً للرد: هل أستطيع اللقاء بك خارج دائرة التجنيد اليوم عصرًا؟!

- معي؟

- كما سمعت، ثم منوهة: أنا وزوجي، سوف لن تخسر!...

لم يتمالك نفسه كثيرًا، تداعى بثوانٍ معدودة، الشرقي لا يصمد أمام المرأة لفترة طويلة، خاصة لو كانت بجمال وشخصية أنْهُر، هي عرفت كيف تدخل وتستغل الموقف لصالحها، الرجل ربما لا تأتيه الفطنة لهذه الجزئية المهمة، شرع الجندي مراسل الآمر خافقًا:

- أين؟ وأضاف: سأتي مع ابن عمي، نسكن في الأعظمية، يمكننا لقاءكما في مقهى القناة على الكورنيش، هل تعرفانها؟

أجابته أنْهُر دون معرفة سابقة بالمقهى:

- نعم.

- اتفقنا. قبل أن يغادرانه سألته عن اسمه. أجاب "شاكر". عاشت الأسماء... قالت له ذلك ثم غادراه وآدم مستغربًا لا يصدق ما يدور حوله. خطتها كانت... التحدث معه بشأن توقيع الأوراق بسرعة، ربما تجد عنده حلاً، أو يساعدهما بمعرفته لسيدة الآمر، قالت تخاطب نفسها "محاولة، لن يهم، قد تصيب أو تخيب" وانطلقا نحو البيت قافلين وآدم سارحًا ساهيًا منبهرًا بتصرفات زوجته وشجاعتها التي فاقت توقعاته...

حان العصر، حضرا قبل السادسة، ظلا في البداية على جانب الطريق ولم يدخلا المقهى، أرادا أن يتأكدا أن الأمور تسير معهما سيرًا حسنًا دون مشاكل، ينظران إلى المارة حينًا وإلى نهر دجلة حينًا آخر، المقهى كان مثل بيت من الخشب، أزرق الطلاء، بشبابيك ملونه يطل جانبها من اليمين إلى النهر، تقف على أرضيتها الخشبية طاولة للبلياردو، تجاوزت الساعة السادسة ولم يحضر الجندي الذي ينتظرانه، شعرا بالقلق، بدءا يفكران بالأسباب التي أخرت وصوله، ثم طلّ شاكر بصحبة شاب رفيع وهما منهمكان في حديث جانبي، رحبا به ومن كان معه، دخلوا المقهى، استحلوا ركنًا قصيًا شباكه مطل على النهر، الشمس بدأت تلملم أشعتها، موج النهر كان يتدهدر برفق ساحر خلاب، الأشعة المتبقية التي مازالت تصبغه تلعب معه، تمتطي موجه، موج دجلة الراقص لحظتها كان أشبه بحركة طيور تسبح، أشجار النخيل المنتصبة أعطت للمنظر رومانسية رائعة بظلالها الخافتة التي قصر طولها والشمس تتجه نحو الغروب، آدم طلب شايًا أسود معطر بالهيل يشربونه، ثم باغتت أنْهُر الجندي بسؤالها الذي كان يجلس قبالتها تمامًا، يرتدي

قميصًا أحمر مخططًا بالأبيض من الصوف، لم يتجاوز الرابعة والعشرين، نحيف، أسمر لا يتمتع بأي علامة فارقه تميزه عن الذي معه:

- أوراق زوجي آدم عند آمر التجنيد تحتاج إلى توقيعه فقط. خلّص لنا الموضوع ولك منا هدية ثمينة!.

كمتمرس على الرشوة لم يتوان:

- خمسمائة دينار.

- اتفقنا. تعانقت الأيادي، شربوا الشاي، وعدهما شاكر بأن يكون لقاؤهما بعد غد في دائرة التجنيد صباحًا، الأوراق ستكون جاهزة وموقعة على أن يكون الظرف الذي يحوي المال معهما.

• • • •

كانا حريصين أن يكونا حسب الوقت والمكان المحددين في دائرة التجنيد، عند البوابة رأيا شخصًا آخر، حارس غير الذي وافق على صعودهما لآمر الدائرة قبل يومين، كانا عليهما إقناعه ليسمح لهما بالدخول، اقتربت منه سائلة بحنية:

- أنا أنْهُر، لا تستغرب من وجودي هنا كامرأة في دائرة كهذه تخص الرجال، كنا قبل يومين هنا، عندنا موعد مهم مع شاكر مراسل آمر التجنيد، هل يمكن لنا مقابلته أو أن تنادي عليه، وهي تخفض رأسها، لو سمحت؟

خزرها بنظرة غريبة، كان الحارس منفر المنظر، يرتدي ملابس عسكرية زيتونية غامقة غير نظيفة، نبرة صوته فيها رنة تشبه رنة شخص حشرت في بلعومة خوخة ويود التحدث، سبحان الله، كانت نبرته مقلقه كمنظره، شاربين غليظين، عينين حمراوين، وعلى خده علامة فارقة واضحة لجرح قديم، أجابها بغرابة شديدة وهو يقيسها بنظره ويزر آدم بطرف لم يرتح له الأخير متلمظًا:

- لولا شعر هذا الشاب الجميل الطويل وهو يشير بسبابته نحو آدم، لما جعلتكما تقابلانه، اصعدا...

لم يكذبا خبرًا، جريا مسرعين، قفزا سلمات الدرج قفزًا، كانت السلمات عريضة، ليست متباعدة الواحدة عن الأخرى مما سهل ارتقاءه بسهولة، دخلا الغرفة التي

فيها مراسلو الآمر، رأيا شاكر مواضب بانحنائه على الطاولة القهوائية الخشبية المتهالكة يكتب شيئًا، ما أن رآهما ارتبك، لملم بعض الأوراق التي التقطها من درج الطاولة الأعلى على يمينه ثم غمز لهما بمعنى واتجه نحو الممر الجانبي المليء بالمراجعين.

لامس كتف آدم، قال والعرق يتصبب منه:

- خذ هذه أوراقك جاهزة وموقعه ومختومة.

لم يصدق سمعه ونظره، ارتبك آدم أكثر من شاكر، ضم الأوراق تحت إبطه وناوله الظرف وقبل أن يغادره سأله كيف فعلت ذلك؟

بغرور لا يطاق:

- أبدًا، كل ما فعلته هو أني وضعت أوراقك مع أوراق أخرى كان عليه توقيعها، كبستها من ناحية اسمك، فلم يرها، وحتى لو وقع نظره عليها، سهوًا، نعم سأقول له سهوًا يا سيدي، أعتذر منه وأخرج كأن شيئًا لم يكن، ولأنك محظوظ والله يحبك لم يحدث من هذا شيء، سهلها الله علينا... اذهب مصحوبًا بالسلامة، قال كلمته الأخيرة وهو يتحسس الظرف المحشور في جيب بنطاله الذي سلمه آدم إياه المحتوي على خمسمائة دينار متأكدًا بأصابعه يتلمس زر الجيب إن كان مغلقًا بالشكل الصحيح، نافخًا صدره، شاعرًا بالزهو إلى أبعد الحدود، بعد أن اقترب من آدم قاصدًا، هامسًا في أذنه:
- لا تنسَ أخاك عندما تصل أوروبا، كل ما أطلبه أمنية واحدة تحققها لي لا غير، أن تقبّل لي أول شقراء تقابلها وتقول لها هذه من شاكر المحروم!.

• • • •

تحركاتهما نحو هدفهما المنشود كانت سريعة. ترجم آدم شهاداته الدراسية بمساعدة مدير تسجيل كليته الدكتور "ج.ح"، حصل على شهادة مختومة واضحة التعريف بأنه طالب في كلية الطب البيطري لسنته الثالثة، كما ترجمت أنهُر شهادتها الإعدادية، كانت تلك الخطوة الأولى، ما تلاها، كانت رخصة قيادة السيارة، استخرج آدم رخصة دولية، ثم فكرا بتحويل ما يملكان إلى عملة صعبة وتهريبها

إلى خارج العراق، وقتها العراقي لا يحق له السفر إلا إذا كان في حوزته فقط سبعمائة دولار أمريكي، أكثر من هذا المبلغ يصادر، يقولون بأن الشخص سيذهب ولن يعود، الإجراءات كانت مشددة حول هذه النقطة، لذلك، كانا عليهما إرسال ما عندهما خارج العراق بطريقة ما قبل سفرهما. أنْهُر بدأت اتصالاتها مع أخيها كريم الذي يعيش في ألمانيا منذ أكثر من ربع قرن، شجعها، وعدها بالمساعدة في حالة وصولهما، كانت الأمور كلها تسير بشكل جيد نحو الهروب، الهروب من الطاعون الذي طالما فكرا به وها هما يسعيان للتخلص منه.

• • • •

استمدا من اليأس الذي كانَ يغلف حياتهما قوة، ومن الزمن الذي خبروه وذاقا لوعته خبرة. كانت تحركاتهما في البداية سرية، هما يعرفان مدى خطورة ما يفكران به، من يسافر وقتها تشترط عليه حكومة الكايزر أن يأتي بشهود ثلاثة، يشهدون ويتعهدون في المحكمة على رجوعه، يدفعون لقاء ذلك غرامة مالية في حالة عدم رجوع الشخص الذي يكفلونه مجددًا إلى أرض الوطن. آدم يعرف هذا الشرط، فكر به مليًا، لابد من تجاوزه فيما لو أرادا السفر، من هذا الذي يقبل على نفسه كفالة شخص يعرف بأنه سوف لن يرجع؟!، وربما يتعرض للاستجواب والسؤال.

الصعوبة تكمن في الكيفية التي يتم تجميع ثلاثة أشخاص في وقت واحد داخل قاعة المحكمة لتوثيق كفالتهم... كانت هذه عقبة حقيقية تقف أمامهما، ثم توصلا إلى حل، اختار آدم ثلاثة من أعز أصدقائه، أخبرهم بنيته في الهروب مع زوجته على أن يبقي عند أخيه مجيد قيمة الغرامة في حال بقاؤهم في الخارج. أول الكافلين كان مدير تسجيل كليته (ج.ح)، ثم سعد زميله وصديقه الذي مات بمرض السرطان في اليمن بعد عشر سنوات من رحيلهما، وإياد الذي من دينه، زميل دراسته، يعتبره آدم أخاه الذي لم تلده أمه. كان رفيعًا، أبيض البشرة، منحني الظهر، من أجمل ما خلق الله من حسن أودعه فيه، عيناه خضراوان، شعره عجيب الخلطة براق، ذهبي يميل إلى الإحمرار كلون غروب الشمس، كلون العسل والليل معًا، طيب القلب، نقي السريرة، من عائلة متعلمة، مثقفة، تسكن جانب الكرخ من بغداد، هرب هو الآخر فيما بعد، سكن وطن الغربة مثلهما؛ تزوج ولم يوفق كثيرًا في زواجه، كان يتمنى

أولادًا ولم ينجب، ظل مكسور الخاطر، يعطي ويهب ويساعد طوال الوقت دون حساب من كل قلبه كراهب.

ضاقت عندهما سبل الانتظار، احتضرت وفاضت روحهما من الصبر كادت تنطق بالاستسلام نتيجة التكتم غير المجدي على قرارهما في الهروب رغم استكمالهما كل إجراءات السفر المطلوبة...

ذات صباح نهض آدم قلقًا، لكن منظره يوحي بالثقة والاقتدار بعد أن غادره الحرج، يرمق الآخرين بنظرة رثاء خرساء، لم يتبق لهما من أمر سوى التبليغ بقرارهما الذي سيواجه معارضة شديدة من المقربين رغم معرفة أخيه مجيد بنيتهما.

اتصل من فوره بصديق طفولته وشبابه، جبار الذي كانَ له كالظل الذي كانت نهايته مفجعة، فبعد هروبهما ألقي القبض عليه وحكم بالسجن لمدة سبع سنوات بتهمة التهريب. بعد خروجه من السجن بقي ملاحقًا حتى قتل على أيادي مجهولة، وجدوا جثته في مكان معزول قرب ناحية المسيب بعد زواجه بأشهر، أنجبت زوجته ولدًا يتيم الأب سمّته جبار. وها هو آدم يتصل به في ذلك الصباح حاملاً من العزم أقواه، مصممًا على مفاتحته بالأمر:

- نعم آدم أسمعكَ جيدًا... كيفَ حالك؟

- أريدكَ لأمرٍ هام.

أجابه جبار بجزع مشوبًا بالتردد:

- جعلت أطرافي ترتعد هلعًا، أرجوك، قل لي ما وراءك؟... وهو يتمتم بصوت خفيض: يكفينا الله شر الشياطين.

- لقد سمعتك يا صديقي، وكعادته في الحديث، أردف: لا تندد بالملحدين وأنتَ سكران، واصل بجد: لا ينفع الكلام هكذا، أنا في الدار، سأنتظرك.

مازحًا بلطف معهود:

- منْ يعبد المال لا يصلح لأن يتنكر من قيمته. وعده خيرًا وأغلقا الخط.

جلسًا بصحبة أنْهُر، همسَ آدم بأذن صديقه:

- أريد أن أهرب مع زوجتي إلى خارج العراق.

دُهلَ جبار من قرار الهروب المباغت السريع، ردَ عليه بنبرة غريبة كمن يداري هزيمة بضحكة:

- أنا لا أتخلى عن وطني بأي ثمن. الوطن بالنسبة لي هو الحياة... لا يمكن أن يكون نمط الحياة واحد، وإلا ستكون لا تطاق، لذلكَ تتبدل الأحوال والظروف التي تحيط بنا وبها نحيا ومعها نعيش.

- عزيزي جبار، لقد حسمنا أمرنا وانتهى الأمر. أنت هنا فقط لتقديم المساعدة التي نتوخاها منك، ثمَ شعر بأنه كان مندفعًا في مشاعره، حادًا في رده، قال كالمعتذر، لكن بحماس حقيقي منقطع النظير، لم يسمع جبار من قبل أن يكلمه آدم يومًا بكل هذا الوجد، حتى تساءل في سره "من أين أتى به وأين كان قابعًا؟ بل أين كان مدفونًا؟".

- سأترك لكَ الفلسفة، تمتع أنتَ بفضائلها واترك لنا خيار الهروب، الطاعون يلاحقنا، دخل خلايا أجسامنا، بدأ يأكل ويشرب معنا، يتنفس شهيقنا، دعنا ننفذ بجلدنا... حيث الحرية والآمان، حيث الانفتاح والحرص على الوقت، هناك الناس يفكرون ويعملون على أساس أن الإنسان غاية الغايات... تدخلت هنا أنهُر، جاء صوتها كأنه نابع من بين أضلعها:

- عزيزي جبار، الطاعون له منطق آخر، هو يفكر كيف يلتهمنا، يحولنا مسوخًا، عظامًا خاوية لا تقوى على الوقوف، هذا هو صميم عمله، أن يجعلنا في مكاننا قابعين كالحجر، لا نحس ولا نفكر، بعدها لن يخاف منا لأننا حجر لا نفكر. يقول لنا نفذوا ثم ناقشوا، اقتلوا ثم اعرفوا السبب، عذبوا بلا ألم، هو لا يسأل نفسه، هل ثمة عذاب بلا ألم؟! لا يهم أن تعرف لماذا تعذّب الآخرين؟، وعندما يملّ الطاعون من خط سيره، سيختار خطًا آخر أكثر بشاعة من الموت ذاته، أراه يقترب من حافة الدين، سيكون الدين هو المرحلة القادمة، صدقني لو صدق حدسي وأصبح الدين هو المرض ستكون نهاية قارات العالم العربي على يديه، سيعرف الطاعون المتمرس على الشيطنة كيف يدخل الرعب والعذاب قلوب الأبرياء ويحول الدين إلى شيء أشبه بالنقمة على المؤمنين، سيكون والعياذ بالله حبل المشنقة لعباد الله وهم لا يدركون، سيجعلونهم لعبة خشبية خيوطها غير مرئية معلقة في الهواء وهو من يمسك بأذرعها، يحركها كما يشاء، يقول لها فوق تذهب، تحت تلبي

صاغرة، أليست الخيوط بيده، والناس من خشب؟!، هل تفهم وتتصور ما سيؤول إليه وضعنا البائس أصلاً، الغارق باللهو، الوعي الخاطئ المقصود الخبيث كالسرطان الذي يزرعه بحرفية ناقمة هو السائد وهو ما سيكون وشره أعظم!.
آدم أضاف بعد أن توقفت زوجته عن الحديث، بحرص شديد وصوت جعله أقرب إلى الهمس:

- اسمع، اتفقنا أن لا ننجب في ظل زمن الطاعون الذي نحياه أولادًا، لا نريد لهم أن يُخطط لهم مستقبلهم دون إرادتهم، وعندما يكبرون مثلنا تكون سكتهم قد بنيت وامتدت ولا يبق لهم من خيار سوى ولوجها والسير عليها، نحن نرفض أن تكون لنا أسرة تحت هذا النير، لا نقبل أن تطوق رقبتينا بنيرهم، الكايزر ليس له من همّ غير أن ننحني أمامه مثل خدم الملوك، ساعتها فقط يكون راضيًا، نشر وباء الطاعون بيننا، لوث الأجواء، من يلحق ينفذ، ومن يبقى لا يكون له غير خيارين، أما الموت أو الطاعة بذل، نحن قررنا أن نرفض الخيارين، قال ذلك وهو ممسك بيد أنْهُر بقوة، تابع: الهروب سعيًا للحياة، حيثما يكون للإنسان قيمة إنسانية حقيقية لا تقدّر بالأثمان التي نعرفها، الحريات تكون ضمن إطار الإبداع، لا شيء مطلق في الحياة إلا قدرة الله. صدقني، ثمة من يقول متغابيًا، هناك في الضفة الأخرى من هذا العالم حريات مطلقة، فساد عام، انحلال في الأخلاق والعلاقات، كفر منتشر لا يطاق في كل حي وزقاق... كل هذا كذب، افتراء، خدعة، يريدون منا أن نحافظ على الماضي، أن نكره التغيير، نبقى كما نحن نتحجر في مكاننا كصدفة السلحفاة، ليستمر الكايزر في حكمه، ليعم البلاد الموت بسبب الطاعون الذي زرعه ونشر وباءه، هكذا هو ميزانهم غير العادل. الحرية يا صاحبي عمل، إبداع ونبذ الجوع، خبز يؤكل، مجتمع خالٍ من الفقر والمرض والجهل والحروب اللعينة التي ما أن ننتهي من واحدة حتى ندخل بأخرى أكثر بشاعة وهول... يا الله ماذا أقول، لماذا تفتح عليّ الجروح وترشها بالملح؟... فجرت فيّ غضبي وغيضي... تستمع له أنْهُر وهي ترص على يده بحنان منقطع النظير.

جبار فهم كلمات صديقه وزوجته، قدّرها جيدًا، دخلت مسامات جلده، تلافيف عقله، استوعبها، حزن لها، شعر برغبة كبيرة تدفعه نحو البكاء، تحامل على نفسه، لم يبكِ ولم ينهار أمام صديقه الذي يحبه ويفديه بروحه، جبار ليس على دينهما، لكن الإخاء

الإنساني لا يعترف بتلك الحدود التي ولد البشر عليها وعرفوها بالوراثة وقدرة القدر، قال بعد وقفه مطرقًا والهم يركبه:

- أنا في خدمتك يا صديقي... مُر وأنا أنفذ.

ابتسم رغم اللوعة مماحكًا:

- ها أنت الآن صديقي الذي أحبه، ثم بجدية خالصة: أريدكَ أن تتكفل ببيع أغراضنا، صمتَ برهة ينتظر رد فعلهَ، شرع متابعًا بهدوء: أنا لا أنوي بيعها بالمعنى الصحيح بقدر المحافظة عليها وضمان وقوعها في أياد أمينة تقدر ما سأعرضه عليك... الربح المادي أو الانتفاع ليسَ في حساباتي، بعدها وجه له نظرة متسائلة وهو يقول:

- هل فهمت ما أنوي فعله يا صديقي؟!

- نعم، بالتأكيد. ترددَ قليلاً، ابتسم متفكرًا، استطرد:

- قل ما تريده أرجوك... أعصابي لم تعدد تتحمل أفكارك.

كالطلقة أجابه:

- أريد بيع كتبي التي تراها أمامك... وما سواها لا أريد فيها ثمنًا... تصرف فيها كما تشاء، إلا الكتب؛ فهي أمانة وعهدة في رقبتك... بل مسؤولية قد تسبب لكَ الإحراج أو السجن، برقت من بينَ أسنانه ضحكة رائعة صادقة تنم عن حسن نواياه.

- هل كتبك ممنوعة لهذه الدرجة؟! ثمَ مقتضبًا: ما نوعها؟ أقصد ما نوع الغرابة فيها؟ ولماذا تعتقد أنها ممنوعة؟

- عزيزي الغالي، بالنسبة لي ومن يمتلك ميولا مَثلَ ميولي تعتبر كتب بريئة؛ لكن لهؤلاء الذين يحمون الوطن، على رأسهم الكايزر ومن لفَ لفه، حملة الطاعون الرهيب الذي يفتك... تعتبر محرّضة، خائنة، تدعو إلى التخريب والهدم، أكثر من البناء والأعمار. نحن لا نتفق، بل أعتقد بأننا سوفَ لن نتفق، بعضها يقال عنها ممنوعة، وبعضها قد تؤدي بك إلى الاعتقال، في أسوأ الأحوال يكون مصيرك الإعدام شنقًا: ها... ما قولك؟!

- وهل بقي عندي رأي، أقول حسبي الله ونعم الوكيل... سآخذها وأتصرف بحفظها وليكن الله في عوني.

قفز آدم من مكانه مسرورًا بقرار صديقه، صرخ منفعلاً:

- اتفقنا إذن، ليكن الله في عوننا، نحن بحاجة لعونه كما هي حاجتك له، يا رجل لا تكن أنانيًا في دعائك، تصرف "كجنتلمان" ادعو لنا جميعًا بالتوفيق، ثم مباغتًا: انقدني الآن ثلاثمائة دولار أمريكي خضراء وخذ ما تريده وما تستطيع حمله.

هَبَّ جبار منتصبًا يذرع الغرفة من ركن إلى ركن كأنه ينوي قياسها، مستنجدًا:

- اطلب لي تاكسي، سأقوم بالواجب على خير ما يرام. الدولارات الخضراء ستكون تحت تصرفك عند المساء، ثم أردف متحمسًا: لكن كيفَ لي الخروج بهذه الأشياء كلها، وأنت كما قلت، لم تخبر أحدًا من أهلك بعد ماعدا أخيك مجيد؟

وجم آدم صامتًا، حدج صديقة وزوجته بنظرة متوجسة، قلقة. صديقه قال له ما كان الوقت كله يفكر به، أنزله الأرض بعد أن كان محلقًا في السماء، ذكّره بأهله، قال له كيف سنخرج بكل هذه الأشياء وأنت مازلت لم تعطهم خبرًا بقرار هروبك، هم لا يعرفون، صدمه الموقف جعله يكون أكثر واقعيه، أخبره بما يجب أن يفعله منذ وقت طويل، عليه أن لا يصدمهم، خاصة أمه، هي لم تعرف الفرح في حياتها إلا ما ندر كبقية الأمهات العراقيات، الطاعون كان يصدح بلؤم ووقاحة منذ قرون خلت ومازال، ولماذا الفرح، هو لا يعجبه غير الحزن وشم رائحة الموت؟!

خرجَ آدم من صمته، وعى على نفسه، تسلق حافة البئر العميق المظلم بصعوبة بالغة ليصل إلى حافة الحياة، نبر بعد وجوم مطبق:

- لا عليك، سأتولى الأمر مع الوالدة فورًا، سأشرح لها ما نويت فعله، هي ستعرف بقرار هروبنا عاجلاً أم آجلاً... استطرد متفائلاً: إنها امرأة رائعة، نقية، أصيلة لا ترضى عليّ الهوان أو المذلة، تذكرني بأم غوركي في كتابه... سأقول لها بأني سأموت بالطاعون الذي يفترس كل شيء أن بقيت هنا...

خرج من غرفته التي دارت فيها الصفقة متوجهًا إلى أمه التي رآها جالسة تحتَ ظلَ شجرة التين لوحدها مسهبة في التفكير بلا تركيز... تقدم منها بخطى بطيئة كالسارق، انفجر مداعبًا وهو يحرك يديه نحو كتفها ذات اليمين وذات الشمال، هي تعرف طبعه، قالت مصطنعة الحزم غارقة في الضحك من ملامساته الخبيثة:

- ما وراءك؟ مصيبة جديدة!

- آه... يا أمي. أنكِ دائمًا تحرجينني، تسبقين أفكاري التي أنوي التحدث عنها، وأردف: ظلم لا يرضى به أحدٌ، والله لا يقبل بهذا أبدًا.

- قل ما تريد.

- أنا... أقصد، لقد... تحشرج الكلام في فمه ولم ينطق.

- عزيزي أنا أمك... افصح عما يدور في عقلك، كلي آذان صاغية.

لم يصدق نفسه، دفع بما يريد قوله دفعة واحدة:

- سنهاجر يا أمي أنا وزوجتي إلى أوروبا قريبًا، صمت، أشفق عليها في لحظة ضعف آدمي أزلي... كاد يتراجع عن موقفه وقراره، للأم تأثير آخر على الأبناء، فكر بالطاعون لحظتها، ما سيؤول إليه حاله لو بقي، ماذا عن أنْهُر؟... خطرت على باله كل تلك التساؤلات بسرعة رهيبة، نزفت عواطفه حرقه، هاجت مشاعره لوعة ولم يحرك ساكنًا بعدها.

سمعته بوجوم، شحب وجهها الصافي فجأة، صرخت في بكاء يقطع شرايين القلب ويصيب المرء بالإحباط والخجل والخوف. حاول تهدئتها فلم يفلح... بل ازدادت توترًا ونواحًا، تندب حظها بكلمات يائسة، بائسة مخنوقة:

- لقد ماتَ أخوك قبلَ أشهر... وها أنت ستذهب بلا رجعة... ليصبح الأمر أكثر سوءًا لأم بمثلَ سني... واصلت بكاؤها وهي تضربُ صدرها بقوة جنونية، جرحت خدودها الرقيقة بأظافر يدها التي استوطنتها رعشة الكبر، ناحت: اذهب، لا أريد رؤيتك ثانيةً، سأعتبرك منذ الآن في عداد الموتى كأخيك سعيد. في هذه الأثناء كان التاكسي قد وصل، جبار بدأ عمله وهو ينظر بعين الرأفة لأم صديقه وهي تتألم، تصارع القلق والخوف من المجهول على ابنها الذي ينوي هجرتهم بكل برود وعناد، وأنْهُر تتقدم بحرج كبير نحو عمتها أم نصير محاولة منها أن تخفف عنها وطأة ما صرح به زوجها.

• • • •

صقّى آدم ما عندهما من ذهب، جعله خالصًا بعد سبكه على شكل لوح من التيزاب(•)، تصرف بسيارته التي اشتراها بسعر لم يخسر عند بيعها كثيرًا، حوّل الدينار العراقي إلى دولار بمساعدة مدير تسجيل الكلية "ج.ح". أعطيا ذهبهما الخالص إلى زوج فضاء أخت مقبولة زوجة أخيه نصير صاحب الجنسية الكويتية كي يبيعه هناك ويحوّله إلى عمله صعبة يستطيعان آدم وأنْهُر صرفها وقتما يشاءان ومن أي دولة في العالم، كان لقرارهما ذاك أعظم فائدة ربما لم يتوقعها أحد غيرهما. إذ بعد هروبهما بأسابيع قليلة قرر الكايزر برعونة ساحقة كما في كل مرة يقرر فيها دخول الكويت، كانا آدم وأنْهُر وقتها في بودابست، سحبا نقودهما من هناك قبل دخول الجيش العراقي الأراضي الكويتية بأربعة أسابيع فقط، ولو لم يفعلا ذلك وبحاسة مرهفة استطاعت أن تجس نبض الأمور وتتوقع مصائبها كأنها حاضر وليس مستقبل، لما قدرا على مواصلة هروبهما والاستقرار في ألمانيا.

لم يتوقع كمال أن يكون آدم صديقه الحميم بعد أن يتزوج الأخير من أخته. هو الذي وشى بهما أهله، بسببه اشتعلت نار الغيرة عند أختيها، حرّك أمه عليها، النتيجة كانت انتحار أنْهُر وعذاب آدم، وها هو اليوم يعتبر زوج أخته من أعز أصدقائه، لا يحب مفارقته، يأخذ رأيه في كل شيء ينوي فعله، يقول، آدم هذا حبيبي، لن أتخلى عنه، وما أن عرف بأن أنْهُر تستعد للهروب مع زوجها، قرر دون سابق إنذار أو تفكير طويل الهروب معهما.

أمه بدرية لم تمانع. كمال قلبها الذي ينبض لا ترفض له طلبًا، ناهيك بأنه سيكون بجانب أخيه كريم المغترب منذ سنين طويلة، كمال لم يرَ أخاه إلا في الصور، هكذا حضّر نفسه، تسريحه من الجيش بعد انتهاء الحرب أعطاه دافعًا قويًا للنزوح، قال:

- لن اترك صديقي زوج أختي حبيبة قلبي أنْهُر، سأكون معهما أينما يذهبان. أخته سامحته من قلبها على ما فعله معها دون رحمة، هي لا تريد أن تتذكر الماضي، زوجها كذلك لا يحب الماضي، يقول عنه جثة لا نبض فيها، سلمت أنْهُر أمرها

(•) تصفية الذهب وتحويلة إلى تيزاب: عملية كيميائية بحته ، وذلك بمعاملة الذهب بحامض الكبريتيك المركز ، فيتحول الذهب بعيارات مختلفة متعددة إلى ذهب خالص يسمى التيزاب وعياره يكون ٢٤

إلى الله وها هي تستعد للهروب مع من أحبته بجنون. كمال طلب من آدم أن يساعده بتهريب ذهبه هو الآخر، وعده خيرًا، قال، سأضرب لك موعدًا مع زوج فضاء ونذهب معًا، لابد أن تكون أنت في الصورة وبالتالي أي اتفاق يتوجب عليك حضوره، وافق، صاح منتعشًا بوقفته في غرفة الجلوس في بيتهم أثناء تداول الموضوع مع أهله بحضور أنْهُر:

- أنت يا آدم يا حبيبي تستاهل أذبح لك خروفًا.

ضحك آدم، عقب:

- لا أريد منك شيئًا، دعنا نهرب بسلام وهناك نحتفل. أضاف مداعبًا:

- لا صوف ولا خروف... نريد فقط أن نسلم أولاً من خبثك ولسانك وهذا لنا أعظم انتصار!.

• • • •

لم تُظهر الأيام التي تلت أي تطور جديد يثني آدم وزوجته عن قرارهما في الهروب. بل العكس، كل شيء كان مهيئًا، جوازات سفرهما، نقودهما، رخصة القيادة الدولية، ولم يتبق من أغراضهما غير الثلاجة والتلفزيون وبعض الأشياء التي أوصيا بها مجيد بأن يتصرف فيها كيفما يشاء حسب ما تتطلبه الحاجة خاصة دفع غرامة الكافلين عندما يجد الجد... طمئنهم مجيد، حاول أن يكسر حاجز الرهبة والخوف بداخلهما، قال كلامًا مشجعًا رغم الفراغ الذي سيسببه رحيلهما عنهم، لكنه لا يستطيع حيال قرارهما شيئًا، نصير ألتزم الصمت، كان الرجل يحب آدم كثيرًا ويحترم ويقدر شخصية أنْهُر كذلك، خاطب نفسه أكثر من مرة "سينجحان في حياتهما، أنا متأكد من ذلك، لندعو لهما بسلامة الوصول والتوفيق".

سلوى أخته ظلت لليالٍ تنوح، تبكي فراقهما قبل رحيلهما، وسن لازمتهما في أيامهما الأخيرة في الوطن دون انقطاع، أخذت وعدًا من زوجها في حالة السماح لها بالبقاء بضعة أيام في بيت جدتها ستلبي كل ما يطلبه منها دون تأخير أو جدال. وافق ضمير الذي لا يملك الضمير على شرطها، ظل يحلم بليالي ماجنة معها وكأنها ليست زوجته!، الجنس عنده كل حياته، لا يريد أن يفهم شيئًا آخر يلهيه عن

ممارسته وبالطرق الغريبة المريبة التي يرغب بها. مروان كان تأثيره بالغًا حد الكآبة، بقي لأيام بلياليها لا ينام، عاد إليه الحزن الذي غادره بعد زواجه على موت أخيه سعيد مجددًا، السرحان والتوهان كانا من نصيبه، حاولت معه مرارًا زوجته ظفر بأن تخرجه من أزمته الحادة الجديد ولم تفلح، تدخل آدم، حاول أن يفهمه بأن حياته مرهونة خارج العراق وليس بداخله، عليه أن يحترم إرادته وإرادة زوجته، لكن عندما تدخلت أنْهُر اختلف الأمر، أقنعته بجدوى الهروب، قالت صادقة متحمسة كأنها ترى المستقبل:

- لا تحزن يا أخي، سيأتي اليوم الذي تطلب منا مساعدتك على الهروب. ستتذكر كلماتي هذه وتقول، أنْهُر كانت على حق. لا تنزعج، زمننا يتراجع إلى الوراء بسرعة رهيبة، لا جدوى من إصلاحه، أو إيقافه، أخوك آدم على حق، الدين سيكون محطتهم القادمة، وقتها لن تنفع الذكرى ولا الندم. القتل سيكون على الهوية، على الاسم وربما دون أن تُسأل... هذا ما أستطيع أن أقوله لك الآن، عليكما إذن أنت وزوجتك أن تفكرا منذ اليوم كيف تهربان وإلى أين؟، بدلاً من أن تبكي علينا؛ ابكِ على حالكما وما سيصير إليه.

• • • •

جاء ذلك الصباح الذي كانا ينتظرانه - موعد الهروب - سألَ آدم أخاه إن كانَ بإمكانه توصيلهما إلى المطار... رحب مجيد بالفكرة، قالَ مبتسمًا ومطمئنًا:

- على الأقل سأدخل التاريخ!

باستغراب:

- ماذا تقصد؟

- أقصد بأني آخر شخص من العائلة سيراكما وأنتما تغادران، ثمَ مضطربًا تابع: منْ يعلم؟ قد نلتقي مجددًا وقد لا نلتقي...

الدموع كانت هي لغة التعبير الصامتة التي تترجم ما تضمره القلوب، طفرت من عيونهم دونَ إرادة. قبل أن ينطلقوا بالسيارة وقفَ جميع أفراد العائلة قبالة آدم وأنْهُر، الأم وهي غارقة في دموعها قلبها يحترق لوعة لفراق ابنها، ثم قبلوهما فردًا

فردًا وأخرهم كانت وسن... نظر آدم نظرة أخيرة إلى بيتهم، تحسر بعمق كاد يخنقه، نظراته لم تزغ، شخصت على البناء، على الحديقة وسور البيت والباب الحديدي العريض الذي له لون الياقوت الإيراني... صاح به مجيد متعجلاً:

- هيا يا آدم ستتأخران على موعد طائرتكما، وأضاف مضطرًا: كمال اتصل من هناك أكثر من مرة يسأل عنكما... جلس بجانب أخيه، أنْهُر ظلت من مقعدها الخلفي تشير لهم بيدها الصغيرة البيضاء الرحيمة وتبكي دون انقطاع رغمًا عنها، هي تعرف بأنها سوف لن ترجع، آدم غاطس في مقعده الأمامي مهمومًا يريد الهروب ولا يريد مغادرة أهله، انطلق مجيد بسيارة أخيهم نصير الزرقاء تشق طريقها نحو الأمام، نحو طريق لا يعلم من أمره غير الله كيف سيكون بعد أن طهرتهم دموع الفراق وغسلت قلوبهم ثم عمدّتهم بها.

في المطار وجدوا أسرة أنْهُر بانتظارهم، عاصم نسيبهم كان معهم، تلاقت القلوب، تلاحمت الدموع، بدرية كانت في طليعتهم، أخذت ابنتها في الأحضان، داوود زوجها ردد بانكسار ينادي أنْهُر:

- تعالي يا ابنتي في حضني، أريد شمّكِ قبل أن ترحلي، أشبع من عبقك، سأكون وحيدًا من دونك... اقتربت منه، قبّلته من رأسه، بكت لحظتها بصمت، بكى كل شيء فيها إلا عينيها، داخلها كان ينصهر وهي تبتسم لأبيها، تردد:

- لا تقل ذلك يا ابتي، سأراك قريبًا بإذن الله، ستأتون لي، لن يطول فراقنا، أنا متأكدة من ذلك، خاطبت ذاتها بحرقة كمن تخرج روحه في لحظة احتضار طويلة "هل كتب علينا البكاء حتى نثبت وجودنا؟، يا خوفي أن تعتاد شعوبنا إطلاق العنان للرصاص بدل الرصّ على القلم، أتمنى ألا يصار القتل شريعة أيسر من تقطيع رؤوس البصل وبها يفتخرون، أن لا يمضغون الكآبة مع الخبز بعد عجنهما بالخوف، وأن لا يبكي الكبار كالأطفال". آدم كابر ولم يقدر، وقتها لم يملك غير دموعه، ذرفها بغزارة، سمعوا من خلال مكبر الصوت داخل صالة مطار الكايزر صوت نسائي ناعم يردد "على ركاب الرحلة المرقمة ٦٢٣ المتجهة إلى بلغراد التوجه إلى بوابة رقم ٣"... كلمات الرسام الهولندي "فان كوخ" قبل انتحاره كانت ترن في أذني أنْهُر كالصدى "متى ينتهي هذا الشقاء؟"، ثم ناداها خفية صوت الشاعر رنيه شار مشجعًا "لكي تكبر لابد أن ترتعد!"،

ارتفعت الطائرة في الهواء محلقة كاللقلق تشق السحب بمنقارها، آدم ضحك ساخرًا من شر بلية الواقع الذي يهتف بوقاحة مجاهرًا، متذكرًا هذيان المذياع عند انتهاء الحرب "هلهولة للحزب الصامد، هلهولة..." أنْهُر دون إرادة منها تعيد على نفسها قول المسرحي العربي الواقعي سعد الله ونّوس "نحن محكومون بالأمل"...

سلمَّا أمرهما للواحد القهار عالم الأسرار... هجرا بلدهما، يعرفان بأن هروبهما من الطاعون انتحار، انتحار يكمن فيه النجاة، سيكونا شاهدين على ما حصل، لا عدالة على أرض الوطن، احترفا الذكرى، أصبحت في غربتهما، مصيرهما المحتوم... وكلمات الشاعر الهندي العظيم طاغور تلاحقهما تعبيرًا عما يجول في خاطرهما تجاه الأهل والأصدقاء والشعب الطيب المسكين :

"إنني أنحني لكم جميعًا ثم أمضي في رحلتي "



هيثم نافل والي

٢٣ آذار ٢٠١٦

ميونخ، ألمانيا

المؤلف في سطور

- كاتب وقاص عراقي، من مواليد بغداد ١٩٦٥م.
- مهندس زراعي.
- هاجر مع زوجته إلى ألمانيا عام ١٩٩٠م.
- أسس مجلة ناطقة باللغة العربية بعنوان (ميمرا الكلمة) في ميونيخ عام ١٩٩٩م، وترّأس تحريرها.
- نشر مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والحكايات والمقالات في مواقع ومجلات عربية عديدة منها: مجلة آفاق مندائية، مجلة العهد، مجلة أقلام الثقافية، مجلة أصوات الشمال، الناس، أدب، شبكة حنين، وطيور دجلة، وغيرها الكثير.
- له محاولات عديدة في الرسم.
- أقام أثناء دراسته في الجامعة ثلاثة معارض رسم تشكيلي.
- أسس في عام ٢٠١٤ م رابطة للأدباء والفنانين والمثقفين المندائيين وعمل في لجنتها التحضيرية عامين.

- الإصدارات :

- نتاج السنين : مجموعة قصصية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٥م
- الشك وأشياء أخرى : مسرحية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٧م
- الدين والنبي في التاريخ : دراسة. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠١٠م
- الموتى لا يتكلمون : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- الهروب إلى الجحيم : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- عجائب يا زمن : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٥م
- أنْهُر بنت الرافدين: رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦م
- طاعون الشرق: رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦م

- البريد الإلكتروني: haitham65@hotmail.de



(+2) 02 27270004، (+2) 01288890065

www.shams-group.net